فَلسَفةُ العُلُوم
ونَظرِيَّة الأبعَاد الكَونِيَّة



للأستاذ : كزواي الحاج العربي

الطبعة الأولى
2014

كزواي الحاج العربي

فلسفة العلوم ونظرية الأبعاد الكونية

مطبعة بن سالم - الأغواط

الناشر

قــال اقــليدس:"إذا لم تســتطع البرهان على أمر فلا تقــل إنك تعرفه".ربــان الغواصة في أعماق المحيط المظلم لا يستطيع الحركة حتى يجعل نفسه إحداثية في هذا الكون ليكشف وجوده ومن ثمة يحدد أبعاده ويبني تطلعاته ,يحتاج إلى اكتشاف الأرضية التي يقف عليها ويتأكد من قوتها وصلابتها وقدرة تحملها ثم يبحث في نقاط الإحداثيات ويرسم الخطوط والزوايا ,وكذلك التقاطعات ويتحقق ذلك بقاعدة واحدة ووحيدة وهو رسم مخطط ذهني للعالم في كليته.لأن مفهوم السطح والمكان ضروري وأكيد لو افترض سطحا غير السطح الذي يوجد فيه تأتي معادلاته خاطئة ,وإذا قرر في لحظة حاسمة استعمال صواريخه دفاعا وهجوما جاء قصفه ضعيفا ,لا يحقق غاياته المنشودة ,يأتيه الرد من الخصوم والأعداء مدويا ومزلزلا.فلسفة العلوم تفتح آفاق المعرفة لفهم العدو و الصديق ,كتابة فلسفية عميقة بقلم الأستاذ كزواي الحاج العربي عالم وملم بالفكر الفلسفي قديمه وحديثه وعارف بالفرق الكلامية وباحث في أصولها وبنياتها الفلسفية ,له إطلاع كبير في علم الأديان جعل حياته دفاعا عن دينه وأمته وجعل فلسفته سلاحا مضادا لفلسفة الشك والمغالطة.

رقم الإيداع القانوني: DL: 2014-409
ردمك: ISBN: 978-9931-391-95-1

مطبعة بن سالم - الأغواط

كزواي الحاج العربي

فلسفة العلـــــــــوم
ونظرية الأبعاد الكونية

مطبعة بن سالم – الأغـــواط– الجزائر

Gourine83@yahoo.fr

الهاتف: **029.90.36.13**

الطبعة الأولى

2013

رقم الإيداع: **DL 0000000000**

ر.د.م.ك **ISBN :0000000000000000000**



الاهداء

قال تعالى: "يا ايتها النفس المطمئنه ارجعي الي ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي."

تمر الأيام وتبقى ذكرى فراق الوالد الكريم الحاج محمد كزواي في قلوبنا، نحن نتذكره أبا وصديقا ومعلما، ولا يسعنا إلا أن نقول إن لله وإن إليه راجعون يقول هذا الأبناء والأحفاد ومن عرفه.اللهم أرحم برحمتك وأشمل بمغفرتك وأجمعنا في جنتك إنك على كل شيء قدير.

مـــــــقدمــــــــة

قال تعالى في محكم التنزيل: ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾النجم 35، وقال في كتابه العزيز: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾البقرة 14 قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾التكاثر 5، 6 ويقول عليه الصلاة والسلام:{إن العُلَماء ورَثةُ الأنبياَء، إن الأنبياَء لم يورثُوا درهمًا ولا دينارًا وإنما ورثُوا العِلمَ فمَن أخذه أخذ بحظٍ وافرٍ}أخرجه أبو داود، قال تعالى:﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾الزمر 11، عن أبي أمامة حين قال: سمعت رسول الله يقول:{فَضلُ العَالِم على العَابِد كفضلِي على أدناكُم} ثم قال: {إن اللّه وملائكتهُ وأهل السماوات والأرض حتى النملة في جُحرها وحتى الحوت لَيصلُون على مُعَلِمي النّاس الخير}أخرجه أبو داود.قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾الإسراء 17،قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾العنكبوت 20، ربان الغواصة في أعماق المحيط المظلم لا يستطيع الحركة، حتى يجعل نفسه إحداثية في هذا الكون ليكشف وجوده. ومن ثمة يحدد أبعاده ويبني تطلعاته، يحتاج إلى اكتشاف الأرضية التي يقف عليها، يتأكد من قوتها وصلابتها

وقدرة تحملها، ثم يبحث في نقاط الإحداثيات ويرسم الخطوط والزوايا. وكذلك التقاطعات ويتحقق ذلك بقاعدة واحدة ووحيدة وهو رسم مخطط ذهني للعالم في كليته. لأن مفهوم السطح و المكان ضروري وأكيد لو افترض سطحا غير السطح الذي يوجد فيه، تأتي معادلاته خاطئة. إذا قرر في لحظة حاسمة استعمال صواريخه، دفاعا وهجوما جاء قصفه ضعيفا، لا يحقق غاياته المنشودة ويأتيه الرد من الخصوم والأعداء مدويا ومزلزلا، لأن الخصوم وإن كانت الأرضية والموقع ضعيفة، إلا أن معرفة الإحداثيات وتقاطعات الزمان والمكان ومعرفتهم الفارقة للكون والوجود جعلت نصرهم يتحقق بمقتضى السنن الإلهية. هذا حالنا كمسلمين مع خصومنا هم اكتشفوا الانقلاب الكوني مع ثورة كوبرنيك ورصدوا بدقة أثره الحتمي على مسار التاريخ والوجود. نحن التزمنا القواعد الأرسطية وما زلنا نتجرع مع الغصص فلكية بطليموس في مركزية الكون، وغثيان فلسفة أفلاطون في الفصل بين النفس والجسم، والتغني بفلسفته في حلقات الشطح الصوفي وخروج المهدي من سردابه ومصافحة الوهم والخيال، والسكن في الخرافة والشعوذة هذا وغيره حاصل بالضرورة لأن ربان الغواصة فقد إحداثياته فقدنا معه وجودنا و مصيرنا وها نحن نخرج من التاريخ والجغرافيا ونتساقط ونموت، في لحظات الحشرجة نسأل بعضنا البعض عما حصل؟ كيف حصل؟ لما حصل؟ نستسلم للسبات والموت البطيء. الحياة تثمر أحياء والبقاء يشكل أجيالا، نجهل أن القوة والعزة أمامنا ماء زلالا صافيا، لا تكدره فلسفات ولا سفسطات فارغة، على ربان الغواصة أن يكتشف الإحداثيات ويرسم التقاطعات لخطوطه. إن امتنع وأبى سنكون موضوعا للتاريخ

وقد كنا في سالف الأزمان والعصور التاريخ نفسه لم يقرأ المسلمون ثورات التاريخ، لم ينظروا إلى واقعهم نظرة الباحث المدرك لمصيره ومآله، نظرة المتبصر الفقيه، ننتظر حتى نهاية القرن العشرين، ينظر المسلمون إلى واقعهم يكتشفون أن قافلة الإنسانية رحلت، أن المسافة بينهم وبين غيرهم تتمدد عبر الزمن، بعدما ارتحلوا من التاريخ قسرا، هاهم الآن يرتحلون من الجغرافيا، خصمهم وعدوهم قبل أن يحتل أمصارهم، احتل عقولهم وأفقدهم القدرة على الرؤية الصحيحة السليمة، لذلك يستطيع العقل الإسلامي أن ينتفض من بين الركام، يلغي فكرة التراكم، يرجع لدينه وعقيدته، رجوع العارف الناظر لا رجوع اليائس من رحمة الله. يقول صموئيل كوهن: "ظل الإنسان أحقابا يظن أن مهمته فك رموز أو شفرة العالم. وظل قرونا يحل الرموز أو الشفرة عن طريق الاحالة أي خارج الذات العاقلة وهو أسلوب لا عقلاني، ولكن تراكم لديه ومن خلال نشاطه مع الحياة رصيد واسع من المعارف المتفرقة التي لم يضعها في نسق أو أنساق متكاملة". الرمز هنا المسلم لم ينظر للثورات البنائية في التاريخ، سلم نفسه لنظرية الثبات الأرسطية، قرأ كتاب المجسطي لبطليموس، أقنع نفسه بأن الأرض منبسطة وأنها مركز الكون ولأن هناك سنن إلهية حاكمة على الأشياء خرج من التاريخ والإنسانية أحوج ما تكون لتصوراته وبنياته الفكرية. الفكر الكنسي قتل نفسه لما استنسخ فلسفة الركام وجعلها في عمق عقيدته، الركام الفلسفي اليوناني المجوسي وجد له طريقا في المسائل الكلامية عند المسلمين ومن غاب عن الوعي الحضاري وعن معاينة الواقع وفتح طلاسمه، تأتيه ظلال الخرافة والسفسطة وتكتنفه وترسله إلى حالة اللاوعي

ويفقد بوصلة التوجه ويدخل وهمه وعالمه السحري، إلى فكره العقدي ليكون مدخلا جديدا لصراعات كلامية وتجاذب فكري عقيم لا يسمن ولا يغني من جوع. لقد مرت على المسلمين ثورة فكرية وبنية معرفية، صنعها علو الفكر الإسلامي في أيامه المجيدة وهي ثورة الخوارزمي في علم الجبر عن طريقه قرأ المسلمون علم المواريث قراءة جبرية توقف العقل المسلم وكان من المفترض أن يواصل ويكون العالم عنده متتالية هندسية، لأن الثورة الخوارزمية حررت العقل من قيد العد الحسابي إلى حرية الرمزية الجبرية المجردة عن المعطيات الحسية، الفتح العلمي كان ومازال سببا كافيا عند العلماء الأوروبيين أن يجعلوا منه مقدمة لتأسيس علوم المادة بروح رياضية مجردة. إلى غاية هذا اليوم لم نستطع أن نحل مشكلة العلو والارتفاع والأعلى والأسفل حلا رياضيا مجردا، وهي حقائق فصلت فيها ثورة كوبرنيك، فلسفة العلوم ونظرية الأبعاد الكونية بحث متواضع يبحث عن حقيقة غائبة ويحاول إظهارها وهي كيف يكون هذا التراكم الهائل في معارفنا سببا في تخلفنا لا سببا في نهضتنا؟ ما هو المنهج الذي يمنح لنا قراءة مثلى لما قرانا وحفظنا؟ البحث في آلية حذف تحذف من عقولنا الشك و المغالطة والكذب على الوحي والتاريخ كما نجد في كتب المتكلمين ومن امتهن فن الخرافة ؟هل العقل الإسلامي المعاصر له القدرة على وضع المناهج العلمية الجديدة التي تعيده إلى أيامه الأولى، أيام الصفاء العقدي عقيدة دون فلسفات كاذبة و لا آراء حاقدة تخط التاريخ بالكذب وتنشر الترهات والسفسطات العقيمة. أشكر الإخوة حسين بن عبد السلام على جهده في إحياء الفكر الفلسفي والحاج محمد هلوب على علمه

والسيد الفاضل بن عطية عطية على أدبه وشاعريته، والأخ دحام البشير على نقاء سريرته والزميل واعر عبد المالك على صبره والزميل قلومة مدني على حبه وإخلاصه والأخ ورنيقي التومي على حلمه، تلميذي فدول أحمد على شجاعته، ولدي كزواي لزهاري عما بذله من كتابة وتصحيح وأشكر مدير الثانوية السيد ابن علي سليمان على جهده.

الأغواط ثانوية أبي بكر الحاج عيسى 01 محرم 1435 هـ

فلسفة أو قل حكمة العلوم فرع أصيل في الفكر الفلسفي المعاصر يتناول بالبحث الأسس الأولى التطبيقية للعلوم مع تفرعها وتطورها المطرد المنفعل بآليات البحث العلمي الجاد، الذي يحاول أن يؤسس المناهج المتسقة مع الاوضاع الإنسانية التي تراهن على حل مشكلاتها اليومية بالرجوع الدائم للعلم ونتائجه. تعلق ذلك بالبحث الفيزيائي والبيولوجي وغيره من العلوم مع ضرورة إحداث مقاربة بين شتى فروع المعرفة، وقد يتجاوز البحث الفلسفي علوم المادة ليشمل العلوم الإنسانية والعقدية، وكل ما يحيط بمجال المعرفة الإنسانية، يتم البحث مثلا في مسلمات ومرتكزات علم النفس وعلم الاقتصاد وعلوم اللغة والتصوف وغيره. وهنالك من يرصد علاقات إبستيمولوجية تفرضها قواعد البحث والرجوع إلى التحليلات الأونطولوجية له قيمة ومراجعة مباحث فلسفة العلوم تظهر كم يقف الفيلسوف الباحث امام إشكاليات حقيقة يتصدى لها بالفهم و التأمل وكذلك التحليل ويمكن إجمالها كما يلي:

1- الوقوف على موضوعية البحث العلمي، والنظر في خطابه ولغته والتعرف على مسلماته. الفلسفة المعاصرة في ثوبها الغربي تعتقد جازمة ان الانبعاث الأول للمعارف العلمية جاء من صميم الفلسفة اليونانية القديمة، وتردد جديدا مع عصر النهضة الأوروبية لما تم الوقوف على خطوات المنهج التجريبي الاستقرائي وهذه قراءة مختزلة لتطور الفكر في التاريخ. ونظرة احادية جازمة بأن منبع الفكر العلمي واحد وهذا في الحقيقة إجحاف بالحضارات المتواترة.

2- فلسفة العلوم تبحث في إشكالية ماثلة في الذهن والواقع وهي قدرة بعض الحضارات على جعل الفكر العلمي حالة قائمة في الواقع كيف يساير مطالب الناس

ويحمل اثقالهم ويخفف من عنائهم كان ذلك في علوم المادة الجامدة وما أحدثته من نقلة نوعية في عالم التواصل، وكذا العلم البيولوجي وتصديه لمقدمات العجز والفناء. والعلوم الاخرى تشترك في هذه الخاصية على غرار مجتمعات ضعيفة علميا وتقنيا عاجزة، تقبع في هامش التاريخ ويأتيها التغير الأبدي من خارج فتنحل هويتها وتفقد وجودها.

3- فلسفة العلوم ترصد علاقة الوصل بين العلم وقراءة الكون والوقوف على الاسباب الاولى أضحى هم علماء العصر هو معرفة الترتيب الزماني والخوض في جدلية التاريخ والجغرافيا وكيف أن العارف بالعلم يمكن لنفسه البقاء ويحافظ على وجوده في سلسلة التطور الاجتماعي، وكان السعي وسيبقى في البحث عن اصل الوجود وبداية الخليقة وتشكل الكون. لأن معرفة البداية ترفع الغموض حتما عن النهاية في مجتمع بشري قلق على مآله ومصيره، وما ينتظره من افق مظلم تغشاه السحب الداكنة وهي تأتيه من كل مكان. والموجود أمامنا من المعارف فرض فرضا ووضع في ثقافتنا وضعا. وهناك من اراد ان يجعله وجهة واحدة تخدم غاية دينية ما ورائية هناك من أراد ان يجعل فكر إسحاق نيوتن في الفيزياء الكلاسيكية اداة لهدم نظرية الثبات الأرسطية، وكذا الفكر الكنسي فكانت روح الانتقام الفلسفي تغزو الباحثين وتفتح آفاق الشك في مسلمات القد ماء هكذا تكون حقائق ونظريات قد ضاعت و اختفت من قواميس المعرفة.

4- المنهج الذي توافق عليه الفلاسفة والعلماء بعد عصر النهضة الاوربية هو ضرورة الالتزام بالقواعد الاستقرائية، واعتماد التجربة كمسلمة تستند عليها كل المعارف ولماذا لا تكون هي المعيار الوحيد لكل معرفة، في حين أن العلم المجرد حرك العقل نحو فهم طرائق البحث الكوني. الفكر السابق عن الحضارة اليونانية

انتهج منهاجا صوريا وروحانيا كما نجد في الفلسفات الهندية والصينية القديمة وكذا الأمر مع الرسالات السماوية فنجد أن ثقل الميراث الكنسي قد اجج روح التحرر ضد فكرة الدين والوحي وتاريخ الأديان ليثبت ان الحضارات القديمة الهمها الوحي الإلهي القدرة على الفهم والتفسير والاقتراب من الكليات الكونية.

5- يجب الرجوع إلى فهم العقلانية العلمية وتحديد مسارها المعرفي اكيد وضروري لفهم حركية التاريخ وديمومته مع عصر النهضة ظهر الرجل الأوروبي المتعالي بقوته وفلسفته في قراءة هذا العالم، فوجه العلم ونتائجه ليخدم حزمة من المنافع ترددت في صولته الاجتماعية وجولته الثقافية التي اكتشفت لونا وحيدا وفريدا. أضحى الكلام عن فلسفة علمية متقدمة وظهر السند الثقافي ماثلا في ثقافة متعالية ترصد تطور المادة لما يخدم مصلحة فئة اعطت لنفسها الحق في استغلال المصالح والمنافع وتحول الاستعمار القديم إلى بضاعة رائجة لها موقع وموطأ قدم عند كل إنسان ضعيف وجماعة ضعيفة.

6- فلسفة العلم تحتاج رؤية عميقة في تطبيقات المعارف العلمية وكيف أنها تخدم مجتمعات دون أخرى؟ فأضحت صناعة الثراء العالمي محصلة حتمية لعاجز يدفع من وجوده وكينونته، كذلك مآله ونجد كيف تستترف الخامات والمعادن وكيف تتحول إلى بضائع مستهلكة، يفترض أن الإنسان في غير حاجة لها، حياة البشر كانت وما زالت أبسط مما يتصور إنسان هذا العصر ودون عناء نفسر سلوك الفرد والجماعة سلوكا ونزوعا حول الذات والأنانية وما ترتب عنها من قلق وكآبة مفرطة تعصف بالإنسان ووجوده في كليته لا يسعنا إلا ان ننظر إلى هذا السلوك على انه ذلك السلوك الغريزي المشبع بالحالات والانفعالات مع البحث في مسلمات العلم وقواعده.

يقول ابن خلدون في تصنيف العلوم: "اعلم أن العلوم التي يخوض فيها البشر ويتداولونها في الأمصار تحصيلاً وتعليماً هي على صنفين: صنف طبيعي للإنسان يهتدي إليه بفكره، وصنف نقلي يأخذه عمن وضعه. والأول هي العلوم الحكمية الفلسفية وهي التي يمكن أن يقف عليها الإنسان بطبيعة فكره ويهتدي بمداركه البشرية إلى موضوعاتها ومسائلها وأنحاء براهينها ووجوه تعليمها حتى يقف نظره ويحثه على الصواب من الخطأ فيها من حيث هو إنسان ذو فكر. والثاني هي العلوم النقلية الوضعية وهي كلها مستندة إلى الخبر عن الواضع الشرعي، ولا مجال فيها للعقل إلا في إلحاق الفروع من مسائلها بالأصول لأن الجزئيات الحادثة المتعاقبة لا تندرج تحت النقل الكلي بمجرد وضعه فتحتاج إلى الإلحاق بوجه قياسي إلا أن هذا القياس يتفرع عن الخبر بثبوت الحكم في الأصل وهو نقلي فرجع هذا القياس إلى النقل لتفرعه عنه. وأصل هذه العلوم النقلية كلها هي الشرعيات من الكتاب والسنة التي هي مشروعة لنا من الله ورسوله وما يتعلق بذلك من العلوم التي تهيئوها للإفادة. "مقدمة ابن خلدون الجزء الخامس، هكذا يكون ابن خلدون قد جعل العلم الطبيعي من العلوم الحكمية الفلسفية تدرك بطبيعة المنطق وهدي المدارك البشرية، لأن العلم بداية هو جملة المعارف والتطبيقات التي تعالج بمناهج موضوعية معينة لا تخلو من الملاحظات والتجارب ويعتقد القدماء أن العلم هو كل معرفة ونقيض لكل جهل وهو لفظ عام وشامل يشمل كل عطاء فكري صدر عن الإبداع الإنساني بسيطا كان أو معقدا كان نظرية في العلوم الفيزيائية أو آلية صنع خبز في فرن قديم هو كلفظ ينسحب على كل أثر مجدي كان ذلك في الفلسفة والتاريخ والعلوم الشرعية واللغوية هو جهد يبذله العارف لتحصيل فكرة بمقتضى منهج محدد المعالم. ومع مساره يظهر كمنظومة مركبة من بنيات متصلة غير قابلة للتفكك هذا

الهاتف الذي يحمله الآن الكبير والصغير هو سلسلة لأفكار متعاقبة بداية ونهاية حتى وصلت إلى هذا المنتج الذي لا يبقى على حال بمقتضى التطور وفي كل الأحوال هو يحل مشكلة التواصل هذا الجهاز الخفيف الوزن لا يقاس حجمه بكم الجهد المبذول، يكتب العلامة المظهر معرفا العلم في كتاب المنطق العبارة التالية: "حضور صورة الشيء عند العقل" التعريفات الكلاسيكية للعلم تأتي أعمق وأدق لأنها تحدث الانسجام بين ما هو مادي صرف وأخلاقي خالص قائم على القيم لا المنافع والمصالح فقط يقول تعالى في محكم التنزيل: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾البقرة-الآية 144، العلم هنا هو الحق ونقيضه الزيغ والشك وبناء المغالطات والكذب يفسر سفسطة المنحرفين من فرق تضل عن المنهج الحق. الذات البشرية تحتكم في البرهنة لقوتين فقط هما العقل والحس، ولا تستطيع الخروج عنهما لقوله تعالى في محكم التنزيل: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾الإسراء-الآية 36، وهذا منتهى القوة البشرية. لفظ العلم له إيحاء التعقل والتبصر والنظر إلى الوجود نظرة إيمانية. ليكون القصد من المعرفة العلمية بناء قيمة إنسانية مشتركة وهذه الخاصية مفقودة في فلسفة العلم المعاصرة، لأن لفظ علم في الفرنسية مثلا هو Science وهو مشتق من اللفظ اللاتيني Scienta وتعني المعرفة هكذا دون تحديد المعنى والدلالة وبالتواتر التاريخي جاءت هذه المعارف مجتمعة صماء مادية دون روح ولا

قيمة وجدانية تفضي على فعل البحث العلمي معنى إنساني يهتم بحاضر ومستقبل الإنسانية، إن العلوم في الفلسفات المعاصرة تترع نزوعا ماديا وكان القصد جعل التجربة مسلمة مطلقة وقبلية لكل بحث مهما كانت صفته. في سبعينيات القرن الماضي سعى العالم إدوارد لورينيتز لوضع نسق رياضي جديد، سعى لتطبيق المنهج التجريبي على القضايا الرياضية وأراد الوصول إلى علم رياضي تجريبي جديد كما يذكر ذلك أحمد مستجير في كتابه "مدخل رياضي إلى عروض الشعر العربي" وهذا يحمل مفارقة لما نقارنه بقول ألبرت اينشتاين "كلما كانت القوانين الرياضية تعبر عن الواقع كانت غير مؤكدة وكلما كانت مؤكدة كانت لا تعبر عن الواقع".

المشكلة في التعميم هنا وجعل منطق التجربة من المبادئ العامة، لأن هذا التوصيف يضع المعارف مجتمعة في حيز معرفي موضوعي محدد تحديدا دقيقا بالنظر إلى وجود مناهج استقرائية تجريبية، من هنا يجب أن نخرج كل فكر يتسم بالروح التجريدية، عبر عن هذه المعضلة روستان Restreint: "العلم ما نريد معرفته وما نعتقد بصدقه صدقا مطلقا، وهو يعني جملة المباحث المعرفية، التي تتسم بسمة العالمية و يتم وضعه حول دراسة موضوع محدد ويؤسس على علاقات موضوعية محددة مسبقا". العلم اقترن دوما بالتفكير الفلسفي في مساره التاريخي يكتب دومينيك لوكور Dominique le Court: "هناك علاقة وشائج بين علوم عصرنا والتفكير الفلسفي الممتد، لقد وجد مفكرون قديما تحصلوا على معرفة تشرح الظواهر الطبيعية بفلسفة طبيعية رائدة، كانت مادة أولية لكل بحث علمي قام في المستقبل والحاضر أو سيقوم لاحقا ومستقبلا". الرؤية هنا تختزل الجهد البشري في حضارة وثقافة واحدة والأصل أن الجهد البشري واحد في تحصيل كل بناء معرفي

قل أو كثر، أول نظرة إنسانية للكون وأول فعل قام به الإنسان الأول يؤرخ لبداية الجهد المضني الطويل في التفكر والتعقل ومحاورة الطبيعة بمنطق الفهم والتفسير.

العلم الذي يتعارف عليه البشر اليوم يتشكل من فروع متعددة ومتشعبة من أهمها العلوم الرياضية والفيزيائية والبيولوجية وعلوم الميكانيكا والعلوم البصرية وعلم الفلك وما اقترن من بعيد وقريب بعلوم المادة مع تميز العلم الرياضي في مناهجه وموضوعاته. ويتبع ذلك العلوم الإنسانية بفروعها كعلم التاريخ وعلم النفس وغيرها بالإضافة لوجود علوم تتنافس عليها العقول وترسم معالم حياتنا كالعلوم الشرعية واللغوية والنظر إلى مناهجها يحتاج إلى رؤية جديدة تواكب العصر ليس في المضمون والجوهر بل في العرض والتقديم ومن الخطأ الآن أن ندعي وجود تصنيف واحد و أوحد بحكم جدلية تطور العلم، الذي لا يثبت على حال أو مقام. عرفنا أن لفظ علم من معانيه المعرفة ويعنى بالأصول الجامعة، لكل فكر معرفي خالص من الميتافيزيقا التي استبدت به طويلا وأخذت ثوب الخرافة ولغة الطقوس التي اقترنت بالتفكير البدائي، وهذا نلتمسه في الفكر اللاهوتي الكنسي وفي طقوس الخرافة في المجتمعات الإسلامية التي لم تتحرر بعد من لغة الانحطاط، ولم تتبين بشكل واضح معالم ومقاصد الشريعة الدافعة إلى التوحيد الخالص من الوهم والخرافة، وكذا العمل بالأسباب بمقتضى الأحكام الشرعية. فلسفة العلوم سايرت حقبة تاريخ الإنسان ما قبل التاريخ -وإن كان هذا مجرد افتراض علمي- هذا الكائن المتميز نظر في حيزه البسيط ليكتشف ولو بسذاجة وبساطة العلاقات الأولى المنظمة للحياة والكون والإرادة الإلهية لم تترك الإنسان هكذا ضائعا، بل أسعفته بالوحي وفككت له الألغاز الأولى في الحياة والنشأة والخلق وبينت له الفواصل بين

فكرة الخلق والخالق والحياة والموت وما يترب عن كل ذلك. ولو قمنا بعملية مسح لتطور المعارف العلمية سنميز بداية مرحلة ما قبل التاريخ ثم ظهور الحضارات القديمة كالحضارة الفرعونية والصينية وما بين النهرين وكذا الهندية والفارسية والحضارات القديمة في أمريكا، والنظر إلى الديانات السماوية وأثرها وخاصة الديانة الإسلامية وأثرها العظيم في توحيد الأمم والشعوب على عقيدة واحدة ومنهج التوحيد العظيم المتميز، ومع سقوط الأندلس عرف المسلمون التخلف والانحطاط وبدأت أوروبا تخرج من سباهًا اللاهوتي وبدأت في بناء حضارة مادية واسعة على أنقاض العالم الإسلامي. وبرزت فلسفة الغزو وهي عقيدة مستمدة من تجارب الإسباني فيما يعرف بمحاكم التفتيش وتقنية مغالبة العدو بالقضاء عليه وانتهت مع القرن العشرين بغزو الفضاء بعد الانتهاء من غزو الأرض وكان وما زال العلم هو الأداة والوسيلة في تحصيل المنافع والغايات المادية دون تردد. العلم يقترن بنشأة الحضارات ويفسر وجودها وسقوطها، يقول ميشال بلاي Michel Bley: "العلم هو المعرفة الواضحة واليقينية المفسرة لموضوع شيئي على أسس ومعايير صادقة تصدق بالبداهة، وتقبل التفسير بقواعد الاستقراء والتجربة وهذه خاصية تنطبق على الأشياء وتحلل الظواهر الاجتماعية والإنسانية وتفسر أحوالها بمقتضى الموضوعية". على ضوء هذه القراءة وبمنأى عن التصنيفات الدقيقة نصنف العلم:

1. **العلوم الدقيقة** وتتناول بالبحث العلوم الرياضية وما اقترن بها من مناهج خاصة وفروع كما هو حاصل مع الفيزياء النظرية.

2. **العلم الفيزيائي الكيميائي** وهو مجال بحثي استقرائي تجريبي كما نجد في علوم المادة عامة وعلوم بيولوجية وما يلحقها من طب وغيره.

3. **العلوم الإنسانية** وتتناول بالبحث الإنسان كإنسان فإن تعلق ذلك بماضيه يكون التاريخ وحاضره علم النفس وما يلحقه من فروع واستشراف مستقبله يكون بعلم الاجتماع. علوم أخرى كالعلوم السياسية وغيرها وهي علوم دونها عوائق إبستيمولوجية في البحث والموضوع وكذلك المنهج.

العلوم المقترنة بالتفكير الإسلامي كعلوم الشريعة بشتى تخصصاتها وعلوم العقيدة وعلوم الجدل كلها تحتاج إلى قراءة موضوعية جديدة تتناول الطرح والتقديم وتفصل فصلا تاما بين الثابت والمتغير، جعل هذه العلوم مواكبة للعصر في التقديم والبيان مع اعتماد الوسائل المتطورة التي تمكن من نقل رسالة هذا الدين العظيم نقلا صحيحا ومؤثرا في المستمع والمتلقي. المسلم المعاصر لا يجد الأدوات التي تمكنه من قراءة واقعه وفهم علامات دينه والتفاعل معها، المطلوب منه أن يحافظ على الأدوات والوسائل التي تبقي ميراثه الشرعي. يجدد أدوات نقل القرآن وجعله يسيرا وبسيطا وخاصة مع الأمم الأعاجم وأن يستعين بالعلم اللساني المعاصر، تكتب المصاحف وتترجم معاني القرآن بأساليب البحث الالكترونية الجديدة، وضع موسوعات عالمية تمكن من الوصول للمعلومة بيسر وسرعة، لغة الخطاب لا تقتصر على اللغة العربية فقط، يجب العناية باللغات واللهجات وتقريب كتاب ربنا للبشر في كل الأمصار. الدراسة العميقة والمستفيضة لحياة الشعوب حتى نفقه لغة الخطاب، تأسيس علم النفس التوحيد الذي يضع المناهج العلمية التي تفكك وتزيل من ذهن المتلقي المفارقات والسفسطات وتمكنه من أن يمتلك الحس النقدي البناء، إخراج الأمة من لغة العواطف والتباكي إلى لغة الخطاب العلمي المؤسس على البرهان والحجة لا الميول والأهواء. الجهد الأعظم يجب أن يتجه إلى إحياء السنة

بالتوثيق المنهجي، تبذل الآن الجهود العظيمة في وضع ورسم عوالم بحثية جديدة ويبقى الجهد الأعظم في تنقيتها من الشوائب والعوالق التي لحقها من الدس والكذب، ننتظر متى يشرع المسلمون في ترجمة ميراث النبوة ترجمة علمية إلى كل الأمم وبكل اللغات والألسن، هذا جهد ضروري لا يقل في أهميته من تدوين السنة، أثره يحدث إن شاء الله انقلابا كونيا. المراجعة العملية والعلمية لعلم أصول الفكر وإخراجه من العقم البحثي والتزود بالعلوم المعاصرة لرصد التحولات الفكرية في البنيات الحياتية والنفسية والاجتماعية والاقتصادية، رسم الأفكار السياسية التي تمكن من استشراف المستقبل وفهم تحدياته، جعل العلم الرياضي من مناهج البحث الأصولية حتى تأتي النتائج مجردة ودقيقة.

الوظيفة الأولى لكل معرفة علمية هو رفع الغموض واللبس عن الظواهر الكونية وتفسيرها بمقتضيات قبلية عقلية كانت أو حسية أو ما يتبعها من فلسفات وضعية ومجردة. هذا تحليل الباحث الذي يتوجه إلى فكرة حقيقة ومعايير صادقة مع تناولها تناولا يتناسب مع تطور العقل الخلاق في التاريخ، النظر في حلقة التشابه والترابط بين الأفكار المتناغمة احيانا والمتناقضة كثيرا، بمقتضى عقلانية الإنسان التي تنزع دوما إلى التناقض المفضي إلى التنافر والتباعد، الحاصل في عوالم الفكر والإبداع. هنا يتوجه البحث إلى إقامة الدليل على صدق الفكر النظري وإلى تطبيقاته الواقعية، فالاتفاق مثلا لا يحصل دائما مع نتائج العلم الفيزيائي، من الحكمة أن نتساءل هل حياتنا بعد تطور هذا العلم اضحت اكثر إقناعا؟ أم أنها كاذبة تتغذى من تمدد خرافة العلم في أذهاننا؟ الوهم يحاصر الفرد ويتركه باحثا إما عن رغبة فردية أو نزوة جماعية عارضة. هذا يرتد إلى اللغة المصاحبة للنهضة الغربية وكيف عكست حالة الشك في المجرد وقرنته بالوهم والخيال، وصنفته في مراتب الجنون والانحطاط، مع الزمن أضحى هلعا يساير سلوكيات الفكر المنطقي، كانت ردته واضحة في بناء صورة حول العالم والكون، ونحاول ان نسترجع المبادئ الأولى التي اكتسبها العقل بقوة الفعل وقدرته على بيان وإظهار المكون الدافع لفهم حقيقة الوجود وتجلياته العقلية وأنساقه الفكرية.

1- إن العقلانية تيارات واسعة ممتدة في التاريخ، هي نهر عظيم روافده في كل حضارة وكل فكر ديني وهي تعتقد وتجزم بطهر القواعد والمبادئ العلمية، لأنها إلهام العقل ونور المنطق وهي تنتظم بالفطرة التي فطر عليها الإنسان فتجعل القواعد الفيزيائية والبيولوجية وحتى الرياضية تنتظم بالقواعد العقلية الأولى، التي

رصدها وصنفها كبداية لعلم و منطق جديد هو الفيلسوف اليوناني أرسطو. من ثمة يكون البرهان العلمي التجريبي دعامته ومسلمته الأولى المنطق الصوري نفسه، المتجرد المتوافق مع الذات العارفة. في العصور الحديثة كان للعقلانية وقعا جديدا مع فلسفة رينيه ديكارت صاحب كتاب مقالة في المنهج 1637، حدد فيه مناهج البحث العلمي مع إمكانية تطويره والارتقاء به، ثم أضاف مؤلفه المبادئ الفلسفية 1644 وهي مقدمة رائعة تستحق التنويه، لفلسفة علمية رائدة وجعل من التحليل والتركيب والقدرة على البناء فكرا مجردا رياضيا خالصا، يقارب القوانين الكونية الأولى ويجعل دراستها متاحة، يقدم عليها الباحث وهو يمتلك ذلك المخزون العرفاني الفطري المتصاعد الذي يشكل روحا علمية نابضة بالحياة.

2- الوضعية الفلسفية تركت بعض الظلال الخافتة في الفكر الصاعد ما بعد عصر التنوير، أجمل ما فيه تصور الفيلسوف أوجست كونت لحركية هذا العالم ضمن فلسفة التاريخ. التي ترى في تعاقب الحوادث العلمية انفعال يهز الفكر ويوجهه لعملية قصدية ينتهي عندها العقل وكذلك الفكر، أين يكون العلم سيدا قابضا بمصائر الناس ويحملهم إلى نهاية الحلم الكوني، وهو البحث العلمي وما يقدمه من نتائج تلغي الأفكار الفلسفية، وتحطم الأفكار اللاهوتية وكذلك الميتافيزيقية.

3- المناهج الاستقرائية وفلسفة التجربة أثبتت وجودها دون منازع في فلسفة العلوم مع عصر النهضة والشروع في فلسفة التنوير أخذت لها ثوب القداسة وكذلك العصمة وبدى أن مجرد الاعتراض خروج عن القواعد الإبستيمولوجية الأولى. هذا هو صميم الإجحاف لأن الاكتفاء بهذه الرؤية يجرد الإنسان من العقل الفعال المجرد ويجعلنا نجد صعوبات في تفسير كم هائل من المعارف التي بنت

العلم الإنساني، لا يعقل مثلا النظر إلى القوانين الفيزيائية وكأنها مجرد علاقات جامدة ترسم حركة مادة مجردة في الكون ومن التناقض اعتبار كلية الكائن الحي ووحدته مجرد علاقات ترصد بالملاحظة والفرضية؟ هذا منهج نمى في الأصل في الثقافة الأنجلوساكسونية أين تكون المعرفة أصلا نابعة من التجربة الواقعية، مع إقصاء كلي لما هو قبلي برؤية مثالية. لذلك يكون هذا المنهج التجريبي حالة تاريخية أولا ثم فلسفية ثانيا وبمقتضى بحثي يفرض فلسفته بقوة على الأفكار القيمة. جعل القيمة الخلقية خارج ترتيب الخير والشر، الخير الكامل هو الناتج الحاصل بالكسب المادي المستقر في المناهج القائمة على الملاحظة والتجربة وكل نتيجة مهما كانت مجدية تفقد وجودها بفقدان الروابط الاستقرائية، وأضحى البحث في ماهية الوجود والعلاقات البشرية والنظرة الواحدة للإنسان وتفكيك غامض الكون هو مجرد ترف فكري وفلسفة تائهة، إذا حرمت نفسها من نعمة المختبر ودقة البحث الموضوعي الإحصائي، وجعلوا الفكر مجردا وسلم ترتيب لمعارف سابقة ولاحقة، ويكون المطلب هنا فتح آفاق فلسفة العلوم على مناهج أخرى تساهم في بناء قراءة صحيحة للواقع مع تفكيك المبهم فيه والملتبس الغامض.

4- المادية الاستقرائية تحولت مع الثورة الصناعية الى مثالية، تغالي في القراءة الاستقرائية وتجعل منها فلسفة متعالية، تدعي تفكيك طلاسم الكون وكذلك مفاتحه الأولى كما هو في النظرية النسبية. وما جاء بعدها من علم فيزيائي يوصف بالعلم المجرد الذي يتجاوز لحظة المكان الراهن، ويسافر في أبعاد الزمان ويجعل المكان مجرد محطات مضيئة يتوقف عندها المسافر الساكن في عالم ذرة لا متناه في الصغر، لما يظهر هذا العلم ينصت اليه البشر، وكأنه وحي يوحي

وتتلقاه قلوب العلماء وكأنه من الحقائق المطلقة، والمشتغل بالفلسفة المعاصرة يكتشف أثر هذه الحقائق مجتمعة في الفكر الفلسفي والسياسي العالمي. وكيف اضحت مناهج تضع نظريات وترسم حياة كما نجد في الفكر الأمريكي المعاصر القائم على فقه المنافع والذرائع في عوالم الثقافة والاقتصاد، عبر عن ذلك الفيلسوف الأمريكي وليام جيمس في معايير المعرفة لما جعل الفكرة الصادقة هي المأوى لكل تفكير وعمل منتج.

5- فلسفة العلوم تضع العقل البشري أمام حالات: الأولى ندركها في عالم لا متناه في الصغر، وهو مجرد خفي عن الحواس يلتمسه العقل في القواعد العقلية الأولى، من بديهيات ومسلمات، وجل الأفكار السابقة للفعل و الحواس ويستعين بالعلم الرياضي للتفكيك والقراءة، كأن يقرأ عالم الذر في الفيزياء والتراكيب الجينية في العلم البيولوجي، والثانية عالم لا متناه في الكبر، وهو عالم الفلك عالم السموات والأرض، وما يتبعه من أجرام وأفلاك ، ثم عالم لا متناه في التعقيد ندركه في النفس البشرية، وأحوالنا السلوكية، وكذلك العلاقات البشرية القائمة على التناقض والتنافر ومن الصعب أن يجد العقل البشري الحلول النهائية التي تقلل من معاناة النفس البشرية وأزمات وجودها، فلسفة العلوم تطرح السؤال أين مشروعية النتائج العلمية؟ وكيف نحكم على الصدق والكذب؟ كيف يستطيع الإنسان العارف أن يقر بنقصانه وقصوره الذاتي وأن يدعي الكمال في أعماله والخطأ والنسيان يطارده ويشل إرادته؟

المطلق هو الكمال والمثال والصورة المثلى التي لا تحدها الحواس ولا الأذهان يتم تلقيها بالوحي والقرآن وما جاء به خير الأنام عليه الصلاة والسلام ونقتبس من حديثه قبس يرفع اللبس واللثام. يحدثنا الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود قائلا: "بينما أنا أمشي مع النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في حَرْثٍ، وهو مُتَّكِئٌ على عَسِيبٍ إذ مرَّ بنفرٍ من اليهود. فقال بعضُهم لبعض: سَلوه عن الرُّوحِ. فقالوا: ما رابَكم إليه؟ لا يستقبلُكم بشيءٍ تكرهونه. فقالوا: سَلوه. فقام إليه بعضُهم فسأله عن الرُّوحِ. قال فأُسكِتَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. فلم يردَّ عليه شيئًا فعلمتُ أنه يُوحَى إليه. قال فقمتُ مكاني. فلما نزل الوحيُ قال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ، قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾الراوي: عبد الله بن مسعود، المحدث: مسلم-المصدر: صحيح مسلم، وفي حديث الاسراء والمعراج يروي سيدنا البخاري عن رحلة نبينا عليه الصلاة والسلام حقائق دونها المطلق والكمال: "قَالَ مَرْحَبًا بِالِابْنِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ ثُمَّ رُفِعَتْ إِلَيَّ سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى فَإِذَا نَبْقُهَا مِثْلُ قِلَالِ هَجَرَ وَإِذَا وَرَقُهَا مِثْلُ آذَانِ الْفِيَلَةِ قَالَ هَذِهِ سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى وَإِذَا أَرْبَعَةُ أَنْهَارٍ نَهْرَانِ بَاطِنَانِ وَنَهْرَانِ ظَاهِرَانِ فَقُلْتُ مَا هَذَانِ يَا جِبْرِيلُ قَالَ أَمَّا الْبَاطِنَانِ فَنَهْرَانِ فِي الْجَنَّةِ وَأَمَّا الظَّاهِرَانِ فَالنِّيلُ وَالْفُرَاتُ ثُمَّ رُفِعَ لِي الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ ثُمَّ أُتِيتُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ وَإِنَاءٍ مِنْ عَسَلٍ فَأَخَذْتُ اللَّبَنَ فَقَالَ هِيَ الْفِطْرَةُ الَّتِي أَنْتَ عَلَيْهَا وَأُمَّتُكَ ثُمَّ فُرِضَتْ عَلَيَّ الصَّلَوَاتُ خَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ فَرَجَعْتُ فَمَرَرْتُ عَلَى مُوسَى فَقَالَ بِمَا أُمِرْتَ قَالَ أُمِرْتُ بِخَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ قَالَ إِنَّ أُمَّتَكَ لَا تَسْتَطِيعُ خَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ وَإِنِّي وَاللَّهِ قَدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَالَجَةِ فَارْجِعْ". من الأخطاء العظيمة التي يمكن أن

يتوهم واهم هو أنه يستطيع الوقوف على الحقائق المطلقة بإعمال عقله وحسه، وهذا هو مفتاح الزيغ والضلال، المطلق يفتح بابه ويغلقه الوحي فقط كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام الصحيحة. أما ما جاء من فلسفات تدعي معرفة المطلق وتبحث في قواعده ومسلماته هو فرط خيال وتوهم.

-**الحقائق المطلقة:** المطلق Absolu لغة أطلق المواشي سرحها وأطلق سراح السجين خلى سبيله، و فلان غضب فأطلق لسانه بمعنى لم يتقيد بآداب الكلام والحد المطلق في المنطق وعلم النفس يعني اللفظ الذي لا يحتاج إلى بيان كقولنا الله خالقي، ويجد فيه الفلاسفة التام والكامل والمطلق عندهم هو الله وما يصدر عنه من خير مطلق وجمال مطلق. والمعرفة المطلقة هي الحقائق القبلية Apriori التي لا يستمدها العقل من التجربة والإحساس. بل هي صادرة عن المبدأ الأول الله تبارك وتعالى كفضائل الأعمال، كالأمانة والصدق والإحسان، وقد يأتي المطلق كمفردة عامة فهو في الفلسفة علم ما بعد الطبيعة وفي الأخلاق والسياسة مالا يحده حد كإحسان المحسن وعدل الحاكم، وفي الحكم الشرعي هو مطلق الدلالة كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىَ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ 275 سورة البقرة.

-**الحقائق النسبية:** لا بد تمييز النسبة وهي من مفاهيم العقل عرفها الجرجاني "إيقاع التعلق بين الشيئين". هذا التعلق يأتي بأشكال منها التوافق والتشابه والتماثل

والتعلق، فالزواج إيقاع نسبة هي المصاهرة مثلا والنسبة في العلم الرياضي العلاقة بين الكميتين وخير مثال النسبة والتناسب، هو البحث في قوانين العلاقة. النسبية هي النظرية العامة في الفيزياء أما النسبي Relatif فهو يقابل الكمال والمطلق، وهو الشيء يتوقف وجوده على غيره، نجده في العلم خاصة Science لأنه عند الفلاسفة هو الإدراك مطلقا تصورا كان أو تصديقا، حمل صفة اليقين أو نفاها فالأمر سواء وللتوضيح نقول الفضيلة من المطلق والكمال وهي خلاف الرذيلة، بمعنى الاستعداد الدائم لسلوك طريق الخير، أي أنها مجموع قواعد السلوك المعترف بقيمتها فالإحسان من الفضائل المطلقة التي لا تتغير بتغير وتبدل الزمان، على نقيض المعارف العلمية التي لا تثبت على حال فهي في جدلية دائمة مصدرها أن رؤية عالم الواقع والحس لا يثبت على حال واحد. هذا ندركه لما نقارن بين العلم الفيزيائي الكلاسيكي الذي نظر إلى المادة في ثباتها، على خلاف المعاصر الذي اقترن بوجود عالم لا متناه في الصغر كعالم الذر مثلا. وبحكم الوجوب الفلسفي نقدم هذا التساؤل: هل الإنسان هو من يحكم ويقر نسبية النسبي و مطلقية المطلق؟ إذا كان الإنسان هو مصدر الحكم والتمييز، فهذا يقود إلى معضلة إبستيمولوجية وهو أنه يعتقد في أحوال كثيرة أن المطلق قد أضحى ملكة إنسانية يقدر على تحصيلها وهذا يناقض الطبيعة البشرية التي توصف بالعجز والنقصان ولبيان ذلك نكتفي بمثالين واحد من الفيزياء وآخر من التصوف:

1- قدم نيوتن إجابات واضحة عن الحركة وأشكال مختلفة فنحن نشاهد حركة سيارة تبدأ من السكون ونشاهد دورانها وانعطافها وكذلك حالة التوقف، لما نرى جسما مقذوفا إلى الأعلى ونمتلك القدرة على تفسيره ونشاهد طائر يطير

أو سمكة تسبح أو كائن حي يتسلق جبلا هذا وغيره نفسره بقوانين نيوتن في الحركة. يأتي التفسير دقيقا منضبطا، يحقق صفة الكمال والمطلق، هذه المفاهيم سرعان ما أثبت العلماء أنها من النسبي وضاعت بين مصطلحات جديدة ومفاهيم معاصرة كالنسبية والكوانتوم، ونشاطات الفوتونات وطاقة الليزر وغيرها كثير، لقد أقر العلم الفيزيائي بعجز العقل والحس الإنساني وأثبتوا معادلة النسبي.

2- على نقيض صوفية الكتاب والسنة شرع المتصوفة المتفلسفة وهم تيار دخيل على الثقافة العربية الإسلامية يسلمون بوجود الحقائق المطلقة والقول أنهم أدركوا عالم لا يحده العقل والبصر وأوهموا العوام والسفهاء بمقالاتهم وشرعوا في بث أفكارهم بداية من القرن الثالث الهجري وما زالوا تأثروا بالميراث الفارسي المجوسي القائم على الوثنية و الطقوس الهندية وهي فلسفة بؤس وبكاء ونحيب على الأموات والأضرحة. مع تقديس القبر والضريح والعناية بالميت والضحك على العقول الساذجة، فتتحول المزارات إلى مناسبات لجمع الصدقات والزيارة وهو مشاهد في فكر الرافضة، وهي من فرق الشيعة الضالة تضع الحديث وتزيف التاريخ، وتطعن في الصحابة وتؤمن بالوهم والخرافة. هذه الأفكار وغيرها اعتنقها كثير من أهمهم محيي الدين بن عربي وهو من أبرز مؤسسي صوفية التفلسف ادعى أنه وقف على الكمال والمطلق في كشفه وتجلياته الصوفية وما يثبت علاقته بالميراث الفارسي واليوناني أنه يذكر في كتابه الفتوحات المكية وبلغة الرمز من الأوهام ما يجعل مقالاته أقرب ما تكون للملاحم اليونانية القديمة. جاءت فلسفة مركبة ومزج من مشارب الملل والنحل المختلفة. من أهمها تأثره بالفلسفة الغنوصية وهي رهبانية مسيحية، تعتقد أن

العقل البشري قادر على معرفة الحقائق الإلهية وإن الحقيقة واحدة وإن اختلفت الأسماء ويفصح عن عقيدته في أبيات منها:

لقد صار قلبي قابلا لكل صورة فمرعى لغزلان ودير لرهبان

فلسفات أبعدت عامة الناس الذين لا حظ لهم من العلم الشرعي عن الصواب، مع العلم أن المناهج التي اعتمدت لإقناعهم هي مناهج السفسطة القائمة على زرع الشك في قلوبهم الضعيفة، فهذا بجهله يتفلسف في الباطن والظاهر، وآخر يكتب فصلا في فضل علي عن عمر وكأنه يحمل بيده مفاتيح الغيب ويصدق عليه قوله تعالى: ﴿ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾ 78 سورة مريم، ويفعل الجهل بصاحبه ما لا يفعل العدو بعدوه، وهذا يتم في صورة يدعي أصحابها أنها مؤيدة بالكشف الذي يحقق في زعمهم صورة الكمال والمطلق. الفكر الفلسفي الكلاسيكي يجعل مصطلح معيار ومقياس له دلالة خاصة، من معانيه الميزان والسلم والقسطاس وكل شيء له ميزانه ومعياره، فمعيار الذهب نقاوته ومعيار العسل صفاؤه من الشوائب، ومعيار الإنسان حريته وميزانه اعتداله و اختلف الفلاسفة في معيار الحقيقة وصدقها في الفلسفات الكلاسيكية. نجد معيار العقل الدال على الوضوح ومعيار الحس الدال على الواقع ونجد في الفلسفات المعاصرة معيار الوجود لذاته الدال على الوجود الإنساني كوجود متميز، ومعيار الذرائع والمنافع الدال على فلسفة القوي وسلطته على الضعيف الذي رضي بالضعف وقبله. وجدل الفلسفات الكلاسيكية لا يخرج عن ثنائية العقل والحس. بداية النظر إلى العقل على أنه المطلق وهو معيار الوضوح والصدق يحمل في طياته صدقه لأنه واضح ويتضمن اليقين

بداهة، فالصدق والكذب والخيانة والأمانة وكذلك الشروق والغروب حقائق مطلقة واضحة يقول سبينوزا: "هل يمكن أن يكون هناك شيء أكثر وضوحا ويقينا من الفكرة الصادقة يصلح أن يكون معيارا للحقيقة؟ فكما أن النور يكشف عن نفسه وعن الظلمات كذلك الصدق فهو معيار لنفسه وللكذب في آن واحد" وهذا رأي نجده في عقلانية ديكارت، التي انتهى فيها إلى مقولته الشهيرة: "أنا أفكر، إذن أنا موجود" وأثبت صدقها المنطقي أمام الفرضيات وتبين يقينها بوضوحها. الوضوح ليس دليلا على الصدق دائما، لقد اعتقد الناس الأرض منبسطة وبعد جهد جهيد وفي زمن قريب تبين كذب المقولة وتأكد الناس من كرويتها، ولما شرع باستور في نفي نظرية التولد الذاتي سخر المجمع العلمي الفرنسي من أبحاثه، و لم يقبل فرضية وجود كائنات مجهريه ناقلة للمرض. المعيار الكلاسيكي الثاني وهو الحس والواقع ومعيار المطابقة، وجوده في الفكر الفلسفي الكلاسيكي أوجد صراعا بين العقلانية المثالية القائمة على البداهة والنزعة التجريبية التي ظهرت كفكر مستقل في القرنين السابع والثامن عشر. وبدأت مع فلاسفة وفي مقدمتهم بيكون ولوك و هيوم، واستمر هذا الفكر وتطور مع ظهور فلسفات جديدة كفلسفة المنفعة عند بنتام، والتطورية عند سبنسر، ومع أعمال المدرسة الوضعية المنطقية. الفلسفة الحسية نقضت مسلمة العقل المجرد الخالص فالأعمى لا يدرك الألوان والأصم لا يدرك الألحان، ومن فقد حاسة فقد معرفة فلماذا لا يكون فعل الحاسة هو معيار الحقيقة؟ لا يكون الصوت مسموعا إلا إذا سمع ولا يكون الشيء مشاهدا إلا إذا شوهد، فالجبل يوحي بفكرة المثلث والشمس توحي بفكرة الدائرة يقول د.هيوم: "لا شيء من الأفكار يستطيع أن يحقق لنفسه ظهورا في العقل ما لم يكن قد سبقته ومهدت له الطريق انطباعات مقابلة له". مجموع أشجار يوحي بفكرة العدد وتذوق العسل

يوحي بطعم الحلاوة، فلولا الرؤية والتذوق ما عرف الإنسان معنى العدد ولا حلاوة العسل، يقول جون لوك: "لنفرض إذن أن النفس في البداية صفحة بيضاء خالية من أي حرف وليس بها أية فكرة مهما كانت هذه الفكرة: فكيف تتوصل إلى الحصول على الأفكار؟ وما هي الوسيلة التي تكتسب بها هذه الكمية من الأفكار التي يقدمها لها تخيل الإنسان الدائم النشاط والذي لا تحده الحدود، في تنوع يكاد يكون لا متناهيا. وممّ تستقي هذه المواد التي هي بمثابة الأساس لجميع استدلالاتنا ومعارفنا، إني أجيب على ذلك باختصار من التجربة هذا هو الأساس لجميع معارفنا، ومنه تستمد أصلها الأول و ملاحظتها للأشياء الخارجية المحسوسة، أو للعمليات الباطنية التي تجري داخل أنفسنا، والتي ندركها ونتأمل فيها أنفستا تمد ذهننا بجميع مواد التفكير هذان هما المصدران اللذان تنبع منهما الأفكار التي لدينا، التي يمكن أن نحصل عليها بصفة طبيعية. إن حواسنا تتأثر ببعض الأشياء الخارجية، فتنقل إلى أنفسنا عدة مدارك متمايزة عن الأشياء تبعا لمختلف الطرق التي تؤثر بها هذه الأشياء على حواسنا و نكتسب المعاني التي لدينا عن الأبيض والأصفر والحار و البارد والصلب واللين والحلو و المر وعن كل ما نسميه كيفي حسي. المصدر الكبير للمفاهيم يرجع كله إلى حواسنا ويتنقل إلى الذهن بواسطتها فإني أسميه الإحساس أما المصدر الآخر الذي يتلقى الذهن منه الأفكار هو إدراك العمليات التي تجريها أنفسنا على المعاني التي تأتيها عن طريق الحواس: وهي العمليات التي عندما تصبح موضوعا لتأملات النفس، تُوَلِدُ في الذهن نوعا آخر من المعاني لم تكن الأشياء الخارجية لتقدمها له: مثل معاني ما يسمى: بالإدراك والتفكير والشك والاعتقاد والاستدلال والمعرفة والإرادة وجميع الأعمال المختلفة التي تقوم بها أنفسنا والتي بما أننا واثقون من وجودها ثقة تامة ولأننا نجدها في أنفسنا، فإننا نتلقى

بواسطتها معاني متمايزة مثل التي تحدثها في أنفسنا الأجسام عندما تؤثر في حواسنا إذ لا علاقة لها بالأشياء الخارجية، فإنها تقترب منها كثيرا و ربما كانت تسميتها بالحاسة الباطنية لا تتنافى معها كثيرا بما أني أطلق كلمة الإحساس على المصدر الأخر لأفكارنا فإني أطلق كلمة التأمل على هذا المصدر لأن النفس لا تتلقى بواسطته إلا المعاني التي تكتسبها عندما تتأمل عملياتها هي". هذه الفلسفة تقود إلى نتيجة لازمة وهو أن الصدق هو مطابقة الفكر للواقع، وهنا تكون الفكرة صادقة لأنها تسجيل لانطباع خارجي في الإنسان تشبه ذاكرة إلكترونية مُسَجِلَةٌ، الفعل الذي يقوم به هو الانعكاس ويكون مثله مثل المرآة و هذا يجعل المعرفة ساذجة وبسيطة وتفسير ذلك أن الحاسة قاصرة ولا يمكن أن تكون معيارا للحقيقة، لذلك يختلف الناس في أذواقهم وميلهم اختلافا شديدا يصل درجة التناقض. على أنقاض الفلسفات الكلاسيكية، قامت فلسفات ومعايير جديدة ومن أهمها الفلسفة البراغماتية، ومقياس المصالح و المنافع. اللفظ Pragma يوناني يعني العمل ومزاولته Pragmatisme هو المذهب البراغماتي ، وهو أمريكي معاصر خالص عكس حالة المجتمع من النشأة التي تجلت في إبادة الهنود الحمر والسطو على الأراضي تحت راية الصليب والإنجيل. وكانت النهاية مع ظهور أعظم إمبراطورية استعمارية، قامت على أنقاض الأمة الأوروبية. فلاسفة هذا الفكر البراغماتي وأساتذته تشارلز بيرس 1839-1914م في كتابه كيف نجعل أفكارنا واضحة. حدد فيها مصطلح برا غمة كماهية وفلسفه. وليام جيمس 1842-1910م عمل بوضع المسلمات وشرح المبادئ. جون ديوي 1859-1952م، عاش للنظرية شارحا و مفسرا وكان له اهتمام خاص بالفلسفة التربوية. البراغماتية ثورة على الفلسفات الكلاسيكية و استنكار لعالم القيم والمثال نظرت إلى حاجة الناس المادية

والسعي في مساعدهم على معايشة واقعه في ظل نظرية المركب، الذي يحول كل شيء بما فيه الإنسان إلى أداة آلية تساهم في الاستثمار والإنتاج. يقول وليام جيمس: "إن آية الحق النجاح، وآية الباطل الإخفاق". هذا يقتضي أن تكون الحقيقة هي الأفكار الناجحة، بغض النظر عن الأداة والوسيلة و المهم أن يتحقق ذلك المجتمع القوي الذي ينشر ظلاله على الآخر. البراغماتية ومعيار المنافع هي فلسفة القوي على الضعيف، وحكم فرعون في الرعية وبناء إمبراطورية المادة على الأشلاء والجماجم. ومخزونها الإستراتيجي نشر الحروب والفتن وغزو الأمم بالقروض والشركات العملاقة. إنها أحدثت في المجتمع الأمريكي نفسه صدمات نشأ عنها التمييز العنصري ونظام الطبقية فالقوي ينتشر وينحل في قوته والضعيف يتلاشى ويتبدد في ضعفه. ننتقل لبيئة أخرى وحالة فلسفية استثنائية، هي الفلسفة الوجودية ومعيار الوجود لذاته هذه الفلسفة أوروبية خالصة عكست واقع أوروبا في القرن العشرين، ظهرت على أنقاض الحروب الدينية واقتتال الطوائف المسيحية وما ترتب عنها من غياب كلي للمثل والقيم، كيف نشأت إمبراطورية الاستعمار وفلسفة النهب والسلب. كانت النتيجة التقاتل على غنائم المستعمرات وكانت أعظم حروب التاريخ الحربين العالميتين وفي سنة 1945م دقت أجراس السلام الكاذب، فعرف الأوروبي مفاهيم ومعايير حقيقة جديدة هي معيار القلق والحزن والكآبة وكان الرجوع إلى الوعي وحدث التمييز بين وجودين الأول هو الوجود في ذاته، ويمثل عالم الأشياء عالم البيت والسيارة وضجيج المارة وصراخ الأطفال، والوجود لذاته وهو عالم الوعي والشعور. يقول سارتر: "قبل ذاته أو بعدها ولكنه ليس ذاته البتة". إن الفرنسي الذي يعتز ويفتخر بعاصمته، مثله مثل من نهب مالا وشيد بيتا فاخرا، ثم اعتلى السقف وخاطب الآخرين عن عظمة إنجازه. الآخرون

لا يعلمون كيف حقق بناءه ، إلا أن القاطنين بجواره يعلمون حقيقته كيف اكتسب ماله؟ التاريخ حمل الحضارة الأوروبية عقدة تأنيب الضمير من الجرائم المقترفة في حق الإنسانية، وضع الوجوديون المسلمة الفلسفية "الوجود سابق للماهية" تدعي أن الإنسان هو من يحقق وجوده في لحظة آنية، بغض النظر عن الماضي المفقود، أو المستقبل الموعود. يبقى المعيار الوجودي صدى لوضع خاص اتسم بالتمرد على عالم الأشياء خاضه الأوروبي ضد نفسه وتاريخه، وهي فلسفة أوجدت حالة هروب نحو الأمام وذلك بتجاوز واقع الحال التاريخي والنفسي والأخلاقي، وتكاد تجمع آراء خصومها على أنها حالة عبث، عبثت بالحاضر ونثرته في غياب حقيقة التاريخ والمصير. كانت كإعلان فلسفي لبداية نهاية القارة الأوروبية التي عاثت في الأرض فسادا. إن سعي الإنسان نحو إدراك المطلق والكمال متعسر بحكم أن الأدوات التي يمتلكها قاصرة لا تؤدي الغرض، فالعقل علته التناقض والوقوع في الأخطاء و الحس الإنساني ليس بمقدوره أن يحيط بأصغر الأشياء الحواس بالكاد تنظر صحيفة ورقية فكيف تستطيع مشاهدة و إدراك هذا الكون العظيم؟ لابد من إعادة النظر في فهم المطلق وإعادة صياغته، لكي يتناسب مع معطيات الفكر الفلسفي وأن يقتنع الإنسان الباحث أن تحقيق الكمال في الفعل والتفكير لا يتحقق حتى تكتمل أدوات بحثه، هذا أمر غير قابل للوجود والسؤال الفلسفي الذي يفرض نفسه هو: ما هو المطلق ما هي حقيقته؟ الجواب الذي يطمئن إليه الباحث هو أن المطلق يترادف مع ما هو مستقل عن المعارف الحسية، وكذلك المجردة عن اللواحق المادية كالحركة المطلقة والوضع المطلق والحرارة المطلقة. القصد هو القانون التام والكامل المفسر للظواهر الكونية و المنطقية. تاريخ الفلسفة الحديثة يظهر كيف حاولت الفلسفة الألمانية أن تجد الحلول الانسانية

لفكرة المطلق، ونذكر كمثال واحد فلسفة هيجل 1770-1831م فيلسوف ألماني، واضع مسلمة الجدل والمنطق الجدلي، جوهر وكمال الفلسفة عنده تحقق الفكرة المطلقة، وذلك بوجود اللحظة السامية لنمو الفكرة، و هو وعي يطابق موضوعه وفلسفته تؤمن بالتاريخ كحقيقة وموضوع، ولتبسيط نظريته نأخذ مثال الدولة فهو يعرفها بقوله: "هي علم تجسد العقل". والقصد أن الانسان يكتشف كماله لما يشكل الأنساق الفكرية التي تساعده في التعايش داخل المجتمع الواحد، ويضع عقدا اجتماعيا ترسمه السياسة الحكيمة. لما يعايش الإنسان تناقضات التاريخ يكتشف أن أعظم ما فيه لما يصل العقل لكماله لما يوجد النظام السياسي و يكتشف قيمة الجماعة، والعقل المتغرب ويقصد الإنسان الذي لا يعي واقعه التاريخي يفترض أن يبحث عن كماله. ويقترح هيجل المستويات التالية المستوى الأول وهو الجمال ويتحقق بالأعمال الفنية و المستوى الثاني الدين وهو وجدان عميق ينطبع في النفس ويشكل حالة الاعتقاد. والمستوى الثالث التعبير عن الحقيقة وهو تجريد المعرفة من أثر الحس وتحويلها إلى حقائق مطلقة كالصيغ الرياضية المجردة مثلا و هكذا تكون المطلقية Absolutisme من يقر إجمالا بأن العقل يصل إلى درجة الكمال. واهتم بالمطلق كحالة إنسانية رواد الفلاسفة الحديثة ومن أخذ بمبحث القيم إكسيولوجيا و هو الاعتقاد بوجود أخلاق مطلقة ومع ذلك وكما قلنا في البداية أن المطلق والكمال لا يدرك إلا بالوحي ومن ادعى ذلك من المسلمين أو غيرهم فهو يسبح في بحار الظلمات أو يحلق في سموات الأوهام والأطياف.

قال تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ 26 تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ 27 ﴾آل عمران، منذ عشرة ألاف سنة بدأ الإنسان ينظر لهذا العالم الممتد أمامه، وبدأ بتشكيل معرفة ساذجة وعامية تقوم على التجارب الفردية. على حد تعبير غاستون باشلار اكتشف قانون القطيعة مع المعارف البدائية، و أبدع لغة علمية جديدة أحدثت نقلة نوعية في تفكيره وآليات بحثه، ومع القرن العشرين انكشفت أمامه الحقائق الباهرة والمفزعة في آن واحد، قدم البحث العلمي في البيولوجية التفسير الجيني لتشخيص فعل الأورام السرطانية والأمراض المزمنة، وخاض بعد ذلك وما يزال في فهم الخارطة الجينية للبشر وقدمت الفيزياء المعاصرة نتائج غير متوقعة، بالكاد فقه الإنسان مفاهيم الذرات والبروتونات حتى وقف على عالم جديد لا متناه في الصغر آخر هو الكواركات. وتطورت فلسفة التنبؤ العلمي، الآن يضع علماء الفلك خارطة زمان ومواعيد دقيقة لحصول ظاهرتي الكسوف والخسوف. ويضع العالم الروسي ماندليف سنة 1869م جدولا دوريا يرتب فيه العناصر ويحدد فيه الخواص لعناصر لم تعرف بعد. هذا التجديد أنشأ ثورة صناعية في القرن 18 الميلادي. ومن النتائج الأولى المباشرة ظهور الأجهزة وأدوات البحث، صنع العقل البشري المقربات لاكتشاف الكون واكتشف المجرات العظيمة وبلايين النجوم والإنسان الآن يرسل المركبات الكاشفة لأعماق الكون. واستعان العلم البيولوجي بالمجهر الإلكتروني وفتح آفاق ومعالم الكائن الحي وهو يبحث الآن لتفكيك شفرة التكون. الثورة الصناعية غيرت حياة الناس وما زالت الآن نكتشف

عوالم التواصل الجديدة يجد الإنسان الروعة والانبهار ثم يستبد القلق لأن الإنسان أمام حالة لا نستطيع حساب تواترها وفعلها في حياتنا الفردية والجماعية وما يمكن أن تفعله في شبكة علاقاتنا الاجتماعية، هذه النتائج كانت حتمية الجهد البشري في حقبه المتواترة. الحضارة اليونانية الرومانية تؤرخ لبداية نشأة العلم والتوثيق والأصل أن معارفهم كلها لم تكن خالصة لهم، بل هي تجميع لفعل الحضارات السابقة، الشواهد التاريخية تظهر النقل من حضارات ما بين النهرين ومن الحضارة المصرية الفرعونية فكانت فلسفة تجميع وترتيب وكذلك تصنيف. والقاسم المشترك في فكرهم هو الاطلاع على الفكر الفلسفي، بحثوا في الماهية الكلية المفسرة للعالم والكون، اقترح الفيلسوف الإغريقي طاليس أن الأرض قرص يطفو فوق سطح وأنها تلف في دائرة تختص بها، وهي عبارة عن كرة نارية مشتعلة، لها مركز وهي مركز الكون. وجاء بعده الفيلسوف الإغريقي فيثاغورث Pythagore وبين وأظهر أنها كروية لأنه تابع أشكال الكواكب أمامه ومنذ ما يقرب من 2000 سنة قال لوسيباس Leucippus وتلميذه ديموقريطس Democritus أن العالم مكون من ذرات لا تنقسم ولا تنفصم. ثم عرف الفكر اليوناني الفلسفة السفسطائية وكانت ومازالت حملا ثقيلا على الفكر الإنساني قديمه وحاضره فهي على حد تعبير أفلاطون قد أساءت للإنسان وهي تفسر شيوع فلسفة الشك والمغالطة في كل تفكير ديني، وهي تقف وراء نشأة الفرق الكلامية في الفلسفة الإسلامية لأن منهج هؤلاء جميعا كان ومازال هو بناء المفارقات كمفارقة الصحابة والقرابة في الفكر الشيعي. ثم جاءت مرحلة البعث العقلاني وظهر الفكر السقراطي شامخا في عهده وتبعه تلميذه أفلاطون مهندس الفلسفة المثالية وتبعه فكر أرسطو فوضع المناهج الأولى للتفكير المنطقي ورسم معالم نظرية الثبات ومركزية الكون. وعمل

بها الناس طويلا وعرفتها الفترات المتعاقبة للفكر الإنساني. أثرت في المسيحية أثرا سلبيا عظيما، وكانت نظرية الثبات مركز ثقل العقيدة المسيحية وحجة واضحة على تحريف الإنجيل، كانت سببا في اضطهاد علماء و مفكرين والأمر نفسه في الفكر الفلسفي الإسلامي. نجد نظرية الثبات تفسر ميتافيزيقا الكون، نظروا إلى العالم في ثباته وسكونه أخذوا من اللاهوت المسيحي أفكارهم وطبعوها طبعة إسلامية ويتجلى ذلك في أفكارهم حول الزمان والمكان والانتقال والحركة. بعد أرسطو وبعدما يقارب قرنين من الزمن استطاع العالم الإغريقي إيراتوستينيس Eratosthenes أن يقيس محيط الأرض قياسا دقيقا نسبة الخطأ لا تتجاوز 1% واستطاع عالم الرياضيات الإغريقي أرشميدس Archimède وهو من أعظم علماء الرياضيات في عصره. طبق حسابا هندسيا لقياس الخطوط المنحنية والمساحات والأجسام واستطاع قياس الدائرة، واستنبط قاعدة الروافع لأنه تمكن من تحديد مركز جاذبية الجسم البسيط وأن يضع مسلمات العلم الفيزيائي الأولى ونتذكر نظريته في الطفو و يعترف مؤرخ العلم أنه واضع أسس ميكانيكا السوائل Fluide Mécaniques وعلم الهيدروستاتيكا Hydrostatiques وجاء بعده العالم الإغريقي ثيوفراستس Theophrastus ليقدم وصفا للنبات مع ذكر أنواعه وعلاقته بالبيئة، ويعتبر الطبيب جالينوس Galena أول من وضع المباحث الأولى في علم الفيزيولوجيا واستدل على أرائه بملاحظة أعضاء الكائن الحي، مع محاولة التفسير العلمي وإن جاء بسيطا و باهتا. ومع انتشار المسيحية وما عرفته من تحريف بعد إدخال الفكر الفلسفي اليوناني وخاصة نظرية الثبات الأرسطية والاعتقاد بأن الانسان هو المتعالي وهو الكائن الأرقى وأن الأرض هي مركز الكون، قدم جالينوس تصنيفا للكائنات في قمته يقف الإنسان. وفي الفلسفة ميز بين ثلاث

مباحث المبحث الأول خصه للوجود و مبحث عملي خصه لنشاط الانسان ومبحث متعلق بالجانب الفني ويشمل الإبداع ككل وأغلقت المدارس 529م بعد ظهور التناقضات في اللاهوت المسيحي و النتيجة أن الأمة المسيحية تخلت عن صفاء عقيدتها وانحازت إلى الخرافة والوهم، وبدأ الجدل العقيم واستفادوا من السفسطة اليونانية في صناعة فلسفة الشك الأمر نفسه حصل في الفكر الإسلامي لما انحاز إلى الفكر اليوناني وأخذ في تشكيل العقيدة بمخططات وأقيسه منطقية. منذ 500م تسعة قرون و حتى عام 1400م والأمة المسيحية مثقلة بأحمال الخرافات والأساطير وتقديس البشر والغوص في المطلق الخرافي و ما تبع ذلك من حروب وفتن، والإنسانية تحصد نتائجها. هنا يقع التشابه الضمني بين الحضارتين المسيحية والإسلامية. المسيحيون انحازوا إلى الخرافة و بحثوا في تحويل المعادن الرخيصة إلى ثمينة وعرفوا ما يعرف بعلم السيمياء وهذه الأفكار الوهمية تحققت واقعا في الفكر الإسلامي أثناء عهود الانحطاط، وكان المشترك ومازال بين الثقافتين هو الحمل الفلسفي اليوناني في اللاهوت الكنسي عند المسيحيين والخوض في المسائل الكلامية عند المسلمين والبحث في اللاهوت وعلم الكلام يبين الأثر الواضح للفلسفة اليونانية خاصة والفلسفات الفارسية والهندي وغيرها عامة.

-**الحضارة الصينية:** عثر علماء الآثار على أدلّة تدل أن الإنسان المنتصب عاش في الصين قبل أكثر من مليون سنة، وكشفت البحوث الأثرية أن هذا الإنسان أول من استخدم النار في مقاطعة شانشي وحصل هذا قبل 1.27 مليون سنة وفي العصر الحجري الجديد ظهرت في الصين أقدم حضارة بشرية، وهي فترة ممتدة بين عاميّ 12.000 و 10.000 ق.م.عمل الصينيون بالزراعة منذ حوالي 7000 سنة ق.م وأكد ذلك كثرة النقوش الأثرية وفي موقع دامايدي في نينغشيا

حيث اكتشف ما يزيد عن 3.172 من النقوش الصخرية، تعود للفترة الممتدة بين عاميّ 6000 و5000 وهي تُظهر الشمس والقمر والآلهة ومشاهد صيد و رعي ويُعتقد أن هذه النقوش مشابهة لأقدم الحروف الصينية المكتوبة في عصر الأسر الحاكمة. عرفت تطورا عظيما خلال ألفي سنة أي من القرن الحادي عشر قبل الميلاد حتى أوائل القرن العاشر الميلادي وقد عرفت مراحل أساسية هي مرحلة الازدهار الحضاري والثقافي الأول الممتد من عام 1028ق.م إلى عام 220م ومرحلة الجمود والفتن الداخلية الممتد من عام 220م حتى عام 618 م ومرحلة الازدهار الحضاري الثاني الممتد من سنة 618م حتى سنة 906م، حكمت الصين خلال هذا الدور سلالات هي سلالة تشو وسلالة تشين وسلالة هان الصينيون عرفوا أهمية التجربة و معنى الاختراع و أهميته و عرفوا البوصلة عام 270م استعملوا الخشب وسيلة في الكتابة 700م و استخدموا البارود واكتشفوا خصائصه سنة 1000م ولهم دراسات قيمة في علم الفلك ورسموا أقدم خريطة للنجوم سنة 940م. وفي العلوم الرياضية أتقنوا حساب المساحات وخاصة حساب الدوائر.

-**الحضارة العربية الإسلامية:** هي حضارة الوحي هي رسالة التوحيد هي رسالة الخلق والأخلاق. هي فلسفة التحرر من الوهم والخرافة هي حضارة ممتدة في التاريخ القديم والحديث والمعاصر، حاربها الأعداء ومازالوا بنشر فلسفة الشك والسفسطة والقراءة الخاطئة للتاريخ، الذي كتبته الأقلام الحاقدة على إرث الوحي والنبوة. نجد من المسلمين العلماء محمد الخوارزمي، وله الفضل في إدخال الأعداد العربية لأوروبا، وأرسى معالم الجبر والمقابلة ومصطلح اللوغاريتم يقابل ألخوارزميات وهي مفاهيم عامة، لها تطبيقات في الإعلام الآلي وبرمجة الحواسيب. اهتم المسلمون بحكم مقاصد الشريعة وضعوا قوانين علم الفلك لرصد الأهلة

وحاربوا ثقافة الجهل الماثلة في التنجيم والسحر، ودرسوا المضامين الأولى لعلم الكيمياء وضعوا طرقا جديدة لصنع الفلزات من المعادن واهتموا بنقاء المعادن كالمعادن الثمينة وأعمال جابر بن حيان دليل على ذلك، وساهموا في علم الصيدلة وبرعوا في وصف الأدوية وميزوا الغذاء الصالح. العلوم الفيزيائية عرفت نقلة نوعية ومن أشهر العلماء نجد ابن الهيثم صاحب كتاب المناظر في البصريات والعدسات والمرايا ألغى النظرية القديمة القائلة بأن الضوء ينبعث من العين، وقدم نظرية الإبصار وهي أن العين تبصر عندما يقع شعاع الضوء عليها من السطح الخارجي، موقف علمي له حجته العلمية الآن وله الفضل في تحرير العقل العلمي من التفسير الفلسفي. أما الطب النبوي فكان مقدمة مهمة لتأسيس علم بيولوجي، يلقى وما زال الاحترام والتوقير وهو علم يقوم على التجربة ويفسر الأعراض ويشخصها بشكل طبيعي، ومن النماذج الشيخ الرئيس و هو ابن سينا وهو أب ورائد الطب الحديث وضع ما يقارب من 450 ألف مؤلف في معارف مختلفة كانت معرفته تجمع بين العلم والفلسفة والمنطق ويعتبر كل من كتاب الشفاء والقانون من أعظم ما كتب في هذا الباب. والأمثلة لا حصر لها ويكفي الإشارة فقط إلى ابن النفيس وأعماله في اكتشاف دوران الدم الرئوي وما يعرف في الطب بالدورة الدموية الصغرى.

-**عصر النهضة الأوروبية:** الخرافة والوهم وتقديس العباد والتداخل العظيم بين الفلسفة والدين والأخذ بنظرية الثبات الأرسطية جعلت العقل الأوروبي يميل إلى الجمود. الزمن ثابت والأرض ثابتة وكل شيء في رتابة وسكون، على خلاف الفكر الإسلامي الذي نظر للوجود والزمن والمكان نظرة التغير والنسبي، السنة القمرية عند المسلمين لا تثبت على حال، وكذلك الفتوى عند العلماء تتغير بتغير

الزمان والمكان أما الفكر الكنسي المتأثر بالفلسفة اليونانية حقق في مجتمعاته قاعدة التنافر بين أفراده فعرف الحروب الدينية واقتتال الطوائف والملل. والسبب هو عدم الفصل التام بين الفكر الديني القائم على قاعدة الوحي والفلسفات الدخيلة، وتتشابه السنن ويسقط المسلمون في آتون الانحطاط لما سمحوا للثقافات الفلسفية أن تكون مكونا لثقافتهم بل أضحت من مناهجهم الفكرية كما حصل مع جعل المنطق الصوري أداة بحث عند مفكري الإسلام. المناهج الفلسفية عجزت و لم تقدم الحلول للأزمات الانسانية عند المسلمين وغيرهم التي كادت تعصف بحياتهم ووجودهم، وخاصة مع تفاقم الأمراض وظهور أخطارها والمثال الذي يفرض نفسه هو داء الطاعون وعرفه البشر قديما بالموت الأسود. وكان يحدث الهلع العظيم و لم يستطع الطب القديم أن يقدم الحلول لأن النظرية الطبية التي هيمنت طويلا هي نظرية جالينوس، وفي الأصل هي نظرية فلسفية نشأت من تراكمات الفكر الأرسطي، وكانت تفسر الأعراض المرضية على أنها حاصلة بثبات العضوية البشرية وأن العلة تحصل بالتولد الذاتي. والنتيجة أن الكائن الحي يولد أمراضه وعلله، النظرية رغم ظهور تناقضاتها الكبيرة أخذها المسلمون تأثرا بالفكر اليوناني، دون فحص ولا نقد وفسرت عجزهم عن تقديم رؤية طبية جديدة جعلت الأمراض والعلل من الأسباب التي ساهمت في تخلفهم. الأمر بقي على وضعه حتى بدأت إرهاصات الفكر الغربي سنة 1543م كتب العالم البلجيكي أندرياس فازليس كتابا في تركيب الجسم البشري De Corporis Humani Fabrica ودحض أفكار جالينوس التي استقرت في الأذهان ما يقارب 1300 سنة وبين فيه مبادئ التشريح وقوانينه الأولى وجاءت سنة 1543م لتحمل أملا جديدا في نقض نظرية الثبات الأرسطية، وهذه المرة جاءت فلكية وظهر كتاب في ثورات الكرات De

Revolutionibus Orbium Coelestium للعالم البولندي نيكولاس كوبرنيكس ونقض وبشكل نهائي فكرة أن الأرض مركز الكون كما ادعى ذلك فلاسفة اليونان. وهذه الفكرة القائلة بالثبات هي السبب والعلة الأولى في نشأة اللاهوت المسيحي وكذلك وهذا هو الأهم في نشأة المسائل الكلامية عند المسلمين والخوض في فكرة الزمان والمكان والعلو والارتفاع والاستواء والحركة كلها أخضعت قسرا لهذا المبدأ الفاسد، وكانت سببا وما زالت في إحداث الفرقة بين المسلمين، مع نشر الجدل العقيم والخوض في المسائل العقدية بفكر يوناني أضحى من الزمن القديم. الأصل في المسألة في القرن الأول ق.م ظهر كتاب المجسطي وبرهن فيه أن الأرض مركز الكون وأن الماء لا يثبت على كرة واضعه هو بطليموس وهو عالم فلك ورياضيات وفيزياء ومؤرخ صاحب كتاب المجسطي فسر فيه الأجرام السماوية وبقي كتابه مرجعا حتى ظهور كوبرنيكس. ونظام بطليموس الكوني كان فلسفة ملخصها أن الأرض في مركز الكون وتدور حولها الأجرام السماوية على شكل دوائر بسرعة منتظمة ووضع جدولا به 1028 نجما، وترجمه المسلمون وكان وبالا عليهم وهذا الاعتقاد الفلكي جعلته الكنيسة من صميم اعتقادها لذلك تعرض كوبرنيكس للاضطهاد، منع كتابه من التداول لمدة قرنين من الزمن وكفرته الكنيسة. ومع اختراع المقربات ومع بداية القرن السابع عشر أثبت جاليليي بالرؤية وجود أقمار تدور حول المشتري ثم رسم بوضوح وجه القمر، شاهد كوكب الزهرة في مداره حول الشمس ورغم حجته الواضحة اتهمته الكنيسة بالهرطقة والكفر ، وأمام شدة وقسوة الكنيسة تراجع عن أفكاره نظريا وهو يعلم صدق مقالته وفتح مجالا آخر أكبر وهذه المرة في علم الفيزياء وضع ما يعرف بالحركة البند ولية، وهي أن تأرجح البندول ثابت في الاتجاهين ويمكن أن

نفهمه في عمل وحركة الساعات القديمة، وطبقها ابنه بشكل عملي سنة 1641م، وبدأ الفتح العلمي اكتشف تورشيللي البارومتر لقياس الضغط الجوي سنة 1650م اكتشف عالم الفيزياء الألماني جويرك المضخة الهوائية. ومع القرن 17 تقدمت علوم الحياة وظهر اكتشاف العالم الإنجليزي وليام هارفي الدورة الدموية ومع الميكروسكوب اكتشف العالم الهولندي أنطوني فان ليوفينهوك وجود كائنات دقيقة. واستطاع في فرنسا الفيلسوف وعالم الرياضيات رينيه ديكارت من وضع الهندسة التحليلية وأسس منهج عقلاني جديد يناقض المناهج القديمة، فأحل الشك المنهجي مكان الشك الوجودي السفسطائي الذي أقام اللاهوت الخرافي في المسيحية وعلم الكلام العقيم في الإسلام، الذي كان ومازال سببا في نشأة المذاهب والفرق الكلامية. ويبقى القرن السابع عشر منارة بين القرون الحديثة سنة 1665م استطاع العالم الرياضي إسحاق نيوتن صاحب نظرية التكامل والتفاضل أن يضع نظرية تنقض وبشكل نهائي الاعتقاد بنظرية الثبات، حل لغز الماء الذي لا يثبت إلا على سطح مستوي وأن قانون الجاذبية العام يجعله يثبت ويستقر وتعيش فيه كائنات ومخلوقات شرح طبيعة الضوء وأن الجاذبية ممتدة في هذا الكون العظيم، وجاذبية القمر تحدث ظاهرة المد والجزر وهو لا يترنح ولا يترك مداره بسبب الجاذبية المؤثرة في هذا الكون و الطبيعة لا تحكمها سفسطة فلسفية ولا أوهام خرافية بل تحكم بقوانين وسنن كونية أودعها الخالق في كونه. من عرفها عرف أسرار خلقه تبارك وتعالى، البحث في الأسباب والعلل والنظر إلى قوانين السببية على أنها مبدأ عام يقبل بالبداهة والوضوح حول الفكر الأوروبي الحديث إلى عقل مستنير بأنوار العلم. يدخل الأوروبي عصر التنوير The Age of Enlightenment ويتحرر البشر من الميراث اليوناني الكنسي، بدأت الرحلة نحو

التقدم والتطور والمسلم قبع في ميراثه الكلامي، وجدله العقيم، الفكر الإسلامي يتجدد بمراجعة الميراث الكلامي العقيم الذي كان وما زال سببا في التخلف والتراجع الحضاري. صنف العالم الطبيعي السويدي كارلوس لينويز 12 ألف نبات وحيوان متبعا في ذلك الصفات. سنة 1700م صنع العقل الأوروبي أول آلة تعتمد قوة ضغط البخار. ثم تنافسوا في صناعة الأجهزة سنة 1781م وبواسطة المقربات الجديدة اكتشف الفلكي الإنجليزي وليام هيرسكل الكوكب أورانوس عام 1781م، وما دخل الإنسان القرن الثامن عشر حتى بدأت ثورة جديدة تلوح في الأفق ظهرت المصانع و ورشات الأعمال وتضاعفت نسب الإنتاج الصناعي والزراعي. سنة 1803م وضع الإنجليزي جون دالتون النظرية الذرية Atomic Theory عام 1803م بين أن كل ذرة لها كتلة وأنها لا تتغير وإن توحدت لتكون مركبات جديدة. وأكمل عمله ديمتري ماندليف Dmitry Mendeleyev لما وضع الجدول الدوري من أجل ترتيب العناصر سنة 1869 م، ثم جاء القرن التاسع عشر وما أدراك ما القرن التاسع عشر. خلال القرن 19 جاءت الأبحاث المذهلة في الكهرباء والمغناطيسية وهذا العمل قام به البريطانيان مايكل فاراداي Michael Faraday وجيمس كلارك ماكسويل ames Clerk Maxwell.وفي سنة 1888م اكتشف الفيزيائي الألماني هينريش هرتز Heinrich Hertz موجات الراديو. في علم الحياة حقق العالم الفرنسي لويس باستور سنة 1880م تقدما في العلم البيولوجي لما درس الكائنات الحية الدقيقة ووضع ما يعرف بعلم الطب الوقائي. المفيد هنا أنه أنهى حكاية التولد الذاتي في الطب، وهي نظرية تقوم على مبدأ الثبات الأرسطي وبين بحث باستور وبشكل قطعي أن الكائنات المتناهية في الصغر أي الميكروبات تقف وراء تشكل الأوبئة، وهي نفسها وسيلة العلاج وذلك

عن طريق بناء قواعد التطعيم، وقدم حلا مثاليا في زمانه من أجل القضاء على وباء الكلب بالتطعيم. ووضع قوانين البسترة وهي قوانين التعقيم الحافظة للطعام. بدأ التعرف على القوانين الأولى لعلم الوراثة ولم تكن المفاجأة لما استطاع سنة 1866م الراهب النمساوي جريجور مندل Gregor Mendel وضع المعالم الأولى لعلم الوراثة سيكون نقلة جديدة في العلم وفلسفته، ويأتي الانقلاب الأكبر ثورة تغير مجرى العالم في كليته. جاء هذا الزلزال المدوي مع العالم الإنجليزي تشارلز داروين Charles Darwin لما وضع نظرية التطور، قام بنشر أصل الأنواع On Origin of Species سنة 1859م وضع قانونه العلمي الانتخاب الطبيعي Natural selection المهم هو الشق الفلسفي التطور نقيضه الثبات والثبات كما بينا هي النظرية الفلسفية التي فسرت الكون والحياة والعقيدة وكل شيء بفلسفة الثبات القائم على أن الأرض هي مركز الكون. هنا يكون الإنسان هو الكائن المتعالي على كل الكائنات الأخرى وأنه يمتلك القدرة على فتح أسرار الكون، داروين يقول الإنسان كائن حي مثله مثل الكائنات الأخرى إن كانت له ميزة فهي أنه يختلف عن النباتات و الحيوانات في الدرجة لا في النوع، فهو يأكل ويشرب ويتطور ويتكاثر ويقتل بعضه بعضا ويعيش في جماعة كما تعيش الذئاب لذلك هو لا يستحق القداسة ومن ادعى ذلك فهو يخالف الطبيعة وقوانينها. انهارت الأفكار الكنسية والميراث المسيحي الفلسفي الذي ادعى بوجود الإنسان المتعالي الذي له القدرة على حمل صفات الربوبية بمقتضى التفسير الكنسي، رغم انتقاد نظرية التطور إلا أنها كانت بداية لنشأة فلسفات جديدة تؤمن بالتغير كقاعدة في الحياة ومن أهمها الفلسفة الماركسية، آمنت بتطور التاريخ وفلسفته. ونعود للعلم البيولوجي ونرجع لعلم الوراثة اقتنع العلماء بوجود الجينات الوراثية الكر

وموسومات بالخلايا الحية. والتي هي عبارة عن خيوط تحتوي علي البروتينات والحامض النووي Deoxyribonucleic Acid DNA واستطاع العالم البريطاني فرانسيس كريك Francis Crick عام 1953م بوضع هيكل لجزيء DNA وأخيرا تم التوصل إلى ما يعرف الجينوم Genome وهو الخريطة الجينية البشرية والبحث في أدوارها في دورة الحياة والتعرف على العلل والتدخل الجيني للتعديل والنقل من كائن إلى آخر. شهد علم الطب في القرن العشرين طفرة نوعية وتطورات واسعة من الصعوبة الإلمام بكل تفاصيلها. أظهر الطبيب الهولندي كريستيان إيجكمان Christiaan Eijkman أن بعض العلل سببها نقص في الغذاء و اختلال النظام الغذائي وتم بيان أهمية الفيتامين و شرعوا في تركيبها وصناعتها. استطاع سنة 1928 م العالم ألكسندر فليمنج Alexander Fleming من وضع المضادات الحيوية وبدأت سلسلة الكشف العلمي تتبع بعضها البعض، وتمت السيطرة على الأوبئة بل تم القضاء عليها بحملات عالمية كما حصل مع داء الجدري وأضحى نظام التطعيم نظاما عالميا ومع بداية ثمانيات القرن العشرين تم تطوير أدوات الكشف والتشخيص المبكر نجد التصوير بالرنين المغناطيسي Magnetic Resonance والمسح الطبقي Computed Tomography والتدخل الجيني Gene Therapy واستخدام الألياف البصرية و المناظير وتدخل الحواسيب في إجراء العمليات عن بعد، وعن التكنولوجيا حدث ولا حرج أدوات التواصل اليومي سنة 1971م ظهر الحاسوب الفردي ومع بداية الألفية الجديدة سرعة العلم تجاوزت معطيات العقل والحس، بدأ البحث في العلم المجرد القائم على منطلقات بحثية أساسية وجوهرية، من أهمها Nanotechnologie وهي مداخل فيزيائية تبني تصورات لفهم البناء البيولوجي

وتعديله، كمفهوم بسيط أضحى للأدوات وظيفية في تفكيك وتشخيص وبناء الظاهرة البيولوجية، ونجد La génétique أضحى من المباحث الأساسية في العلم البيولوجي يمكن من إحداث التغيرات الجوهرية في بناء الكائن الحي، التعديل الجيني توضع له الآن الفرضيات وهو مفترق طرق في تاريخ العلم لا نعلم نتائجه، الخوف أن يمارس كأداة جديدة في نشر فلسفة الغلبة، هناك مؤشرات عملية تظهر أن العالم المتخلف ونحن جزء منه أصحى مزرعة تجارب لكل جديد في العلم الجيني، ونجد L'informatique الإعلام الآلي له سطوة وهو يتجدد بشكل أضحت قدرة البشر على متابعتها مستحيلة يسجل حضوره في حياتنا، يفرز في المجتمعات المتخلفة أعراض مرضية، لأنهم مجرد ذوات مستهلكة لا منتجة يشعر الأفراد بالعجز وشكل عقدة القصور أمام الآخرين. بدأ العالم يتشكل من جديد عالم متطور فقه التاريخ وفلسفته هو الآن يبني حضارة عالمية، بعدما غزت الأمصار والبلدان هي تغزو الآن العقول والأفئدة وتصل إلى الأنفس والأرواح وتحول العالم حولها إلى أشتات بشرية متقاتلة وتقابل هذه الحضارة المادية جموع بشرية مازالت تعتقد أن الأرض مركز الكون بمنطق الاعتقاد لا الجغرافيا وأن الإنسان المتعالي عن الأرض والكائنات مازال موجودا يقدس في اللاهوت المسيحي وتبنى له القباب والأضرحة في الفكر الخرافي الوهمي عند فئات مسلمة غابت عن الوعي وعن التاريخ وها هي تغيب الآن عن الجغرافيا والله له في خلقه شؤون.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا 1 وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا 2 وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا 3 يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا 4 بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا 5 يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ 6 فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ 7 وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ 8 ﴾الزلزلة، المراجع العلمية تعرف الزلزال أنه ظاهرة طبيعية عبارة عن اهتزاز أرضي سريع، يعود إلى تكسر الصخور وإزاحتها بسبب تراكم إجهاد داخلي نتيجة لمؤثرات جيولوجية، ينجم عنها تحرك الصفائح الأرضية. قد ينشأ الزلزال كنتيجة لأنشطة البراكين أو نتيجة لوجود انزلاق في طبقات الأرض. والزلزلة من أسماء يوم القيامة والزلزلة كذلك هي الثورة الفكرية التي تطيح بالتراكم وتخرج الأمم من السبات الحضاري والثقافي إلى الصحوة و اليقظة، ونفض غبار الوهم والخرافة والرجوع إلى العالم من جديد وفهم أبعاده و إحداثياته، وهذا الفعل عرفته الأمة المسيحية الأوروبية مع ثورة أو قل زلزلة كوبرنيك، وما أدراك ما كوبرنيك في الأنساق الفكرية والحضارية الغربية. الكرسي الرسولي المعظم في روما يدين نظرية كوبرنيك ومن ذهب مذهبه لأنه خالف صميم وجوهر اللاهوت المسيحي الذي اعتنق العقيدة الفلسفية اليونانية في الإنسان المتعالي النازل من السماء، وفق الاعتقاد الأفلاطوني وأنه وإن كان إنسانا فهو الإنسان المتعالي بصفاته وخصائصه المثلى، نفسه مقدسة نزلت من السماء إلى الأرض حسب توصيف أفلاطون لتسكن عالم الظلال وتتوق لعالم المثل والفضائل القصوى. هذا الإنسان يسكن أرضا منبسطة ويرنو ببصره إلى عالم السماء ويسكن أرضا تلف حولها الأجرام السماوية، نظرية هي أقرب ما تكون ترانيم من العهد الجديد وهذا اللحن الموسيقي الأفلاطوني العذب هناك من يحاول العبث بمسلماته وعناصره الأولى إنه

كوبرنيك أو قل كوبرنيكوس نيقولا Copernic Nicolas عالم فلك بولندي 1773-1543م ينحدر من أصول ألمانية، درس بجامعة كراكوف وعمل كاهنا ثم انتقل إلى إيطاليا وتعمق في دراسة التعاليم الكنسية ووقف على المعتقدات الأولى درس كلاسيكيات العلم في زمانه عرف بتميزه في علم الطب القديم لم يستطع أن يقاوم روح الشك في الفلسفة الكونية التي تلقاها من التعاليم الكنسية، فعزف عن الطب وعمل على النظر في هذا الكون ووجد في علم الفلك غايته المنشودة وخرج على الناس بنظرية هي في الأصل انقلاب وثورة كونية. أطاحت بالفكر الكنسي ولاهوته دفعة واحدة وأحدثت تصدعات لم تشاهد في حينها في التفكير البشري الديني عامة و عند فلاسفة ومتكلمين مسلمين خاصة، ولها انكسارات مشاهدة في أنساق التفكير عند عوام وخواص المسلمين. قبل أن نتكلم عن نظرية كوبرنيك نتكلم عن النظرية التي أطاح بمسلماتها الأولى إنها نظرية بطليموس الكونية بطليموس السكندري كلوديوس Ptolemy of Alexandria لمدة أربعة عشر قرنا كان لكتابيه المجسطي والجغرافيا العلو والرفعة في كل حاضرة علمية، وأضحى مقدسا وكانت آراؤه فتحا مبينا لكاتبي اللاهوت المسيحي، وكذلك المتكلمين من الفرق الإسلامية لأن فلسفته الكونية عذبة وسهلة وميسورة ومقنعة وواضحة يتقبلها العقل البسيط الساذج فهي لا تحتاج إلى براهين علمية استقرائية، بل تحتاج فقط لشحذ الذهن وتقبل فكرة عن تعالي وتسامي الإنسان في هذا الوجود والمعتقد بالنظرية يكفيه الحجاج المنطقي وبناء الأقيسة المنطقية وقوة الدفاع اللغوي وبناء المجازات والاستعارات المناسبة، هذه النظرية تفحم الخصم ببناء المغالطات القائمة على التصور الذهني لا المشاهدة الحسية. يشمل كتاب المجسطي على ثلاثة عشر بابا وكتاب الأول والثاني خصه للحديث عن الكون وكيف أن الأرض هي مركزه.

الباب الثالث خصه ليبحث فيه حركة الشمس وطول السنة والباب الرابع خصه لحركة القمر وتفسير طول الشهور والباب الخامس خصه للحديث عن أبعاد وحجم الشمس والقمر، الباب السادس خصه لتفسير الظاهرة الفلكية الكسوف والخسوف، أما السابع والثامن جعله جدولا للنجوم، من الباب التاسع حتى الأخير جعله دراسة لخمسة كواكب في حركتها الدائرية. أما كتابه الجغرافيا يتكون من ثمانية كتب بين فيه تقنية رسم الخرائط ووضع خطوط للطول والعرض وحاول أن يضع أطلسا يظهر الحالة الجغرافية في زمانه وله كذلك كتابا في البصريات. ويبقى نظامه العلمي فلسفة عامة متداولة قابلة للفهم والبرهنة الميتافيزيقية. كوبرنيك برهن عن حقيقتين جوهرتين ترتقي لدرجة المسلمة الواضحة التي لا تحتاج إلى برهان، الأولى دوران الأرض والكواكب حول الشمس ونهاية خرافة مركزية الكون وأن الإنسان المتعالي لا وجود وأنه مخلوق من المخلوقات يخضع مثله مثل الكائنات الأخرى جامدة وحية للسنن الإلهية والحتميات الكونية هو وإن أراد لا يستطيع أن يرتقي من تربته الأرضية. أما الثانية البحث العلمي مستثنى ومستقل بالكلية عن ميتافيزيقا الاعتقاد كان ذلك في اللاهوت المسيحي أو علم الكلام الإسلامي، إخضاع المولى سبحانه وتعالى لمفاهيم كونية وقوانين علمية يخترعها الإنسان ليفسر خالقه بمقتضاها ثم يلزم الآخرين وإن رفضوا مقالته أتهم في المسيحية بالهرطقة وأتهم من المتكلمين المسلمين بالكفر والزندقة، هذا يفسر اختلاف الفرق الكلامية وطبيعة الحجاج العقيم المتداول والمنقول في الكتب قديما وحديثا، أثبت كوبرنيك بالأدلة العلمية القاطعة فساد نظرية أرسطو في الأجرام السماوية وتضاد حركاتها وهذه كارثة فكرية أخرى كان لها النصيب الأكبر في تشكيل عقلية الثبات والسكون المقيتة كان ذلك في اللاهوت المسيحي أو اللاهوت الإسلامي الكامن في فلسفات

الفرق الكلامية الذي كان ومازال سلاحها منطق وفكر أرسطو. أرسطو فيلسوف يوناني ولد سنة 384 ق.م وتوفي سنة 322 ق.م بعد حركة النقل والترجمة عرفه المسلمون ومن شدة فرحتهم لقبوه بالمعلم الأول وحضت مؤلفاته بالشرح والتحليل والتفسير منقطع النظير، ولا يعد العالم عالما إلا إذا أتقن فلسفته و منطقه المشكلة أن الفكر الأرسطي قام على مسلمة معرفية هي الفلسفة والعلم مبحث معرفي واحد وهذا يضع إيديولوجية فكرية تكون سببا في شل الفكر الإنساني كما حصل مع الحضارتين المسيحية والإسلامية. المعنى الذي لم تدركه العقول وهو أن هذه الفلسفة اللاهوتية والكلامية جعلت كل تفسير علمي أو ديني لا يفهم إلا بمقتضيات الفكر الأرسطي القائم على وجود منطق ثابت ساكن، وضعت مصطلحات يعتقد أنها علمية ظلت سائدة لأكثر من ثمانية عشر قرنا، الجدل الفكري المسيحي وحتى اليهودي كان من مسلماته الأولى الصحيحة أن ما قال أرسطو وما كتب صادق لا يعتريه الكذب. كذب المسلمات الأرسطية جعل نظرية كوبرنيك نقطة في التاريخ فارقة لأن هذا الفكر مازال لغاية الآن ثقافة رائجة عندنا، الغريب أن الأمة الوحيدة التي مازالت تروج لهذه التعاليم هي الأمة الإسلامية والكارثة أنها تفعل ذلك ولا تدري وهي ساكنة في حالة غيبوبة وعناء فكري. الفكر الأرسطي قام على تصور فلسفي للكون أقر بوجود أربعة عناصر لا تثبت على حالة واحدة تتكون منها كروية الأرض مفهوم الكروية هنا من المفاهيم الماورائية المجردة تم تحصيلها بالتأمل الفلسفي والجدل المنطقي، قد تجد الكثير في التراث الإسلامي يقولون بالكروية من زاوية فلسفية لا علمية واقعية والخلاف بين فكر كوبرنيك وفكر سابقيه جوهري رؤيته للكون كلية وجودية تضع الإنسان في مكانه الطبيعي وتفصل بينه وبين معتقده. الاعتقاد بالله تبارك وتعالى له طريقه وهو

الوحي وهذا الوحي لا يفسر بمقدمات كونية فلكية ولا تطبق عليه قوانين الزمان والمكان الأرضية تعالى وتبارك عن ذلك ولنشرح ذلك نعود لتاريخ الكشف الجغرافي عند الأوربيين ونبدأ بالسؤال التالي لماذا عجز المسلمون قبلهم عن تحقيق هذه الغاية؟ المسلمون رسموا خرائطهم على مسلمات وقواعد بطليموس لا أكثر ولا أقل تصور ساذج محدود الآفاق يستمد من القوانين الجدلية والقياسات المنطقية الأوروبي الجديد نبذ هذه الفلسفة واستبدلها بفكرة الرؤية والتجربة والمغامرة العملية ترك كهف أفلاطون وظلال المعرفة واتجه مباشرة للشمس والضياء فعرفوا أمريكا العالم الجديد وغيرهم من الأمصار والأوطان. تضمنت التعاليم الأرسطية أن هذه الأجسام تتحرك نحو مواضع محددة مخصصة لها، وسيرها حاصل بالاستقامة كان ذلك نحو مركز الكون النهائي الكروي وقد يتم البعد عنه وفي كل الأحوال هذه الحركة المستقيمة مقترنة بوجود الأرض كمركز ثابت للكون، ثم يقترح مصطلحا جديدا هو الأثير وهو عنصر خامس غير قابل للفساد تتكون منه النجوم والكواكب. الفكر الأرسطي تم قتله لما أطاح كوبرنيك قواعده وأسسه من أسفل فسقط كالبرج العالي الذي تآكلت أساساته من جراء التعرية وشدة الأعاصير والزلال الفكرية، سقطت معه إمبراطوريات الوهم والخرافة والميتافيزيقا المجردة. الرفض الكنسي لفكر كوبرنيك يفهم بثبات التفكير الأرسطي وكيف فسرت الفلسفة الأرسطية نشأة الخلق وكيف تعلق المؤمنون المسيحيون والمسلمون بمبدأ أن فهم القواعد الإيمانية له مدخل واحد فقط وهو ميتافيزيقا اليونان، هذا يلقي الضوء على الحجاج العقيم وكيف أدى إلى الصراعات الداخلية والاقتتال بين الفئة الواحدة كان ذلك في الحروب الدينية عند المسيحيين أو العداء الشديد بين طوائف المسلمين وهو كله لا يخرج عن جدل أرسطي يكتسي أثوابا متعددة ومتغيرة بتغير

الدين والثقافة، رجع العقل الأوروبي إلى الحسابات الرياضية لحساب حركة الكواكب و هنا يكتشف السر وهو أن الطبيعة مكتوبة بلغة رياضية، وأن فهم الكون يتكون خارج مجال الميتافيزيقا وأن التفسيرات الفلسفية للخلق والنشأة لا تتحقق إلا بلغة العلم القائم على فلسفة البحث الموضوعي المجرد. يتوقف جهد كوبرنيك وتقف ثورته لأنه لما أراد أن يبرهن على مركزية الشمس رجع للاستدلال العقلي قال أنه من باب الاقتصاد أن يدور الأصغر حول الأكبر فكره الجديد فتح بابا لن يغلق أبدا. الله تبارك وتعالى من رحمته للعالمين لا يترك باب خير يغلق وينسد أمام العالمين، يأتي علما آخر وهو جاليليو غاليلي Galileo Galilei 1564م 1642م له المواهب العظيمة يعتبر بحق مؤسس الفيزياء الحديثة علم من الأعلام وشخصية فريدة. قاتل وناهض الفكر الأرسطي بقوة وإرادة نادرة الوجود لا نجد له مثيل في الميراث الإسلامي كان التحدي الأكبر هو عداء الفكر الأرسطي والانقضاض عليه، لأنه العلة والمرض وهو علم من الأعلام الإنسانية تفتقر لفكره الشعوب المنهكة بالتراكم والحجاج الأرسطي العقيم وتفسير الكون والخلق بالميتافيزيقا الخاوية المفرغة من عناصر الحياة والعطاء يقول ملخصا فلسفته "توجد الفلسفة في هذا الكتاب الكبير، كتاب الكون، وهو مفتوح لنا باستمرار ولكن لا يمكننا فهم الكتاب إذا لم نعرف اللغة التي كتب بها، ولم نحاول تعلم الحروف المستخدمة في كتابته. إنه مكتوب بلغة الرياضيات ولغتها هي الدوائر والمثلثات وأشكال أخرى هندسية، وبدونها فلا يستطيع الإنسان فهم حتى كلمة واحدة من الطبيعة والكون، وبدونها يضل الإنسان في دهليز كبير مظلم". أحب الفنون والآداب أيام الشباب كتب دراسة حول الجاذبية وطريقة جديدة لتحديد الثقل النوعي، عرف مفاتح العلم درس العلم الرياضي كان يؤمن بأن الكون لانهائي وقال

بخلود المادة وأن الوجود يخضع للقوانين الميكانيكية. دعم قواعد الاستقراء التجريبي وبين بوضوح التناقضات في الفلك القديم وأيد بوضوح مقالات كوبرنيك في مركزية الشمس وما كان أمام رجال الدين المسيحي إلا الوعظ الديني والدفاع الحججي عن فساد مقولة كوبرنيك و غاليلي، ومن انتهج منهجهم وتم عرض قضيته على الكرسي الرسولي بروما فتمت إدانة كل من أخذ بمقولتهم، ثم وضع في السجن وطلب منه التراجع عن مقولته وبدأت أثاره الفكرية تظهر بوضوح في أعمال علماء ومن أشهرهم إسحاق نيوتن ومن الذين أثروا بشكل واضح في هذا المسار المعرفي العالم كيبلر جوهانز 1571م 1630م Johannes Keppler عالم فلك ألماني عرف في بداية حياته الفقر والاضطهاد الديني لأنه آثر الديانة البروتستانتية عمل خادما في الحانات ومزارعا ودرس اللاهوت المسيحي، وتنقل بين المدارس طلبا للعلم وشاء الله تبارك وتعالى أن ييسر أمره تعلم على يد معلم يؤمن بنظرية كوبرنيك تعلم مبادئ الرياضيات والفلك ليسكت غضبه ويريح نفسه من ثقل اللاهوت الكنسي وخاصة أنه منضوي تحت راية الاحتجاج البروتستانتية. مع اشتداد حملة الاضطهاد ترك بلده وهرب إلى مدينة براغ ووجد ضالته في العلم الرياضي نهل منه واستقر في نفسه روع التجريد وقراءة الكون قراءة علمية خارج أنساق اللاهوت والتفسير الغيبي الخرافي الأرسطي، وفي موطنه الجديد تعرف على العالم تايكو براهي سنة 1600م بعد وفاة أستاذه تولى منصبا عاليا هو الرياضي الإمبراطوري وعمل على وضع جداول رياضية وتعديلها وهي جداول خلفها أستاذه. ثم جاءت بارقة الإبداع رفض بالمطلق أراء أستاذه في الفلك والكون اعتمد منهجا علميا، مشى وأكمل مسار كوبرنيك العلمي أخذ بأدوات البحث من ملاحظة وفرضية وتجربة وحقق النتائج المذهلة وأرسى البداية العلمية لعلم الفلك،

متميز في موضوعه ومنهجه عاين حركة المريخ وأظهر أن مدارات الكواكب ليست دائرية بل هي حركة إهليليجية وقدم ثلاثة قوانين كونية الأول مدار الكوكب قطع ناقص إهليليجي تكون الشمس إحدى بؤرتيه، والثاني يمسح الخط الذي بين الشمس والكوكب مساحات متساوية في الفضاء في أوقات متساوية، والثالث النسبة بين مربعي الزمن الدوري لأي كوكبين كالنسبة بين مكعبي البعد المتوسط لكل منهما من الشمس. بعد هذا الفتح العلمي العظيم شرع في بناء ما يعرف بالجداول الرودولفينية أنجزها سنة 1627م تحدد مواقع الكواكب بدقة وضع نظرية في علم البصريات ساهمت في نشأة فيزياء نيوتن.

زلزلة كوبرنيك: الصرح الأرسطي وما لحقه من فكر لاهوتي مسيحي يتداعى تداعي الصرح القديم الهش الآيل للزوال حتما وتبعته هزات أرضية في الثقافة الإسلامية لم تؤتي أكلها لأن العالم الإسلامي في هذه الفترات الحاسمة كان يغط في نوم ثقيل مثقل بثقل التراكم الخرافي، فلسفات أرسطية لامست عمق الاعتقاد وجوهر الإيمان و رؤية فلسفية للكون في ثوب عقدي ممزق بين فرق وطرق، ونفسية إسلامية مريضة لا تميز بين الوهم والحقيقة وأوبئة تفتك بالأفراد والجماعات وعقل أفلاطوني بامتياز يفصل بسذاجة بين النفس والجسم ويوغل في الثنائية. عوض أن ينتج المجتمع علماء الفلك والرياضيات والفيزياء ينتج الدراويش وحلقات الشطح والتيه وفلسفة الانتظار لقادم من سرداب أو زاوية صوفية ولله الأمر من بعد ومن قبل. الأمر يختلف عندما نتكلم عن العقل الأوروبي وتداعيات الزلزلة نهض الفكر منتفضا على التراكم اللاهوتي، بدأ لحظة بارقة في الدهر هي لحظة التنوير ونختار من التنوير نماذج فكرية قليلة نبرهن على صدق ثورة كوبرنيك هذه الثورة خط فاصل بين مرحلتين فكريتين الآن يستطيع الإنسان أن يختار موضعه

ومكانه بين متناقضين فكر أرسطي ساكن جامد وجغرافيا بطليموس وجدل عقيم لا نهائي وقراءة منطقية صورية للكون والخلق أو ثورة بنائية تندفع نحو التطور والبناء. سنكتشف أن النقلة النوعية من الحالة الأرسطية إلى الحالة العلمية المثلى تقف وراء نشأة كل العبقريات المتتابعة في الفكر الأوروبي وهذه هي معادلة فهم سر تطور الأوروبي وتخلف غيره حتى الذين زاحموه الآن أقاموا ثورات تهدم تراكم السنين والحقب. سر تعاظم الصين الآن هو الثورة الثقافية وسر نهضة اليابان هو صدمة الحرب العالمية الثانية واكتشاف الخلل العظيم في أنساق التراكم الفكري، التطور والنهوض يقترن دائما بقراءة صحيحة للكون. العالم نيوتن إسحاق وجد التفاحة أمامه طيبة ناضجة على طبق أعده كوبرنيك هو عالم فيزيائي إنجليزي 1642-1727م عرفه القرن الثامن عشر عالما ملما بالعلم الرياضي والفيزياء والفلسفة الطبيعية، من قرأ سيرة حياته يجد صعوبة في تحديد معتقده وفي كل الأحوال كان رافضا للاهوت المسيحي و يؤكد ذلك ما يعرف بأوراق نيوتن اللاهوتية وأظهرت أنه رأى في عبادة المسيح عبادة للأصنام وأقر بأنها من الخطايا الكبرى ويقول المؤرخ ستيفن سنوبيلين عن نيوتن "كان إسحاق نيوتن واقع في الهرطقة و لم يسبق له أن أعلن على الملأ قناعته الدينية المتطرفة أخفى أفكاره بدقة جعلت المؤرخون يتجادلون في عقيدته". كما أكد سنوبيلين أن نيوتن كان على الأقل متعاطفًا مع طائفة السوسينيين وهو كان في الاعتقاد آروسيا وهي عقيدة ترفض الثالوث وهذا يفسر رفضه تلقي التعاليم المقدسة وهو يحتضر. أثره كان فلسفيا قبل أن يكون علميا قدم تصورا علميا مجردا للكون وطبع فلسفته العلمية بوضع قانون الجاذبية الذي أكمل جهد كوبرنيك. قبل أن يكون مجرد تصور علمي له حجته هو بناء فكري للعالم والخلق والنشأة الكونية وقراءة رياضية للكواكب

والأجرام السماوية وفتح المجال أمام علم الفيزياء لينشأ نشأة موضوعية خالصة، ويحرر العقل من خرافة السيمياء وتحويل المعادن الرخيصة إلى ثمينة وفيزياء الحيل، قام بتجارب وبواسطة منشور زجاجي ثلاثي قام بتحليل الضوء إلى ألوان الطيف واخترع التلسكوب العاكس وفي كل الأحوال تبقى أعمال نيوتن نتاج طبيعي وحتمي لفكر كوبرنيك.هناك نقلة أخرى نجدها عند لافوازيه أنطوان لوريه 1743م – 1794م Antoine Laureut Lavoisier بدأ حياته بالمحاماة ثم ابتكر طريقة لإنارة الشوارع في باريس، وكان مهتما بالبحث الكيميائي ويصنف على أنه أب الكيمياء الحديثة عرف نهاية مأساوية تم إعدامه بعد قيام الثورة الفرنسية، تهم واهية وهي أنه أساء للجيش ولم يثبت عليه شيء ولأنه خالف المعتقدات الشائعة كانت تهمته مبررة وسمع الحاضرون في قاعة المحكمة العبارة التالية: "الجمهورية ليست بحاجة إلى علماء بل بحاجة إلى عدالة" والأصل أنه مع قيام الثورة الفرنسية كانت الثورة المضادة تشغل، ويحركها أنصار اللاهوت وتمارس فعل الانتقام ولما قررت زوجته طلب العفو عنه قال القاضي" الثورة لا تحتاج إلى عباقرة". هو واضع المبادئ الأولى لعلم الكيمياء أخرج الفكر البشري من طقوس الخرافة والشعوذة وثقافة السحر إلى رحابة العلم وفنونه، أدخل المفاهيم الرياضية الحسابية لدراسة العناصر الكيميائية بين طبيعة الاحتراق وفسر آلية التنفس حقق هذه النتائج بعد دراسته للقانون والجيولوجيا والكيمياء والفلك وألم بجل علوم عصره سنة 1768م أنتخب عضوا بالأكاديمية وجعل نفسه في خدمة العلم وما يسر مهمته أن الأكاديمية نشرت أعماله وأبحاثه سنة 1772م أظهر أن ناتج الاحتراق هواء ثابت وتوالت نتائج بحثه وفي سنة 1777م بين أن الهواء الصالح للتنفس يتحول بفعل الاحتراق و التنفس إلى هواء ثابت وأنه أحد مكونات الأحماض.

الزلزلة تتواصل و تحدث انكسارات أرضية وترسم خطوط طول وعرض في الثقافة السائدة وتسمح بتغيير أنماط التفكير والتواصل بين الناس وهذا ما نكتشفه في أعمال تشارلز داروين ونظرية التطور وكيف أطاح بالإنسان المتعالي وأخرج هذا الجنس من روحانية أفلاطون المثالية وصورية أرسطو المنطقية هو داروين تشارلز روبرت Charles Robert Darwin 1809-1882م عالم بيولوجي متميز صاحب نظرية التطور قام برحلة بحرية حول العالم نظر في حياة الكائنات الحية وفسر تطورها في التاريخ ونفى فكرة الثبات نفيا مطلقا وترك مؤلفا مهما هو أصل الأنواع. فسر التطور بقانون الانتخاب الطبيعي وكيف أن قانون الصراع من أجل البقاء يفسر وجود وحياة الكائنات وأن هذا قانون عام يشمل الحياة الفكرية والعلمية وأن الإنسان لا يختلف عن الكائنات في النوع بل في الدرجة فقط، كان متوجسا من الميراث اللاهوتي الكنسي وظهر كناقد للكتاب المقدس وطرح سؤال في منتهى الموضوعية وهو لماذا عجزت الأديان السماوية عن أداء مهامها؟ الجواب يقدمه تاريخ الأديان وتطورها الديانة اليهودية فقدت عناصر بقائها مع ميراث التوراة الضائعة والتلمود المعبر عن شدة التراكم الفكري وكيف حولتها التحريفات إلى ديانة عصبية، تقدس أمة دون الأمم وجعلت من العرق والنسب متقدم عن الاعتقاد والإيمان ونظروا لصفاء الدم ونقائه العناصر نفسها وظفها الأعداء ضدهم وبالتالي فسرت العداء الكنسي للفكر اليهودي عبر الحقب والأزمنة القديمة والحديثة. أما في أيامنا هذه وأمام اتحاد الأهداف في معركتهم ضد الأمة الإسلامية رسموا معالم عقيدة جديدة توحد بين الديانتين اليهودية والمسيحية. أما الديانة المسيحية بعد التحريف والقول بالإنسان المتعالي ورفع المسيح عليه الصلاة والسلام إلى مرتبة الإله أضحت فلسفة أفلاطونية مجردة تحلق في عالم المثال والمطلق ونشأت

تناقضاتها من رهبنة وتجرد وثالوث وجدل وحجاج في الطبيعة الإلهية. أما المسلمون بعد وفاة نبيهم عليه الصلاة والسلام وبعد خلافتهم الراشدة زحفت على عقولهم فلسفة اليونان كبنى فكرية غير مشاهدة وانقسموا إلى أفلاطونيين وهذا شكل المذاهب والآراء الباطنية عند الشيعة والصوفية المتفلسفة وتدرجوا في معتقدهم من المقبول إلى المعقول ثم اللامعقول والنهاية الهستيريا، وما يتبعه من هرج ومرج في الأفعال والسلوكيات كما هو مشاهد في الطقوس الدينية عند فئات مسلمة منحرفة عن منهاج النبوة. الزمن و السنن الكونية تجعل الداء البسيط تتطور أعراضه ويظهر على السطح كأورام سرطانية تفكك وحدة الأمة وتزيل وشائج التقارب وتزرع الاختلاف والتباعد، التاريخ يقدم الشواهد الكثيرة التي ترفع الغموض عن الأسباب المؤدية للتنازع من آثار الفلسفة الأرسطية على المسلمين كما قلنا هو ظهور المسائل الكلامية واختلاف القراءات الفلسفية عند أهل السنة والجماعة بحكم الابتعاد عن القراءة المعاصرة لتطور العلم والاكتفاء بالقراءة الكلاسيكية للخلق والكون وفق المعطيات والمعايير الأرسطية، هذا وغيره ساهم في تصدع آخر خلافة تجمع المسلمين وهي الخلافة العثمانية من الداخل، وظهور ما يعرف بالثورات الفارسية الشيعية والعربية لاختلاف المشارب والأهداف. نعود لداروين تأثر بدراسات العالم مالتوس وتفسيراته للمجاعة والنزوع البشري للعدوانية، وأظهر أن هذا لا تنطبق عليه نظرية الثبات الأرسطية بل التطور وهذا جعل داروين يبني أنساقا جديدة تفسر الكائنات الحية مع الإنسان. طبعا تفسيرا يناقض بالكلية فلسفة الثبات وأثبت القانون الطبيعي وهو البقاء للأصلح. نبقى مع زلزلة كوبرنيك ونعرج قليلا إلى العلوم الإنسانية ونكتفي بعرض مثال واحد وهو من علم النفس المعاصر ونأخذ مدرسة التحليل النفسي كشاهد على الانقلاب على سيادة الإنسان ومركزيته في

الكون وثبات سلوكه في مضامينه العقلية. سيغموند فرويد هو طبيب نمساوي من اصل يهودي اختص بدراسة الطب العصبي وخاصة الأمراض العصبية أظهر نفسه كمفكر حر غير مقيد بشريعة ولا بمنهاج عقدي، هذا على الأقل ما أظهره و هو المؤسس لمدرسة التحليل النفسي واسمه سيغموند شلومو فرويد 6 مايو 1856م 23سبتمبر 1939م وهو طبيب الأعصاب النمساوي، اشتهر بفرضيته حول اللاشعور و ورفض الفلسفات الكلاسيكية القائمة على فكرة الشعور والوعي، والقصد هنا المدرسة الاستبطانية وهي عبارة عن تراكم لا محدود من الجدل العقيم حول النفس البشرية وإمكانية الفصل بين النفس والجسم والنقاش الطويل في أن النفس هي المدبر للجسم وأخذ هذا الجدل حيزا عظيما في الثقافات الكلاسيكية وهو مستمد و مستلهم من الفلسفة الأفلاطونية. لذلك جاءت مناهج وقراءة فرويد جديدة للإنسان والكون وكذلك الخلق وصدمت العالم المسيحي لما وصف سلوك الفرد وصفا حيوانيا غريزيا أظهر أثر الكبت وتشكل العقد النفسية وأقر بوجود الغريزة الجنسية وأنها طاقة النفس ومحركها الأول و اعتبر كل فعل صادر عن الإنسان من الغريزية الأولى حتى الصبي إذا حرك شفتيه أثناء الرضاع فسره إشباع للغرائز، عمم نظريته لتفسر حركة الناس في التاريخ على أنها حاصلة بدوافع غريزية كالتحطيم. لا نغلق ملف الزلزلة الكوبيرنيكية حتى نقف على زلزال عظيم كان أثرا من آثارها المدوية وحصل ذلك في عالم اللغة والتواصل والتعبير إنها أعمال فردينان دي سوسير Ferdinand de Saussure حياته ممتدة من 26 نوفمبر 1857م إلى 22 فبراير 1913م عالم لغويات سويسري يعتبر الأب والمؤسس لمدرسة البنيوية في اللسانيات في القرن العشرين، هو من أشهر علماء اللغة في العصر الحديث اتجه بتفكيره نحو دراسة اللغات دراسة وصفية باعتبار اللغة ظاهرة اجتماعية. قبله كانت

اللغات تدرس دراسة تاريخية وكان السبب في هذا التحول الخطير في دراسته اللغوية هو اكتشاف اللغة السنسكريتية أعماله ساهمت في تطوير العديد من نواحي اللسانيات كان أول من اعتبر اللسانيات فرع من علم أشمل يدرس الإشارات الصوتية اقترح دي سوسير تسميته Sémiologie ويعرف حاليا بالسيميوتيك أو علم الإشارات والعلامات. قراءة النص و الخطاب اللغوي قبل اللسانيات المعاصرة كان يفهم فهما أرسطيا ويخضع لفلسفة ثبات المبنى والمعنى وتعنى نظرية الأدب الكلاسيكية بالمعاني المجردة الخاضعة للتصورات الذهنية القبلية حتى نظهر كيف تكون القراءة الكلاسيكية أحد مداخل بناء المفارقات نضرب مثلا من السنة النبوية الشريفة وأثر البنية الأرسطية في فهمها فقد ثبت في الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة قيل: من هي يا رسول الله؟ قال: من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي.وفي بعض الروايات: هي الجماعة. رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه والحاكم وقال :صحيح على شرط مسلم. و هذا الحديث موضع نقاش في إثبات صحته وهذا ليس موضوع بحثي. أريد أن أبحث في لغة الخطاب المدارس الكلاسيكية قديما وحديثا بنيتها الفكرية إما أرسطية أو أفلاطونية. بحكم الثقافة التي هيمنت على العصور الأولى لتدوين السنة و شرحها الرؤية القديمة تأخذ بمنهجيتين الأولى أرسطية وتقف عند ثبات دلالة المعنى واللفظ من الوجهة النحوية والبلاغية و القراءة الأسلوبية للنص وهذا منهج بحثي تعارف عليه المسلمون وخاصة فقهاء وعلماء أهل السنة والجماعة الثانية أفلاطونية وهي قراءة باطنية للنص تؤمن بأن النص له باطن وظاهر وهذا منهج الفرق الضالة. ورصيدهم الفلسفي

يوناني وميراثهم مجوسي وهندي يتكلمون بلغة التأويل والرمز ويتوسعون في التأويلات فيكون النص مجرد مدخل لنقل ميراث هذه الفلسفات مجتمعة. المعضلة أن أهل السنة والجماعة يعتمدون في حل مسائلهم الكلامية وبعض المسائل العقدية على التصورات الأرسطية دون وعي لأنهم لم يفصلوا بين لغة الخطاب والمنهج المعتمد في فهمها. نعود للحديث في تفرق الأمة من يحكم على الحديث هو الوحي نفسه وليس التصورات و الأقيسة المنطقية و نترك البيان لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ 92 الأنبياء، وقوله عزّ وجل: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ سورة آل عمران 103، و قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ سورة الأنفال 46.كلها دلائل واضحة و قوية على وحدة الأمة فهم المسلمون الحديث على أن الأمة الإسلامية ستنقسم إلى ثلاث وسبعين فرقة مثلها كمثل اليهود والنصارى بعد هذه السنين الطويلة من وفاة نبينا عليه الصلاة والسلام لم يحصل هذا التفرق العددي لا عند اليهود ولا عند النصارى و لم تتحقق النسبة العددية في أمتنا الإسلامية ولا في غيرها مع العلم الثابت أن نبينا عليه الصلاة والسلام كلامه وحي يوحى. حتى نرفع المغالطة نضع الفرضية الأولى لماذا لا يكون الحديث من أخبار الساعة و ما اتصل بالغيب هذا الفرض لم يتفق عليه شارح الحديث بل سلموا أن التفرق حاصل بالقوة لا بالفعل وفق المعيار

الأرسطي و الفرضية الثانية وهي أخذ النص على ثبات لغته ومعناه ثباتا فلسفيا أي يأخذ مبدأ أرسطو في الهوية والذاتية وأن الشيء ثابت ثبات الدهر والأزل في نظريته الصورية. في حين أن الحكم يتعلق بوجود أمة لا تثبت على حال بحكم الأحوال التاريخية والسنن الكونية. القراءة النقدية للتفسير تظهر خطر المغالطة والسفسطة المؤدية للتنافر لأن هذا التفسير القائل بثبات التفرق وأن بين المسلمين فرقة ناجية والباقية كلها على الضلال يؤسس حتما لوجود منطق الفرق وهذا مخالف لصميم العقيدة. المفارقة هي في الفهم الرياضي الحسابي، نقرأ في سورة الفاتحة الصراط المستقيم أقرب نقطة بين نقطتين الخط المستقيم هذا تفسير رياضي هندسي، الفهم القرآني هو أن معرفة الله تتم بأقرب طريق هو الوحي لا الفلسفات والآراء البشرية. يفهم من الحديث أن التفرق من السنن الكونية حاصلة في كل ملة ودين من عرفها منع نفسه من شرها ومن جهلها وقع فيه بالضرورة. وسنن التفرق هي الأخذ بالفلسفات القائمة على الجدل والمفارقات الكلامية. الجدال الفلسفي يبني تصوراته على حكم الجزء على الكل، لو أثبتت ومن باب الجدل أن الأشاعرة هم أهل السنة والجماعة سيكون غيرهم على الضلال ولو من باب الجدل والسفسطة أخذت مآخذ على الأشاعرة وهذا واقع بحكم الطبيعة الإنسانية سأجعلهم ضالين وأجعل نفسي على التقى والهداية ولذلك لا تجد غرابة أن بعض بائعي السفسطة لا يجد في نفسه حرجا وهو يصف أخ له في الدين والمنهج على أنه أشعري أو سلفي دون تبصر أو حتى تعقل بحكم المشاركة في المصلحة والهدف الواحد. نترك قراءة الثبات ونستعين بالدراسات الألسنية المعاصرة في الفهم تحليل لغة الخطاب. اللغة حالة الاجتماعية وهي الشبكة من العلامات النظمية المتسلسلة وفق قواعد لغوية متفق عليها في بيئة معينة تهتم بدراسة اللغة واللسان والكلام،

مفهوم الحساب والعد عند العرب قديما ليس هو علم الكميات المنفصلة المتعارف عليه في العلم الرياضي بل هو عد كيفي لقوله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ 80 التوبة، اللفظ سبعين لا يعني العدد الرياضي نفسه بل يعني الكثرة و السبعة عند العرب قديما هي نهاية العدد لأن الحساب بلغة الوحي هو حساب الآخرة لقوله تعالى: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾ الأنبياء 47، لعل الرقم والعدد هنا حالة اجتماعية وعلامة على بنية معرفية تعارف عليها العرب في زمانهم. لذلك العدد هنا تناسبي 71، 72، 73 حركة لا تفسر بالرتابة والسكون في الزمان و المكان المعين بل هو مقترن بحركة الإنسان في الكون وتفاعله مع الخلق والنشأة والمصير و الوجود والخلق. الدراسة المكتملة للبنيات المشكلة للوعي الديني في كل زمان ومكان تظهر أن أسباب التفرق واحدة في الملل والنحل وأن اختلاف العدد هو في الترتيب التصاعدي فقط يفترض في العقل الإسلامي أن يبحث في هذه الفوارق البنيوية المشتركة لأنه الوحيد الذي يملك أدوات البحث ومناهجها بمقتضى الوحي الصادق لأن مرجعيته وأرضيته الفكرية خالصة من الشوائب الفلسفية أما التقدير الكمي الخالص يوقعنا لا محالة في بناء المفارقات وتشكيل السفسطات ويضعنا أمام أقيسه منطقية متداخلة وغامضة. العقل المسلم المعاصر لابد أن يعيد قراءة لغته من جديد ويفسح المجال المعرفي للسانيات أن تتبوأ مكانتها وتخرجنا من رتابة الدراسات اللغوية الكلاسيكية. الحمد لله العلم اللساني المعاصر يحل هذه المعضلة و اللسانيات من العلوم الحديثة بل قل هي من العلوم اللغوية المعاصرة وضع

مسلماتها الأولى في بداية القرن العشرين فردينان دي سوسور F.De Saussure وجاءت البداية «محاضرات في اللسانيات العامة» Cours de linguistique générale فحَّدد إشكالية المسألة اللسانية واتخذ موقفاً نقدياً من التصورات الكلاسيكية اللغوية. علماء اللسانيات المعاصرة نظروا إلى اللغة على أنها مجرد حركة وآلة تحدث التواصل في الزمن و تعبر عن أغراض البشر و لم ينظروا إليها في وظيفتها التواصلية في البيئة الثقافية الواحدة فقط بل داخل المجتمع الإنساني الواحد. قد أدت محاضرات دسوسور إلى انقلاب جوهري ملخصه اللغة بذاتها ولذاتها وهذه وظيفة العلم اللساني أي تتحول ذات اللغة إلى معطى أولي وموضوع اللغة إلى معطى خارجي والمعطى الخارجي هنا هو الدين والمجتمع والسياسة والفلسفة.الأخذ باللسانيات المعاصرة والأخذ بقواعدها يساهم في رفع الكثير من المفارقات والمغالطات لأن المفاهيم اللغوية القديمة غير مجدية وسببا عظيما في إيقاع الخلاف بين الأمة في الماضي والحاضر وكذلك المستقبل ونأمل أن يأتي ذلك اليوم القريب ونفرح بتأسيس ألسنية إسلامية تمكن من قراءة لغوية جديدة والله المستعان.

27 جوان 1884م يشاء الله تبارك وتعالى أن يضم للأحياء عبدا من عباده هو غاستون باشلار، وشاء الله أن يعيش 78 سنة ويخرج من هذا العالم يوم 16 أكتوبر سنة 1962م وقد أثرى عالم المعرفة بنظريات وأراء فلسفية تستحق الاهتمام والدراسة. أجمل ما في فكره ظلال الأدب والعلوم. أطر نفسه بعقلانية نادرة مازجت بقوة بين موضوعية العلم و ترانيم الآداب وشكل فكرا إبستيمولوجيا خالصا جعل نفسه مرآة للعلوم النظرية والتطبيقية، وكيف جالت في التاريخ وهذه الجولة لها أعماق فلسفية يحتضنها وقوة معرفة تدفعها وتنافح عنها، ضد الأفكار الوهمية والخرافية درس بعمق الأبحاث الفلسفية في تاريخها القديم وكيف كانت مقدمة لنشأة العلم. أمام التراكم العلمي العبثي الذي يتجلى كظواهر يترع لها العقل العلمي. كانت المعرفة المحققة تتلمس طريقها بمنطق القطيعة، شملت فلسفته العلم في كليته وشموليته مع قاعدة البحث الإبستيمولوجي، أن المعرفة العلمية دونها عوائق على العقل العلمي أن يبحث عنها ويتجاوزها بابتكار لغة جديدة ومناهج متجددة، لقد ترك مؤلفات قيمة من أهمها: التحليل النفسي والنار سنة 1937م العقل العلمي الجديد 1934م تكوين العقل العلمي 1934م الماء والأحلام سنة 1941م العقلانية والتطبيقية 1948م المادية العقلانية 1953م. جماليات المكان 1957م شاعرية أحلام اليقظة 1961م يقول معبرا ومفسرا لمعالم نظريته: "الروح العلمية تمنعنا من تبني الآراء حول أسئلة لا نستطيع فهمها ولا إدراك معانيها و مع أسئلة لا تبدو واضحة و قبل كل شيء يجب أن نحسن طرح المشكلات ونحدد لغة التخاطب ونعي ما نقول. في الحياة العلمية الأسئلة لا تطرح نفسها بداهة إنها المشكلات هي التي تفرض نفسها فرضا على الروح العلمية الذي يملك روحا علمية يعتقد أن كل معرفة هي جواب على سؤال ولا شيء يأتي من أنفسنا لا شيء يوهب لنا كل

معرفة هي في الأصل بناء". وفكره أسسته تيارات فكرية تأثر بداية بالنزعة المثالية الألمانية وخاصة نظرية كانط لما فصل بين العقل النظري الخالص ومجاله العلوم والمنطق العملي ومجاله الأخلاق. و وجد عند هيجل الجدل المثالي القائم على منطق التغير على النقيض تماما من منطق أرسطو الذي سلم واضعه بمبدأ الثبات والسكون و تأثر بالأدب الألماني والثقافة الألمانية الصارمة. وقرأ باهتمام شديد فلسفة فريدريك نيتشه أخذ منه فلسفة الرغبة والطموح والتعالي على الضعف وأخذ منه منهجية تحليل بنائي وخاصة مع تحليله لفكرة Du feu et de l'air وظهر متأثرا بمناهج مدرسة التحليل النفسي وكيف أخذ برمزية النار والهواء وهو يشير إيحاء للفلسفة اليونانية القديمة التي فسرت الكون بالعناصر الأربعة الماء والنار والهواء والتراب. ونهل من الإبستيمولوجية الفرنسية لما طرح ونقض فلسفة أوجست كونت والمراحل الثلاث التي يتعاقب عليها البشر وهي المرحلة اللاهوتية ثم الميتافيزيقية والمرحلة النهائية وهي الوضعية وتعني سيادة العلم وهيمنته على حياة البشر، قرأ مؤلفات الفيلسوف الفرنسي هنري برغسون مؤسس الفلسفة الحدسية وأخذ منه فعل الحدس ودلالة الديمومة ومعانيها وقوة الشعور وتدفقه في باطن النفس البشرية، ويظهر تأثره بمدرسة التحليل النفسي كما قلنا عظيما في مؤلفاته يستمد اللغة ويقف على الكامن والخفي في سلوك الأفراد و الجماعات. يتداول جملة من المعاني في أفكاره وأسلوبه منها الكبت والحلم و اللاوعي ورؤية الجنس وفعله في السلوك وجعل من التحليل النفسي وسيلة لفهم حركة العلم في التاريخ وفسر لغة التاريخ بمنهجية التحليل والتفكيك لبناءات الأنا وتفاعلها مع نفسها ومحيطها. سنة 1934م يصدر له كتاب هو الروح العلمية الجديدة يحدث مقابلة بين المثالية والآلية ويبحث في تطور الأنساق الفكرية والتحولات الكبرى في التفكير

البشري أمام فلسفة التراكم التي كانت ومازالت من الأحمال الإنسانية المرهقة لتطور الفكر وتحرره. مدار فلسفته بالكلية الروح العلمية الجديدة الأصل أن هذا كتاب أصدره سنة 1934 م وهو يتجاوز الفكر الكلاسيكي العقيم في فهم حركة الفكر العلمي في التاريخ ويعتقد أن الموقف العقلاني أضحى متجاوزا بالقياس للمعايير الابستيمولوجية وقبوله يعني القبول بالثبات والجمود، والفكر التجريبي الفلسفي وإن كان حديثا في طرحه فهو قديم في مناهجه وموضوعاته ويهاجمه بالنظر إلى مسلماته التي لا تمتلك أداة البحث لتجاوز عائق التراكم الذي أفضى إلى وقوع العقل البشري في التفكير الخرافي وليس أمام العلم إلا مبدأ القطيعة الابستيمولوجية وهي مقاربة معرفية تمنح العقل العلمي تجاوز عائق الخرافة والسذاجة الفكرية وهو نقله نوعية وطاقة روحية للعالم تمنعه حتما من الوقوع في الفكر التكراري وتحطم في روحه العلمية فلسفة التسليم بالواقع والاستسلام لما هو موجود وهذا التحرر يفتح الفكر أمام الفكر والإبداع الجديد ويعطيه القدرة على تجاوز اللغة العادية المجازية البعيدة عن فهم العوائق الفكرية المحيطة. عوض عن لغة علمية متجددة الألفاظ والدلالات واللغة الصحيحة تقتل في الذهن الأفكار المسبقة وهذا هو سلاح العالم الجديد الذي يخرجه من التصور الواحد ومنطق البداهة الواضح إلى العلم الصحيح "الروح العلمية لا تمنع العالم من أن يحمل أفكارا وأراء حول أسئلة لا نمتلك القدرة على فهمها فهما صحيحا ولا نملك لها تصورات تسعفنا على الفهم والقراءة الموضوعية". يرى أن من يدرس تاريخ علم النفس المعاصر يكتشف كيف استطاعت مدرسة علم النفس التحليلي أن ترسم معالم القطيعة الإبستيمولوجية مع التصورات الكلاسيكية للنفس البشرية وكيف أنها أعاقت علاج وتشخيص الأمراض النفسية لقرون طويلة.

التطبيقات العملية: مبدأ القطيعة له تطبيقات على حقل المعرفة العلمية كان ذلك في العلوم الفيزيائية والرياضية وعلوم الكيمياء وكذلك المنطق يبين مثلا كيف استطاعت نظرية القطيعة أن تبني علما جديدا و اكتشافات جديدة، نظرية الإضاءة قبل أديسون قامت على فكرة الاحتراق من أجل الاضاءة ونظرية أديسون ناقضت ذلك بالكلية لما أبدع المصباح الكهربائي الذي يضيء بفعل القاعدة التي تمنع المادة من الاحتراق أصلا. هنا نتوقف لنتعرف على مفهوم ومصطلح القطيعة الابستيمولوجية Épistémologies هو من المصطلحات الذي دخل القواميس الفلسفية المعاصرة ووجوده اقترن بجملة عوائق وقفت دون تطور العلم والأصل في الكلمة أنه مشتق من لفظيين يونانيين Epistème وLogos وتعني كتركيب لغوي له دلالته نظرية العلم ونقده، المعنى العام هو الدراسة النقدية للعلوم وعبر عنه باشلار بالقفزات الكيفية التي تمكن العالم صاحب الروح العلمية من تجاوز العوائق الناتجة عن التراكم الخرافي في المعرفة ويؤكد حقيقة الجدل بين العوائق الابستيمولوجية وفكرة القطيعة الثابتة في عقل العالم المتحرر من الفكر القبلي. هذا الرد قوي ضد من قال بنظرية الاستمرار والتواصل بين المعارف العلمية والخرافية كما أظهر ذلك أوجست كونت ويصل إلى النتيجة الحتمية وهي أته لا حدود ولا نهاية للفكر العلمي، لقد اقتبس من فكر هيجل و الفلسفة الألمانية عامة فكرة الجدل المتطور في التاريخ على نقيض الجدل الأفلاطوني العقيم و آليته في التاريخ أنه واقع بين نقيضين هما التفكير الساذج العقيم الذي يندرج في عالم الوهم والخرافة والتفكير العلمي المبدع الذي ينفض عن نفسه ثوب التراكم الخرافي. المناهج العلمية تتخذ لها قاعدة وهي الاستمرار في المراجعة وهنا نفصل من باب القطيعة الابستيمولوجية بين الأفكار الخرافية والعلمية، هنا يفتح باباً جديدا ويصطلح على

تسميته بالقفزات في الحقل المعرفي التاريخي ويرد على دعاة من قال أن العقل البشري ثابت بالماهية عبر الحقب والعصور كما ادعى ذلك ويرسون، نفى باشلار فكرة الحدس والمعرفة المباشرة كما عبر عنها هنري برغسون ورفض تصور ليون برا نشفيك الذي فسر التاريخ وتطوره بالحركة الشعورية الإنسانية المتدفقة. الفعل العلمي يقتضي من العالم التحلي بالموضوعية وهي التتره والابتعاد عن الدوافع الذاتية والأهواء والميول والأخذ بالمقتضيات القبلية والتفسيرات الميتافيزيقية. فكر غاستون باشلار هو نتيجة حتمية لزلزلة كوبرنيك والرد الفعل الطبيعي عن التغيرات الجوهرية وكيف انعكس على المفاهيم العلمية قبل ثورة كوبرنيك كان مفهوم الطاقة بسيط وبدائي ولا يخرج عن مفهوم الحرارة بعد الثورة الكوبيرنيكية عرف التفكير العلمي مصطلحا جديدا هو الطاقة وأضحت له تطبيقات واسعة في الحياة المدنية وكذلك العسكرية نجد أن الرؤية الكونية الجديدة غيرت حياة البشر وأكثر من ذلك غيرت البنيات الفكرية هي التي تتحكم الآن في مصائر الناس وحياهم.

مفكر أمريكي بامتياز مثل رؤية المنتصر في القرن العشرين هو كون أو كوهن 18 تموز 1922م- 17حزيران 1996م مفكر أمريكي مهتم بتاريخ العلوم وفلسفته، كتب سنة 1962 م كتابا لفت الأنظار وهو بنية الثورات العلمية عمل خلاق و مبدع و مرآة لكل من فقد صورة نفسه وعمله وعجز عن تغيير واقعه يمثل حتمية القبول والخضوع لحكم التاريخ. الضعيف يولد من الضعف والقوي من القوة والعجز والتخاذل صورة الواهم المغيب عن حقائق التاريخ. اللحظة الفردية الآنية هي بنية فكرية تتصارع فيها تراكمات الماضي صراعا بنيويا، الكائن الساذج تمر عليه ثورات عارمة تزلزل كيانه ووجوده ولا يعبأ يسميها كوهن تحول الباراديغم مرت على المسلمين ثورة كوبرنيك و لم تغير في فكرهم ، مرت ثورة داروين في التطور والانتخاب الطبيعي ولا شيء، مرت ثورة أينشتاين في النسبية وما زال الجدل وإلى يومنا هذا حول فكرة الزمان والمكان بالمفهوم اليوناني الأرسطي. تمر عليهم ثورة التواصل ويغلق الملف السمعي البصري لتفتح الآفاق الجديدة أمام الأمم التي تعيش تاريخها. لقد غاب عن وعي الضعيف البارديغم وهو ماثل في عقول من حمل التاريخ كبنية موضوعية تحدده شكلا ومجالا وصيغة تفرض نفسها في الوعي، يعتقد كوهن أن الزمن القابل للعد والإحصاء انتهى زمن اليوم والأمس أضحى من السير التاريخية الكلاسيكية اليوم هو أن تكون موضوعا حاضرا يشهد الجميع على حضوره والبديل هو المغادرة والمفارقة.

توماس صموئيل كوهن حياته الفلسفية: كتب في تاريخ العلوم وفلسفة العلوم أضاف مصطلحات جديدة كمصطلح البارديغم والده صموئيل كوهن عمل بالهندسة الصناعية، نال كوهن شهادة جامعية في الفيزياء من جامعة هارفارد سنة 1943م وتدرج بعد ذلك في الشهادات الجامعية سنة 1949م نال درجة الدكتوراه

من 1948م إلى سنة 1956م لبّى رغبة رئيس جامعة هارفارد وعاد لدراسة مناهج تاريخ العلم. في قسم الفلسفة والتاريخ بجامعة كاليفورنيا حصل على رتبة الأستاذية في تاريخ العلوم سنة 1961م. سنة 1964م التحق بجامعة برنستون وفي سنة 1979م عمل بمعهد ماسوشيتس وبقي حتى سنة 1991م فارق الحياة سنة 1996م. ترك مجموعة مؤلفات من أهمها الثورة الكوبيرنيكية 1957م. الشد الأساسي دراسات في التقاليد العلمية والتغيير 1977م. نظرية الجسم الأسود وانقطاع الكم 1987م، نشر مجموعة مقالات البنية والطريق وكتابه الأشهر بنية الثورات العلمية ترجم إلى العربية في سلسلة عالم المعرفة الكويتية من قبل المترجم شوقي جلال وتحمل الترجمة العربية في سلسلة عالم المعرفة رقم 168.

فلسفته العامة: ينتمي للفلسفة التحليلية في نسقها العام ومجاله المعرفي الخاص هو فلسفة العلوم وتاريخ العلم له اهتمام ورؤية بحثية في المعرفة العلمية عامة ومسائل العلوم الاجتماعية وقضاياها بشكل خاص وأسلوبه وطريقته إبستيمولوجية. الفكرة التي ميزته هي البارديغم.

بنية الثورات العلمية: إن إمكانية تفسير حركية عالم المعرفة في حياة البشر يحتاج إلى فهم الأطر الاجتماعية المشكلة للثقافة العامة، هي من يتيح لنا تفسير علمي موضوعي يرصد حركة الفعل في وجوده الموضوعي الكلي المدرك إدراكا كليا وشموليا و هو يضع الفرضية التالية المعرفة العلمية ثورة في التاريخ تتحرك في اتجاه يتسارع نحو المستقبل وتسارعه ينتظم ضمن حركة مادية لا تعرف التواصل العبثي، بل هي تنتظم مع مبدأ القطيعة النافذ بحكم العقل الفاعل الذي ينظم تراكم المعارف، يجب أن نتوقف حتى نفهم دلالة لفظ حركة الأصل في اللفظ أنه فيزيائي

الحركة وهي نقيض السكون هناك الحركة المستقيمة وهي التي يتغير فيها موضع جسم مع الزمن باتجاه ثابت كحركة سيارة على طريق مستقيم، حركة دائرية وهي حركة جسم في مسار دائري كحركة سيارات السباق، هناك حركة اهتزازية وهي حركة جسم حول موضع سكونه ذهابا و إيابا كحركة النابض، هناك الحركة الدورانية وهي حركة جسم حول محور ثابت كدوران المراوح حول محور. كلها تمثل حركة العلم في التاريخ الثابت هنا هو الحركة والمتغير هو المعرفة العلمية وكيف تتشكل كبنيات في اللاوعي الجماعي. نضرب مثلا الميراث الفارسي في الحضارة العربية الإسلامية هو فكر حاقد على الثقافة العربية القديمة والحديثة ولكي يثبت وجوده له حركة في التاريخ وهي الحركة الدورانية تستمد قوتها من السفسطة والمغالطة كمغالطة الصحابة والقرابة وأيهما أفضل، المحور نثبته تثبيتا تاريخيا موقعة الجمل حرب الصفين استشهاد سيدنا الحسين في أرض العراق هذه الحركة الدورانية تحدث تراكم عظيم، تؤلف الملاحم والقصص الخرافية العجيبة وتوضع الروايات في مسار لا نهائي يحدث حالة غيبة عن الواقع، يقع الجهل والخرافة والوهم وينحاز الناس إلى الفعل الفاقد للمنطق والتفكير السليم. الحركة السليمة للحدث التاريخي هي التي تقوم على مبدأ القطيعة، هذه عند كوهن هي الثورات العلمية تستوعبها الأمم الواعية وتغيب عنها الأمم الفاقدة للوعي ظهر هذا سنة 1957م في كتابه الثورة الكوبيرنيكية لما بين الانقلاب الفكري الذي لامس العقل المسيحي وجعله يفتح آفاق العلم، لما ترك وبشكل نهائي أن الأرض هي مركز الكون وتعاقبت بعد ذلك الثورات وانتهت بالثورة الصناعية في بريطانيا والثورة الثقافية في فرنسا. العلماء في كل عصر يمتلكون مجال رؤية إدراكي موضوعي للأشياء، وهو يقتبس هذه الفكرة من علم النفس الغشتالتي وهي في الأصل مدرسة ألمانية

ترى أن بناء الصيغة الإدراكية من أول وهلة هو بناء لصيغ وبنبات فنحن ندرك اللحن الموسيقي كبنية متناسقة لا كأجزاء مفككة أي كنوتات وكذا الأمر أمام لوحة زيتية الإدراك موضوعي مستقل عن الذات كان ذلك في مستواها العقلي والحسي. الموضوع يفرض وجوده في استقلال كلي عن البواعث الذاتية هذا ينطبق ويتطابق مع بنية الثورات العلمية، ثورة كوبرنيك حدثت خارج الوعي الكلاسيكي للشعوب. في حركة الأمم تم تثبيت حقيقة وهمية أن الأرض مركز الكون وأن الماء لا يثبت على كرة هذا رسم هالة موضوعية مقررة بالعقل والتجربة السماء فوق رؤوسنا والأرض تحت أقدامنا. هكذا تكون الزاوية القائمة 90 درجة والخطآن المتوازيان لا يلتقيان مهما امتدا وهذا يفتح الأبواب أمام الميتافيزيقا لتقترح الحلول للوجود والقيم والمعاد، الثورة الحاسمة لما يقف المجتمع مع هذه القطيعة ويبني عالما جديدا. الغرابة تتحقق أن نفس البنية الثورية المؤدية للتغيير يختلف حول تفسيرها مجتمعان مجتمع يعيش تاريخه بأدق تفاصيله ومجتمع آخر يعيش غيبة الزمان والمكان ويكتفي بتراكم المعرفة، ولا يفقه منطق الحركة في التاريخ وهذا يفسر التباين بين المجتمعات القوية والضعيفة، الحتمية التاريخية واقعة لا محالة حتمية تحمل الأفكار الاجتماعية الفرد الضعيف لا يمنع نفسه من الغوص في عالم الوهم الذي يكتنف عقله وحسه على خلاف الفرد القوي. العالم الإسلامي عرف بنية ثورية وغفل عنها وذهبت مع أدراج رياح التاريخ هي ثورة الخوارزمي. الذي ساهم في بناء علوم جديدة في عصره كالرياضيات والجغرافيا وعلم الفلك ورسم الخرائط وأبدع أعظم شيء في عصره الجبر وعلم المثلثات وابتكر المناهج الجديدة في حل المعادلات الخطية والتربيعية، له كتاب المختصر في حساب الجبر والمقابلة له كتاب صورة الأرض واكتفى بتقديم بعض التصحيحات لفكر بطليموس الفلكي نظر إلى العرض

وترك الجوهر كانت طريقته في حل المعادلات التربيعية الخطية قامت على خفض المعادلة لواحدة من ست نماذج قياسية حيث b و c أرقام إيجابية صحيحة ترابيع تساوي الجذور (ax2 = bx) وترابيع تساوي عدد (ax2 = c) وجذور تساوي عدد (bx = c) وترابيع وجذور تساوي عدد (ax2 + bx = c) وترابيع وعدد تساوي جذور (ax2 + c = bx) وجذور ورقم تساوي ترابيع (bx + c = ax2) هذا النسق الرياضي يعتمد حتى الآن في برمجة الحواسيب. هذه الثورة البنيوية غابت عن الوعي الإسلامي وظهرت قوة فاعلة تحطم حضارات راسخة وتبني أمما جديدة مجهولة في قواميس التاريخ والجغرافيا والعلم العادي عند كوهن عبر العصور كان يتجه نحو فك الطلاسم والألغاز وهذا ساهم في بناء تراكمي شغل الأذهان عن الأهم وهو التطور بالتراكم للنظريات والآراء واسعة الانتشار خارج النسق العقلاني والفهم الصحيح لمسار حركة التاريخ.

البراديغم Paradigme: أصل اللفظ مستمد من اللغة اليونانية القديمة Grec Ancien π α ρ ά δ ε ι γ μ α ومن معانيها المثال والنظير والشبيه وتعني كذلك فعل أظهر وأبان وتحمل كذلك دلالة المقارنة والموازنة، هذا اللفظ نصادفه في أدبيات أفلاطون وخاصة في محاورة تيماوس كتبت 360 ق.م وهي محاورة سقراطية تبحث في أصل الوجود، في اللغة المعاصرة تعني الرؤية الشمولية للعالم وهي تعني عند علماء الاجتماع المعاصر المكون العام للخبرات والثقافات وما يعبر عنه بالميراث الاجتماعي. لغة العصر تعني رؤية الفرد لوجوده وماهيته وقدرته على إدراك العالم والتعرف إليه من حيث هو كذلك. هو الرؤية الموضوعية للأشكال في مجال تحدده الأنساق المعرفية كرؤية عالم الرياضيات المجردة للكون وتفسيره العالم تفسيرا كميا يحدد الأبعاد الكونية ويرسم العلاقات فيما بينها

رسما حسابيا، والمصطلح العلمي لكلمة براديغم يعني حساب التسارع الفيزيائي للإنسان في مضمار حلبة السباق التاريخي. الذي تتبارز فيه وتتنافس الأمم والأجيال و المعنى الفلسفي وهو المهم يتحدد بوجود أنساق معرفية تجلي الرؤية وتوضحها في مجال حركة محددة قبليا هذا التحديد يتوزع على المجموعات البشرية التي تشكل النسيج الاجتماعي للأمة الواحدة ويسجل طبيعة التفاوت العلمي والثقافي داخل المجموعة الواحدة. من باب التبسيط لو أسقطنا هذه النظرية على الثقافة الراهنة للمجتمع الإسلامي لعرفنا أنها مشكلة من أطياف بشرية متنوعة، تتغذى بمعرفة راهنة معاصرة تعطي رؤية خاصة حول الكون والحياة وتضع كل فرد في أبعاده التاريخية الجغرافية. المعرفة المتاحة الآن من ثقافة حول الكون والجغرافيا والتاريخ هي روافد تغذي النهر والنهر هنا هو البراديغم وهو الرؤية المشتركة بين الجميع، في النهاية تتشكل البنية المعرفية التي تظهر معقدة ومتداخلة كفلسفة القهر والشعور بالظلم وأن القوي قوي بعقله وقدراته الخارقة هذا شكل في النفس البشرية الإسلامية المعاصرة الهوان وهي حالة طارئة يمكن تجاوزها لو اعتمدنا مبدأ وفلسفة القطيعة مع الماضي، حتى لا يلتبس الأمر المتسابقون في مضمار السباق ينطلقون في لحظة واحدة ويصلون متباعدون في لحظات متفاوتة الذي حقق المرتبة الأولى تميز عن غيره أنه في كل جولة يمارس فعل تنقية ذاتية ويتخلى في كل مرحلة عن المثبطات ويكتفي بالمحفزات. الآخرون الذين تأخروا مشكلتهم أنهم في كل مرحلة ومضمار يتوقفوا ليجتروا ما فات وما مضى. مع العلم أن السباق قائم على الجهد والسرعة وقبل ذلك على بنية فكرية تنظر للمسافة والزمن وتحسب بالبداهة السرعة اللازمة لقطع المسافة. يتداول العاملون في حقل الإعلام الآلي لفظ براديغم ويعني تنظيف الحاسب مما يلحقه من برامج مضخمة وفيروسات متلفة وملفات

فاسدة وإعادة برمجته ليخدم شروطا جديدة مع المحافظة دائما على أساسياته من ذاكرة وبرمجة صحيحة.إن لفظ براديغم ميز فلسفة القرن العشرين وأضحى من المصطلحات الإبستيمولوجية المعاصرة وهو يعبر عن نزعة جديدة ظاهرة في التفكير العلمي وهي لا تؤمن بفلسفة التراكم العبثي بل تعتقد بوجود منهجية بحث أساسية لها قواعد هي:

1- البحث في منظومة الملاحظات العامة التي تقوم على الموضوعية والنزعة الشمولية للكون والوجود.

2- البحث عن أسئلة تحمل مقتضيات حلول فعلية وواقعية و قابلة للبحث والدراسة.

3- وضع وإبطال الأسئلة الماورائية التي تداولها الفلاسفة الكلاسيكيون طويلا.

4- الإجابة العلمية لها منطلق بحث و علم.

قراءة في كتاب بنية الثورات العلمية: يتكون هذا المؤلف من مقدمة ويشمل ثلاثة عشر فصلا جاءت مرتبة هكذا دور التاريخ ثم السبيل إلى علم قياسي ثم طبيعة العلم القياسي ثم أسبقية النماذج الإرشادية ثم الشذوذ وانبثاق الاكتشافات العلمية ثم الأزمة وانبثاق النظريات العلمية ثم الاستجابة للأزمة ثم الثورات العلمية طبيعتها وضرورتها ثم الثورات باعتبارها تحول في النظرة للعالم ثم الثورات وطابعها الخفي ثم انحلال الثورات ثم الثورة سبيل الى التقدم. هذه الفصول تلخص الموقف العام لنظرية المؤلف كوهن في مسار البنيات الفكرية في التاريخ يقول شارحا معنى العلم القياسي:"عبارة علم قياسي في هذه العبارة

تعني البحث الذي رسخ بنيانه على إنجاز أو أكثر من إنجازات الماضي العلمية وهي إنجازات يعترف مجتمع علمي محدد ولفترة زمنية بأنها تشكل الأساس لممارسته العلمية مستقبلا". يشرح المعاني الإرشادية في الفكر بقوله: "ليس معنى هذا أن النماذج الارشادية الجديدة تنتصر في النهاية من خلال حسي جمالي غيبي بل على العكس فان قليلين جدا هم الذين يهجرون التقليد لمثل هذه الأسباب وحدها وغالبا ما يكون هؤلاء الخارجين قد ضلوا السبيل". يقول عن العلماء الذين غيبوا أنفسهم عن حقائق التاريخ ومنطقه: "في صورة مغايرة وطالما أن تعاملهم مع هذا العالم لا يكون من خلال ما يرونه ويفعلونه فقد تحدونا رغبة في القول بأنه عقب حدوث ثورة علمية يجد العلماء أنفسهم يستجيبون لعالم مغاير". يتكلم عن مؤرخي العلم في تاريخنا المعاصر فيقول: "واجه بعض مؤرخي العلم في السنوات الأخيرة صعوبات أخذت تتزايد باطراد وتحول دونهم والوفاء بالمهام التي يناط بهم مفهوم التطور عن طريق التراكم واكتشفوا باعتبارهم مؤرخين للمراحل الزمنية لعملية تنمو كميا على نحو تراكمي، إن المزيد من البحث يجعل الإجابة أصعب لا أيسر على أسئلة مثل: متى أكتشف الأكسجين؟ من أول من تصور فكرة الطاقة؟ يظن البعض منهم أن هذين السؤالين ما هما إلا سؤالين من نوع الأسئلة التي نخطئ حين نطرحها". يتكلم عن ثورة العلم فيقول: "ومحصلة كل هذه الشكوك والمشكلات حدوث ثورة تتعلق بالمناهج التاريخية في دراسة العلم وإن كانت لا تزال هذه الثورة في مراحلها الأولى إذ بدأ مؤرخو العلم تدريجيا ودون أن يدركوا في الغالب ما هم بصدده يسألون أسئلة من نوع جديد، كما شرعوا في تتبع تطور العلم عبر مسارات مختلفة وهي غالبا مسارات أقل ما توصف به

أنها تراكمية". ويظهر مدى التباين بين المدارس العاملة في حقل البحث العلمي ورؤيتها الفلسفية يقول "إن ما يميز بين هذه المدارس المختلفة ليس خطأ هذا المنهج أو ذاك -فجميعها علمية- بل يميز بينها ما سوف نسميه فيما بعد بطرائقها غير القياسية في النظر إلى العالم وممارسة العلم فيه، يمكن للملاحظة والخبرة بل ويجب عليهما أن يقيدا وبشدة تطابق المعتقدات العلمية المسموح بها وإلا فلن يكون ثمة علم. ولكن ليس بإمكانهما وحدهما أن يحددا مجموعة خاصة من هذه المعتقدات. إذ من الواضح أن ثمة عنصر تحكمي ناجم عن عوارض شخصية وتاريخية، ويعتبر دائما وأبدا أحد المقومات التكوينية للمعتقدات التي تؤمن بها جماعة علمية محددة في زمن بذاته". أما تغير الرؤية في التاريخ يعبر عنها بقوله: "لماذا حدث هذا التحول في الرؤية السبب هو بطبيعة الحال عبقرية غاليلي كفرد. ولكن لنلاحظ أن العبقرية لا تتجلى هنا في صورة ملاحظة أكثر دقة أو موضوعية لجسم متدحرج إذ يمكن القول من الناحية الوصفية أن الإدراك الأرسطي دقيق بنفس الدرجة، وعندما أفاد غاليلي بأن مدة ذبذبة البندول مستقلة عن سعة الذبذبة بالنسبة للسعات التي تبلغ 90 فإن نظرته إلى البندول قادته إلى حيث رأى انتظاما أكثر مما نستطيع الآن أن نكتشفه هناك". وخلاصة القول في بنية الثورات العلمية قوله: "ولكن سبق أن تبين لنا أن إقرار نموذج إرشادي من شأنه أن يهيئ لجماعة البحث العلمي من بين جملة أمور أخرى معيارا لاختيار المشكلات التي يمكن افتراض وجود حل لها طالما ظل النموذج الإرشادي أمرا مسلم به".

يقول الفيلسوف الألماني كانط في كتابه تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق: "ولكن الكائن العاقل ينتمي بصفته عضوا إلى مملكة الغايات، وما دام يزودها بقوانين كلية فليس يخضع هو نفسه أدنى خضوع لهذه القوانين، فهو ينتمي إليها بصفته رئيسا ذلك لأنه إذ يزدها بالقوانين، فهو لا يخضع لأية إرادة غريبة عنه. ينبغي للكائن العاقل أن يعتبر نفسه على الدوام كمشرع في مملكة الغايات ممكنة بفضل حرية الإرادة، سواء أكان ذلك عضوا فيها أم رئيسا. ولكنه لا يمكن أن يطالب بمكان الرئيس بالقواعد الذاتية لإرادته هو لا يمكنه أن يطالب بهذا المكان إلا إذا كان كائنا مستقلا تماما دون ما حاجات، وبسلطة تلاؤم إرادته دون ما قيد يقيدها. الأخلاقية تتألف في علاقة كل فعل بالتشريع الذي يجعل وحده مملكة الغايات ممكنة. وهذا التشريع ينبغي أن يوجد في كل كائن عاقل، وينبغي أن يكون في مستطاعه أن يصدر عن إرادته، وإليك المبدأ: لا تنجز فعلا إلا طبقا لقاعدة يمكن أن تتحول إلى قانون كلي، وهو أن يكون في وسع الإرادة أن تعتبر ذاتها، مشرعة في عين الوقت بفضل قاعدتها، تشريعا كليا. والآن إذا لم تكن القواعد بطبيعتها موافقة بالضرورة لهذا المبدأ الموضوعي للكائنات العاقلة، معتبرة منشئة لتشريع كلي، فإن ضرورة العمل تبعا لهذا المبدأ تسمى قسرا عمليا، أعني واجبا وفي مملكة الغايات، لا يتوجه الواجب إلى الرئيس بل كل عضو من الأعضاء، إلى الجميع على الحقيقة بكيل واحد". ويقول كذلك في نفس الكتاب: "من بين الأمور التي يمكن تصورها في هذا العالم، أو خارجه لا يوجد شيء يمكن عده خيرا على وجه الإطلاق ودون قيد، اللهم إلا شيء واحد هو: الإرادة الخيرة نجد أن الفهم والذكاء، وملكة الحكم وما سواها من مواهب العقل، أيا كان الاسم الذي تتسمى به أو الشجاعة والتصميم والإصرار على الهدف بوصفها من خصائص المزاج وهي كلها بلا ريب

خصائص خيرة خليقة بأن يطمح إليها الإنسان". كانط تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق ص 17 الفلسفة من حيث مشاكلها تتناول الوجود والله والنفس والعالم وهي تضع الحلول لهذه المسائل على أسس منطقية نجـد أن الـدارس للشـريعة الإسـلامية سيكتشف أن مقاصد الشريعة تتجنب الجدل الفلسفي العقيم، سئل الإمام مالـك عن قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ 5 سورة طـه، فأجاب: "الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعـه". إلا أن المسلمين قد خاضوا في المسائل الكلامية، و حتى نفهم القصد من المسائل الكلامية نضرب مثلا بسيطا من الحياة العادية للمسلمين بين صلاتي المغرب والعشاء، اعتـاد إمام مسجد إلقاء الموعظة والدرس، فكلم الحاضرين عن فضائل الأعمال، فذكرهم بالخير والشر في حياة المؤمنين فقال احد الحاضرين وكان كفيفا: لقد عشت و مـا زلت كفيفا هل أنا في خير أم في شر؟ فأجابه: إذا رضيت واحتسـبت وصـبرت فأنت في خير عظيم. فقال السائل: الحمد لله رضيت واحتسبت، ثم نظر الإمام إلى الحاضرين وقال: إن الخير والشر من عند الله إننا لا نفقـه كـثيرا مـن حكمـة وجودهما، وإن هذه المسائل لا يخوض فيها عامة الناس ونحن منهم، إنما تترك لأهل العلم العالمين بكتاب الله وسنة رسوله وتجنب الجدل العقيم الذي لا ينفع المؤمن في دنياه وآخرته. الجدل العقيم كان سببا في نشأة ما يعرف بالفرق الكلامية، وهـي حالة عامة في كل الثقافات الدينية كان ذلك في اللاهوت اليهودي والمسيحي، بل في كل الملل والنحل بما في ذلك الملة الإسلامية ونكتفي من زاوية فلسفية نقدية أن نضرب مثلين متناقصين الأول هو الاعتزال وكيف استمد بنيته الفكرية من الفلسفة اليونانية والثاني هم الأشاعرة وكيف مثلوا العقل الإسلامي الذي حاول أن يقـف ضد هذا التسلل الفيروسي الثقافي الذي هدد ومازال البناء الفكري والمنطقي للعقل

المسلم، أدوات الرد لم تكن ومازالت مفقودة وتم السقوط في شركهم فقام المسلمون بنقض أفكارهم بداية وهذا خطأ ويفترض نقض مناهجهم أولا ثم فكرهم ثانيا. العقل الوحيد الذي أدرك هذه الحقيقة هو الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه لأنه في محنة القرآن لم يكفر المعتزلة لأنهم قالوا بخلق القرآن بل كفرهم لأن منهجهم أصلا لا يستقيم مع روح الإسلام ومناهجه التي تعارف عليها المسلمون ومازالوا. خاض المتكلمون في مصدر القيمة الأخلاقية ومنشأها وأصلها واتفقوا على أن مصدرها هو الله تبارك وتعالى، اختلفوا في المنهج والتفسير. ظهرت آراء متفقة مع منهج الوحي والرسالة كما نجد عند الأشاعرة والماتريدية وآراء متفقة مع البنيات الفكرية اليونانية كما هو حاصل مع المعتزلة والشيعة والفرق المتجادلة بمنطق أرسطو وفلسفة أفلاطون وآراء أبيقور في اللذة والمنفعة.

المعتزلة: فرقة كلامية ظهرت في بداية القرن الثاني الهجري واعتمدت على العقلانية اليونانية في تأسيس عقائده، هذه الفرقة تقول بأنّ العقل والفطرة السليمة قادران على تمييز الحلال من الحرام دون جهد، هذا مستمد من النظرية الأفلاطونية في المثل. القول مناقض لمنطق الحياة والعارف بأحوال البشر يدرك كيف تطغى عليهم النوازع الحيوانية وتسقطهم في الشرور، من حكمة الله تبارك وتعالى أن أرسل للعالمين الرسل والأنبياء، اختلفوا في اسباب تسميتهم بالمعتزلة وادعى البعض أن مرد التسمية هو اعتزالهم الفتنة بين سيدنا علي كرم الله وجهه وسيدنا معاوية رضي الله عنه وهذا مجرد تلبيس. لأن هذا الفكر أوجد نفسه ليفرق ويدخل الناس في السفسطات التي تعلموها و أتقنوها من الفكر اليوناني، الأصل أن واصل بن عطاء اختلف مع شيخه الحسن البصري رضي الله عنه في مرتكب الكبيرة وكيف

أن واصل قال ببدعة المترلة بين المترلتين، هناك من يدعي ان المعتزلة كانت دعـوتهم ومازالت إلى التوحيد والعدل وهذا يفسر تعاطف الناس معهم في زمن كثـر فيـه القول بالتشبيه والتجسيم للذات الإلهية وهذا صحيح من أوجه متعددة، المسـلمون بعد وفاة نبيهم وخلافتهم الراشدة وقعوا في مكائد الخصوم والأعداء، لما سـلموا بقواعد الجدل الأرسطي وجادلوا عن عقيدتهم بمناهج خصـومهم ومـن يقبـل المقدمات يرضى بالنتائج مرغما، أكرر أن العقل الوحيد الذي أدرك هذه الحقيقـة هو الإمام أحمد بن حنبل في محنة خلق القرآن لما كفر خصومه ليس لأنهم قالوا بخلق القرآن بل كفرهم لمنهجهم، لأنه أدرك أنه مجرد سفسطة وأدرك ذلك بما يمتلك من قوة العلم الشرعي لا بمعرفته بخبايا الفكر الفلسفي وإن كانت معرفته ملمة وليست تخصصية بمعنى التخصص العلمي المنهجي. سفسطتهم تظهر واضـحة في قـولهم: "الفاسق من المسلمين بالمترلة بين المترلتين لا مؤمن ولا كافر". قالوا: "العبد قـادر خالق لأفعاله خيرها وشرها مستحق على ما يفعل ثواباً وعقاباً في الدار الآخـرة". أحدثوا بدعة المترلة بين المترلتين وهي في الفلسفة مناقضة ومفارقة أصولها يونانيـة مستلهمة من الفكر السفسطائي، هي فلسفة رديئة عبّر عنه فلاسفة يونـان منـهم جورجياس وبروتاغوراس وغيرهم وهذه السفسطة الكلامية بدأ بها واصـل بـن عطاء بدعته قال الإمام الذهبي في ترجمته في السير: "البليغ الأفـوه أبـو حذيفـة المخزومي مولاهم البصري الغزال. مولده سنة ثمانين بالمدينة، طرده الحسـن عـن مجلسه لما قال الفاسق لا مؤمن ولا كافر فانضم إليه عمرو واعتزلا حلقـة الحسـن فسموا المعتزلة". شاعت في العهد العباسي وخاصة في أيام المأمون لقـد اعتمـدت على العقل المجرد في فهم العقيدة، لتأثرها الشديد بالفلسفات الوافدة علـى الأمـة كاليونانية والفارسية، ويسمون أنفسهم أهل العدل والتوحيد وزعموا بأنهم ناصروا

الإمام علي -كرم الله وجهه- ثم اختلفوا مع الحسن -رضي الله عنه- لمـا عقـد الصلح مع معاوية -رضي الله عنه- واستدلوا بقولـه تعـالى: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾48سورة مريم، وهناك وجوه أخرى للتسمية وكانت نهايتهم لما استطاع الإمام أحمد بن حنبـل أن يدحض حجتهم و ينقض بدعتهم. ونظريتهم مستمدة من نظرية أفلاطون الـذي يعتقد بأن الإنسان يولد مزودا بالأفكار الفطرية التي يميز بها بين المتناقضات ولذلك قالوا مقالتهم الشهيرة: "العبد خالق لفعله خيره وشره مستحق على ما يفعل الثواب والعقاب". لم أجد في نظريتهم لا إبداعا ولا تجديدا، إنما هو مجـرد نقـل للفكـر اليوناني وإلباسه ثوبا إسلاميا. أما رؤيتهم الأخلاقية فقد اعتقـدوا أن الله حكـيم والحكيم يهدف إلى تحقيق الخير لنفسه ولغيره، لما كان الله مترها عن الانتفاع لنفسه باعتباره كاملا لذلك كانت أفعال الله ترمي لخير عباده، فعدل الله يستلزم أن تكون أفعاله تهدف إلى الخير، فإذا كان الله يفعل الخير فهو لا يريد الشر. الله هو المطلـق فلا يصدر عنه إلا الخير المطلق، وحتى نفهم مذهبهم نضرب هذه الأمثلـة: هنـاك الكثير من الشرور في هذا العالم وفاة رب الأسرة و الأعاصير المـدمرة والـزلازل القاتلة وكذلك البراكين وما تحدثه من خراب فأجاب المعتزلة: هذه الأفعال طبيعية وليست أخلاقية والمشكلة أننا لا نفهم دائما الحكمة من وجودها فـالموت عـدل والزلازل حركة طبيعية تعيد للأرض ثباتها واستقرارها.

الأشاعرة: فرقة إسلامية تنسب لأبي الحسن الأشعري -رضي الله عنه- ولد بالبصرة سنة 270 هـ، هو من ذرية الصحابي الجليل أبي موسى الأشعري، وقال بمقالته أئمة كالقاضي الباقلاني، وأبو إسحاق الشيرازي وأبو حامد الغزالي. بداية

انتقد أبي الحسن الأشعري المعتزلة وبين خطأهم وأظهر بدعتهم، الأشاعرة مذهب انتشر في العالم الإسلامي لأنه عبر عن موقف أهل السنة والجماعة، انتشر في المغرب العربي بفضل دعوة المهدي بن تومرت أيام دولة الموحدين وانتشر في المشرق بفضل دعوة صلاح الدين الأيوبي الذي قضى على الدولة الفاطمية التي ساهمت وبشكل كبير في نشر البدع والضلالات، هناك فصل تام بين المعتزلة و الفرق الكلامية من جهة و بين الأشاعرة والماتريدية الذين عبروا عن القيمة الأخلاقية بمقتضى الشريعة ومقاصدها وعبّر عن هذا الفصل الشريف الجرجاني قال: "ليست الأشاعرة والمعتزلة على وفاق في أن المشرع للأحكام هو الله تعالى، بل الأحكام ثابتة للأفعال في أنفسها عند المعتزلة والشارع يأتي مقررا لما أدركه العقل من تلك الأحكام، وكاشفا عما خفى على العقل إدراكه.فالأفعال إما حسنة في أنفسها، يستحق فاعلها مدحا وثوابا، أو قبيحة في أنفسها يستحق فاعلها ذما وعقابا.فوجوب الفعل بمعنى استحقاق فاعله للمدح والثواب صفة لازمة للفعل. وقالت الأشاعرة: المشرع للأحكام هو الله تعالى، فليس هناك حكم ثابت للفعل في نفسه، بل الذي يحكم بالوجوب أو الحرمة ونحوهما هو الشارع، فمن قال: إن العقل يحكم بوجوب الفعل أو حرمته عند المعتزلة فقد أخطأ ذلك أن العقل لا يحكم بوجوب ولا حرمة، بل الأحكام ثابتة في نفس الأمر. الأشاعرة نفوا أن يكون بهذا المعنى عقليا، بمعنى أن العقل يدرك كون الفعل حسنا أو قبيحا، لأن الأفعال كلها سواسية ليس شيء منها في نفسه بحيث يقتضي مدح فاعله وثوابه، ولا ذمه وعقابه وإنما صارت أفعال المكلفين يتعلق بها المدح والثواب، أو الذم والعقاب، بوساطة أمر الشارع ونهيه؛ فما أمر به كان حسنا بمعنى: أن فاعله يمدح ويثاب على فعله، وما نهى عنه كان قبيحا بمعنى: أن فاعله يذم ويعاقب على فعله و لو عكس الشارع الأمر فحسن ما قبحه

وقبح ما حسنه كان ذلك جائزا فالحسن والقبح على هذا شرعيان لا عقليان". هكذا تكون نظرية الأشاعرة قد واجهت بداية الفكر الاعتزالي وانتقدته لأنه خالف منهج السلف الصالح وأرادوا سد هذه الباب فوضعوا نظرية في القيمة الأخلاقية تتفق مع منهج الأمة ورسالتها، سلموا بأن الله قادر على فعل الخير والشر معا ولذلك لا يصح القول أنه يفعل الخير فقط لأن ذلك حد لقدرته، فهو يجازي المؤمن ويعاقب الكافر واعتبروا أن الإنسان لو أدرك الخير والشر بعقله، فإنه لا يلزم بفعل الخير وتجنب الشر، إلا إذا أمره الله بذلك فهو ملزم بما جاءت به الشريعة لا بما جاء به عقله ثم جاء الباقلاني وعدل هذا القول وقال: "إن كل ما يحدث في هذا العالم من خير وشر راجع إلى قدرة الله بوجه عام أما من وجه التخصيص فهو أي الفعل كفعل السرقة والكذب والقتل، فيرجع إلى قدرة العبد وحريته" المقال الجامع المانع ما جاء على لسان سيدنا أبي الحسن الأشعري في كتابه الإبانة: "قولنا الذي نقول به وديانتنا التي ندين بها التمسك بكتاب ربنا عز و جل وبسنة نبينا صلى الله عليه وسلم وما روى عن السادة الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ونحن بذلك معتصمون، وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل نضر الله وجهه ورفع درجته، وأجزل مثوبته قائلون، ولمن خالف قوله مخالفون لأنه الإمام الفاضل والرئيس الكامل الذي أبان الله به الحق ودفع به الضلال، وأوضح به المنهاج وقمع به بدع المبتدعين وزيغ الزائغين وشك الشاكين فرحمة الله عليه من إمام مقدم وجليل معظم وكبير مفهم. وجملة قولنا: أنا نقر بالله وملائكته وكتبه ورسله وبما جاءوا به من عند الله، وما رواه الثقات عن رسول الله صلى الله عليه و سلم لا نرد من ذلك شيئا، وأن الله عز و جل إله واحد لا إله إلا هو فرد صمد لم يتخذ

صاحبة ولا ولدا وأن محمدا عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق وأن الجنة والنار حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور". والله أعلم.

الماتريدية: تنسب إلى أبي منصور الماتريدي منهجهم يتفق مع مناهج السلف الصالح ومع ذلك استخدمت الأدلة العقلية في الرد على الخصوم وخاصة المعتزلة والجهمية لإثبات حقائق الاعتقاد السليم و هي لا تتميز عن الأشاعرة إلا في مسائل بسيطة لا تكاد تذكر، ويكفيها فخرا أن السلطان محمد الفاتح كان على منهجها مؤسسها أبو منصور الماتريدي توفي 333 هـ وقف موقفا وسطا وهو لا يختلف عن الأشاعرة ومنهجه شرعي موافق للكتاب والسنة، وإن وقع الخطأ فيرد للرؤية والاجتهاد والرد على المخالفين لا يكون في الرد على مقالاتهم و أقوالهم بل الرد يكون على منهجهم وهذا منهج الإمام أحمد بن حنبل في رده على المعتزلة، فهو نقض بدعتهم لما كفر وهو إمام معتد في علمه ومنهجه المعتزلة في القول بخلق القرآن ومن النافع والمجدي أن ننظر في منهجه ونعيد بعثه والدليل التاريخي أنه أنهى بدعة المعتزلة للأبد.

الفلسفة السفسطائية ونظرية الشك والمغالطة: Sophiste فلاسفة اليونان أتقنوا الجدل العقيم وفن المغالطة واعتبروا أن الإنسان مقياس لكل شيء وأن الفضيلة وهم واختراع و أن الخير ما حقق لذة ومنفعة والشر ما حال دون ذلك. إن الدارس للفكر اليوناني يجد مدرستين متناقضتين الأولى صورتها العقلانية ويمثلها حكماء اليونان كسقراط وأفلاطون وأرسطو ومدرسة مادية خالصة تؤمن بالمادة كهدف وغاية ويمثلها التفكير السفسطائي، هذا في الأخلاق والمباحث الفلسفية الأخرى. سئل أفلاطون عن الفكر المادي عامة وعن الفكر السفسطائي خاصة

فأجاب: "إنها فلسفة أساءت للإنسان". لأن السفسطائية اكتفت بما هو موضوعي في عالم الأشياء والواقع شاعت هذه الفلسفة قبل سقراط وأفلاطون وهي في الأصل لفظ يوناني Sophisme. وتفهم في اللغة العربية بلفظ مغالطة كأن يقول أحدنا هذا طعام أشتهيه فأنا أحبه ويقول الآخر هذا الطعام أمقته فأنا أكرهه، فتكون النتيجة أن الحب والكره هنا نسبيان وهذا يتناقض مع مسلمات العقل وقواعد المنطق، ولتبرير هذه المغالطات قال السفسطائيون: "إن الإنسان مقياس الأشياء كلها". الخير والشر صناعة بشرية يحكم عليها الإنسان بنفسه بائع الخمر والتمر سيان كل واحد حكم على فعله بمقتضى تصوره لفكرة الخير والشر، بائع الخمر اليوم وغدا يبيع تمرا، هكذا تتكون سلسلة لا منتهية من الأفعال المتغيرة والمتبدلة والأخطر في هذه الرؤية أن يكون الإنسان هو الحاكم على الأشياء دون سند من وحي أو عقل. الثقافات الدخيلة على الأمة الاسلامية وظفوا فلسفة الشك أحسن توظيف ونجحوا وأسقطوا المسلمين في فلسفة الشك والمغالطة، الغريب أن المسلمين لم ينقضوا منهج عدوهم بل أخذوا في الرد على أفكارهم فكانت فرصة هؤلاء في نشر شبهتهم وبث فلسفتهم في العقول، القصد هنا هو نشر الشك الوجودي الذي يدفع إلى الحيرة ولنضرب لذلك مثلا لو افترضنا أن شخصا في مجلس وتكلم الحاضرون عن والده وبين الحاضرين جالس يظهر عليه الوقار وأشار ملمحا أن هذا الشخص لا يمكن أي يكون فلانا والده. ثم استرجع نفسه وادعى بأنه كان مازحا في غير موضع المزح، من حضر المجلس يراوده الشك وتخالجه الريبة وإن أقنع نفسه أن فلانا والده شخصا معروفا باسمه وكنيته، هذا هو الفيروس الذي يفتح ملفات الشخص ويجعله قابلا لكل شك لو سمع من حضر المجلس الأول شخصا يمازح نفس الشخص في مجلس آخر وفي موضع مزح صدقه، وإن لن يظهر ما في نفسه،

النفاق العملي هو زرع بذور الشك في العقول ومن مرد على النفاق العملي يشكك في القرآن والحديث وعدالة الصحابة ويضع المفارقات كمفارقة الصحابة والقرابة. المسلمون فلسفتهم كانت ومازالت هي الرد على المقولات، والأصل أن نشر فلسفة الشك والمغالطة ليس من أهدافها تحقيق غاية معينة كجعل الإمامة في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يدعي الرافضة، فهم يعرفون أن هذا الأمر لا يستقيم لا تاريخيا ولا منطقيا. لأن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يبعث ملكا إنما بعث رسولا ورحمة للعالمين، غايتهم بث الشك في القلوب وخاصة عند العامة ومع من لا يمتلك أدوات ومناهج كشف هذا الفكر القائم دوما على الشك. الثابت تاريخيا أن المسلمين عرفوا السفسطائية عن طريق أفلاطون وأرسطو وكلاهما تأثرا بمناهجهما، أفلاطون فصل بين العالمين العلوي ويحمل صفة الكمال كما يزعم والسفلي يحمل صفة الظلال ويتسم بالتناقض والتناقض هنا من معانيه السفسطة كما بين ذلك في أسطورته المعروفة بأسطورة الكهف أما أرسطو فقد سلم بأن المنطق الصوري يعصم الإنسان من الوقوع في الخطأ وهذه مغالطة لأن الغلط نفسه يصدر من العقل نفسه والعقل لا يتفق مع نفسه دائما بحكم التجربة الإنسانية. في فكر السفسطة والمغالطة هناك اقتران بين السياسة والأخلاق بداية فرق السفسطائيون بين الطبيعة والقانون يعتقد هيبياس وهو أحد منظريهم أن الطبيعة هي الفطرة وهي الخير الأعظم أما القوانين والشرائع فهي قيود تكبل حرية و اختيار الناس، التخلص من هذه القيود حتمية لازمة وأن القوانين في جملتها هي صناعة الضعفاء وهذا رأي في فلسفتهم قوي، يرى كلكس Calliclès وترازيماخوس Thrasymachus أن وضع القوانين غايتها وقف نشاط الأقوياء والقوي هنا الموافق في فعله وعمله للمطالب الطبيعية وهي إشباع حاجاته الغريزية. للخروج من

هذه الأزمة يقترح السفسطائيون الإطاحة بالدولة، والخروج عليها الدولة هنا هي الشر والطبيعة هي الخير. إن السير وفق الطبيعة هو العدل وكذلك النجاح والطبيعة هي المشرعة للأفراد، أما القوانين المعمول بها فيجب الإطاحة بها يحكم العلاقات بين البشر هي الحروب والتزاعات. هنا تكون القوة هي المصدر الوحيد الذي تنتظم به الأفعال والمواقف والنتيجة أن الإنسان هو الموضوع والمعيار وهو الحاكم على الأشياء وهو المتفلسف في وجوده وخالقه ومصيره، ولا تحده قوة ولا يقف دونه مانع و الإنسان مقياس الأشياء وهو الحاكم على خيره وشره، هذه معرفته وهذه أخلاقه. قد يشكل على الباحث في الفكر الإسلامي فهم التناقضات التي يواجهها فيجب أن يكون عمله كعمل الطبيب الباحث عن تشخيص العلة فيطلب من المريض القيام بتحليلات مجهريه حتى يتبين طبيعة الميكروب أو الفيروس المتسلل إلى الجسم أو يساعده في اكتشاف الاختلال في العضوية وقصورها في القيام بوظائفها الحيوية. لذلك من أراد أن يكشف عن هذا الاختلال الفكري في الجسد العربي الإسلامي كان ذلك في المسائل الكلامية أو نشأة الفرق الكلامية نفسها عليه أن يضع العينة الفكرية تحت مجهر الكشف الإلكتروني وسيجد العوالق من الفلسفات السفسطائية والأبيقورية والرواقية والأفلاطونية والأرسطية والهندية والفارسية المجوسية ثم يقوم بعزل الجسم المصاب في غرفة العزل ويشرع في تحليلات العينات من أجسام حية أو جثث محنطة ثم يصنع لها المضادات الحيوية ويرغم العاملين في حقلها على أخذ جرعات قبل الشروع في دراستها.

الأخلاق ومطلق العقل: البحث في كمال الفعل الأخلاقي بداية جاء مع أفلاطون 347 -428 ق.م فيلسوف يوناني كانت مسلماته الفلسفية بداية وتمهيدا

للفكر الإنساني اعتمد منهجا جدليا وحاول أن يضبط ويحدد ماهية الحق والجمـــال والخير تتلمذ على سقراط وتأثر بعقلانيته وقوة حجته على خصومه، خاصـــة مـــن أخذ بالمنهج السفسطائي، كان يميز بين وجود محسوس واعتبره عالما سفســطائيا كله مغالطة وخداع لأننا ننخدع بفعل الحواس ووجود خالص هو عـــالم الماهيـــة والحقيقة وهو ذلك المجال الذي يسعى فيه الفيلسوف بعقلـــه فيتأمـــل ويتـــدبر في الموجودات، إن فلسفته هي المطلق الذي يسعى دومـــا لتحقيـــق صـــورة المثـــال والكمال. أثرت فلسفته في التيار العقلاني بعده وتأثيرها الســـلبي كـــان في نشـــأة اللاهوت المسيحي وظهور فلسفة الرهبنة وقبله أثر في الفكر اليهودي وخاصـــة في صوفيته وكان الأمر كذلك في نشأة التصوف الإسلامي الفلسفي وانحرافـــه عـــن نظرية الزهد وظهور الفلسفات الباطنية ونظريات الاتحاد ونظرية وحدة الوجـــود وغيرها من الفلسفات المنحرفة عن منهج الكتاب والسنة. بداية رد أفلاطون علـــى مغالطة السفسطائيين أن الإنسان مقياس كل شيء بقوله: "أن الإله مقياس الأشياء كلها وليس الإنسان". يعتقد أن البشر عاجزون عن إنشاء القـــيم الأخلاقيـــة لأن وجودها سابق عليهم وهي توصف بالكلية والثبات وبين ذلك بأسطورة الـــنفس وكيف أنها عرفت عالم المثل ثم نزلت إلى العالم المحسوس وهو عالم وهمي تصـــنعه حواسنا فهو يقول: "العلم تذكر والجهل نسيان". ونظريته الأخلاقية لا تنفصل عن نظريته في المثل وإن تجاوز أستاذه سقراط قليلا، الخير عنده أسمى وأعلى لأنه متعلق بعالم المثل وهو مصدر الوجود والكمال و أن النفس البشرية قد عرفـــت الكمـــال والمطلق ثم نزلت لعالم المفارقات والتناقضات، يعتقد أن الفعل الخلقـــي يتضـــمن جزاؤه في خفاياه وأن الإنسان له القدرة على تمييز الخير من الشر دون الرجوع إلى قوة مفارقة وهذا أثر في نشأة الفكر الاعتزالي والمدارس العقلانية الإسلامية.

الفلسفة الكانطية وتأسيس ميتافيزيقا الأخلاق: أخلاق الواجب تمثل عمق الفكر الأوروبي المغيب عن الواقع والحياة الغربية المعاصرة لأنها أولا تناقض مقولات الحداثة القائمة على التحرر من القيم، ثانيا أنها غامضة وملتبسة وقبل أن نشرع في بيانها نستعين على فهمها بمثال بسيط من الحياة اليومية كيف أن ترك فعل الواجب يكون من نتائجه الكوارث والزلازل الأخلاقية. أن أعقد النظريات الفلسفية تفسرها الأمثلة البسيطة واخترت مثالا من شريط ورقي يعرض للأطفال يجعل فهم النظرية أمرا سهلا وميسورا: "جريمة بشعة تقع في مستشفى تخصصي فاخر، والضحية طبيب له مكانة ومترلة مشهودة يستطيع المحقق الصغير أن يفتح ملابسات القضية، ويفضح المجرم أمام الجميع والدهشة والحيرة تأتي على الحاضرين فتذهلهم وكان السؤال الذي يتردد بين الجميع هو: كيف يقتل الصديق صديقه؟ في لحظة ضعف قاهرة ينهار المجرم ويشرع في الاعتراف: كنا صغارا متحابين ومتآلفين نتقاسم أحلام النجاح وكانت الأمنية الطب كمهنة وتخصص يحضا صاحبها بالاحترام والتوقير، وجاء الامتحان العام النهائي ووقعت الواقعة، لقد أخفقت في الامتحانات الأولى وأعلمت صديق العمر بذلك، وأعلمته بما سولت لي نفسي، سأستعين بمدرس بائع لضميره وشرفه وكان الغش مخرجا وملاذا ونجحت وتذوقت طعم الخطيئة والجريمة لأول مرة وانتهت الدراسة وعملنا في هذا المستشفى، وتوالت الأيام وتعاقبت ويتقاعد المدير ولسد الفراغ تم وتقرر أن أشغل هذا المنصب، هذا أوقع الغضب في قلب الصديق وفي لحظة غضب صرخ أمامي وذكرني بما نسيت، ولأنني طبيب لم أجد صعوبة في كتم أنفاسه وللأبد. قال المحقق الصغير: يفترض أنك طبيب ترفع عن البشر العذابات والآلام ولا تقتلهم. قال المجرم: إن الذي ارتكب الجريمة الأولى لا يعبأ بالثانية. ثم ينهار ويصاب بحالة هستيريا ويصرخ:

الذنب ذنبه و هو يحمل ويجر من قبل الشرطة يكثر الهمس ويتساءل الحاضرون عن المجرم: هل هو القاتل؟ أم المقتول؟ أم أن المجرم هو ذلك المدرس الذي باع ضميره وشرفه؟" الفعل الأخلاقي يقتضي تحقيق الواجب في السلوك وإلا تحولت حياة الإنسان إلى شر ممتد، في أعماق النفس تعجز القوانين الرادعة عن وقفه. لذلك شيد كانط صرح أخلاق الواجب في الفلسفة الحديثة وقضى حياته بين ميلاده ووفاته 1724-1804م مشتغلا بقضايا الفلسفة وهو ألماني ومن أهم مؤلفاته نقد العقل الخالص ونقد العقل العملي و أسس ميتافيزيقا الأخلاق، وبعد وفاته نقش تلامذته على جدار بيته هذه العبارة: "السماء مرصعة بالنجوم من فوقي القانون الأخلاقي في أعماق نفسي". لتبسيط نظريته نطرحها كإشكاليات فلسفة مرتبة ومنظمة. ما هو موضوع الأخلاق؟ موضوع الأخلاق هو ما يجب أن يكون عليه السلوك والقاعدة تقول: "تستطيع، يجب عليك. إذا كان لابد أن تحقق في نفسك الصدق والكذب افعل بمقتضى الواجب وكن صادقا". مع العلم أن هذه القدرة على التمييز لا يمكن تحصيلها بالعلم لأن مجاله الظواهر، وكذلك الفلسفة لأنها تختص بدراسة القضايا الماورائية المفارقة للحس، فالصدق لا يمكن فهمه كما تفهم معادلة كيميائية في سلسلة عناصرها الأولى، وكذلك لا ندركه كما ندرك مسألة العالم والوجود، وهكذا نكتشف أن مجال الفعل الأخلاقي الذي يعمل بمقتضى الواجب هو العقل نفسه، وبالتحليل والتأمل سنكتشف أن العقل الإنساني يقوم بوظيفتين، الأولى نظرية ومجالها العلم كالنظر في المسائل العلمية باختلافها وتنوعها أما الثانية فهي عملية، القصد هنا هو الضمير الأخلاقي، عند كانط العقل النظري أحدد به المسافات والنسب مثلا، وبالعملي أقرا بأن الأمانة أمانة والخيانة خيانة الضمير صدى الاستحسان و الاستهجان في النفس فأين هو دليله؟ إن دليله وصدقه موجود

بوجود الإرادة الخيرة أو الطيبة هي التي تثبت إنسانية الإنسان، وهي فقط التي توصف بصفة الخير المطلق، لأن السوء والشر يعرض للفرد من خارج، يولد الطفل على الفطرة البيضاء الخالصة من كل الشوائب إذا كانت الإرادة الإنسانية هي الخير المطلق فكيف نفسر فعل الشر في حياة الأفراد؟ يميز بين نوعين من الأوامر الأول الأوامر الشرطية وهي المقدمة الملازمة لاقتراف الآثام وعبر عنها كانط بقوله: "إن استهدفت شيئا معينا فتوسل إليه بشيء معين". لو اقترضنا مثلا وجود أب يعول عائلة إلا أنه يعيش الفاقة والاحتياج، قد يتوسل بفعل لا أخلاقي وهو الرشوة فيحقق غايته ويجد لنفسه عملا، مهما كانت النتائج المحققة إيجابية يبقى أن الفعل قد فقد يقينه الأخلاقي، لو ان تلميذا ضعيف النفس استعان بالغش، سيصل إلى غاياته المادية حتما ويفقد معها الشعور بالعزة والشرف، ويتساوى في فعله مع المجرمين والمنحرفين الثاني فهي الأوامر القطعية هو ذلك الفعل القبلي غير المستمد من التجربة الحسية وهو يجعل سلوك الإرادة يتصف بالعقلانية والالتزام، إن المرتشي والمختلس مثلا قد يبني قصرا في عالم الحس والمادة ويفقد معه معنى الشرف والعزة والرضا عن النفس إذا كان الأمر القطعي هو المقدمة للفعل الأخلاقي كيف نثبت صدقه؟ يضع كانط مجموعة من المسلمات تعين المرء على إدراك غاية الفعل وقطيعته الأولى: "لا تفعل الفعل إلا بما يتفق مع المسلمة التي تمكنك في نفس الوقت من أن تريد لها أن تصبح قانونا عاما". الثانية: "افعل كما لو كان على مسلمة فعلك أن ترفع عن طريق إرادتك إلى قانون طبيعي عام". الثالثة: "افعل الفعل بحيث أن إرادتك تستطيع أن تعتبر نفسها هي المشرعة للقانون العام الذي تخضع له". إذا تحقق الفعل الأخلاقي في صورة الواجب هل يعني ذلك الرجوع إلى الفلسفة من جديد؟ نعم ويتحقق ذلك بمسلمة الحرية عرف الجرجاني المسلمة بقوله: "قضايا

تسلم من الخصم ويبنى عليها الكلام" بمعنى أننا نسلم بقضية عامة ومنها الحرية ونفترض صدقها دون وجود ذلك البرهان العقلي أو الحسي على وجودها حقيقة، فهي في الفلسفة الكانطية صورة معقولة متعالية وخير مثال أن المختلس أو قابض الرشا قد يجمع الثروات ويمتلك العقارات ويبقى ماله في كل الأحوال مال سحت وحرام، إذا ساهم في خير فلا يعد من الأخيار، وإذا تصدق فهو ليس من المتصدقين من رضي بفعل الخطيئة يكون فقد حريته ووجوده بالضرورة. كذلك يضع كانط مسلمة خلود الروح إن الروح تقيم النفس وهي جزء منها، اختلف الفلاسفة في ضرورة التمييز بين النفس والروح فقال فريق هما متمايزان، وقال فريق هما شيء واحد والفلسفة الكانطية تؤمن بثنائية النفس والجسم، أي أنهما متمايزتان وهي من رواسب الفكر الأفلاطوني مع العلم أن حياة الإنسان عند كانط أقصر من إدراكه وطموحه، لذلك وجب التسليم بوجود عالم آخر هو عالم المطلق والكمال فيه يجد الإنسان فعله ويكتشف قيمته. وفي الأخير يحقق الحقيقة المطلقة وهي أن وجود الله ضرورة أخلاقية يقول كانط: "وجود الله ضرورة أخلاقية" والله عنده يوفق بين السعادة والفضيلة ويحسم التناقض، في عالم الكمال يعطى لكل ذي حق حقه إنه عالم المثال والخلود الأبدي. لقد استطاع كانط أن يبني صرح أخلاق الواجب واستطاع بعبقريته الفذة أن يبني صرح الأخلاق دون منازع وجعل مشروعية الأخلاق في الفلسفة الأوروبية الحديثة مبرره رغم أن المجتمع المسيحي لم يجد في ديانته واعتقاده إلا الركام ومع ذلك يضع مبادئ أولى تكون بديلا عن الفكر اللاهوتي العقيم. اعترض عليه تلميذه شبنهور وأخذ عليه مآخذ من أهمها الغلو والمثالية والنظرة المتعالية لصورة الفعل الأخلاقي و أن فصل الفعل الأخلاقي عن عالم الأحاسيس والمشاعر والدوافع البشرية يجعل البناء صورة غير قابلة للتحقق وأن

صورة الإنسان عنده مثالية ملائكية طاهرة متزهة عن الخطأ والزلل وهذا من أثر الفكر اللاهوتي المسيحي ومن يقرأ فلسفته يجد فيها الداء الأفلاطوني وهو الغوص في المثالية والتجريد وعرضها يفيد في بيان حقيقة هي أن الإنسان وإن عاد إلى عقله المجرد الخالص يستطيع أن يضع لنفسه قواعد أخلاقية عامة وكيف بمن يمتلك الوحي وتجربة حياتية لنبي جعله الله خاتم الأنبياء والرسل.

الطور اليوناني وفلسفة اللذة: المجتمع اليوناني القديم كغيره عرف حيـــاة البذخ والإسراف ووصل إلى أقصى درجات الفسوق والانحلال الأخلاقي وهـــذا انعكس على قيمه ومعاييره الفكرية والمعرفية، فساد معيار المادية الذوقية، وســـعى الأغنياء والأقوياء لتجسيد هذه الحقيقة، فكانت الموائد المفعمة بالمآكل والمشـــارب هي عندهم مقياس للعلو والرفعة، وفي هذا فليتنافس المتنافسون. إن اللـــذة غايـــة الوجود الإنساني، وهذا ما يفسر التنازع والاقتتال بين الناس قديما وحديثا، عرفت الأخلاق المادية تطورا اقترن بتبدل وتغير حياة البشر، ونبدأ مع أرستيب القورينائي Aristippe 435-355 ق.م وهو من تلامذة سقراط، له نظرية أخلاقية أساسها اللذة، عكست الواقع الذي عرفه النبلاء و الموصوف بالترف والبـــذخ إلى حـــد الاستهتار، فهو يعتقد بأن اللذة هي صوت الطبيعة وأنها تفرض على الناس بحكـــم أنها صادرة عن الفطرة، فلما الحياء و لما الخجل؟ واعتقد بأنهـــا الغايـــة القصـــوى والمقياس الفريد لكل فعل أخلاقي، ويترتب عن هذا الموقف انغمـــاس النـــاس في الملذات والشهوات، وكان من نتائجه الإفراط والخروج عن الطبيعـــة الإنســـانية القائمة على التعقل والتوازن. جاء بعده أبيقورEpicure 341-270 ق.م عرف بالتوسط والاعتدال واعتبره مؤرخو الفلسفة أنه واضع نظرية اللـــذة في الفلســـفة

الكلاسيكية اعتقد بأن الناس يقبلون على الملذات وينفرون من الآلام بالطبيعة والفطرة الراسخة واعتبر أن الإفراط نتائجه الآلام والعذابات المتتالية لذلك طالب بإعمال العقل وضرورة التروي والتأني في الأخذ من الملذات والشهوات. هذه الفلسفة كانت العمدة في نشأة الفرق الكلامية المادية كفرق الشيعة التي أوقفت نفسها على التوسع في الملذات كالقول بزواج المتعة وهو فلسفة أفلاطونية أبيقورية لأن أفلاطون أخذ بنظرية شيوع النساء والأفلاطونية والأبيقورية فلسفتان يونانيتان معاصرتان.

الطور الحديث وفلسفة المنفعة: بعد الثورة الصناعية في أوروبا واكتشاف قوة الدفع الذاتي، وسقوط النظام الإقطاعي وظهور النظام الرأسمالي كقوة قاهرة ومهيمنة ظهرت الإمبراطوريات الاستعمارية وكانت أقواها بريطانيا استباحت العالم و وضعت نظرية جديدة في التعامل أساسها النهب والسلب ونشر الفتن بين الشعوب، وأحدثت نظرية التوتر، وكانت مقدمة لفلسفة الإبادة ساهموا في إبادة أمم كاملة، كأمة الهنود الحمر في أمريكا وسكان أستراليا فتركوا أزمات عالمية، تهدد الوجود الإنساني نفسه كأزمة فلسطين وكشمير والقائمة تبقى مفتوحة على المجهول، لا فرق بين مصطلح لذة ومنفعة الأول قد يحمل على الصفة الفردية الذاتية أما الآخر فيحمل على الصفة الجماعية المشتركة أما الغاية والهدف فهو واحد. والدليل على ذلك هو تأسيس المذهب النفعي في بريطانيا على يد جيرمي بينتام Bentham 1748-1832م وهو فيلسوف إنجليزي والمؤسس للمذهب من أهم مؤلفاته المدخل إلى مبادئ الأخلاق والتشريع. لقد أراد لنظريته أن تحمل صفة العلم وحتى تكون نتائجه يقينية، استعان بمصطلحات العلم الرياضي وذلك بجعل القيمة

الأخلاقية معادلة رياضية لها مسلماتها ومبادئها وكذلك نتائجها بالنظر إلى صفة العالم الواقعي، وعدم الاكتراث بالمثال والقيمة المجردة، فالتاجر مثلا لا يعنيه الإخلاص أو الوفاء، ما يعنيه هو تحقيق المنافع وبذل الجهد والاستعانة بكل الوسائل الموصلة إلى الملذات والمصالح. المنفعة هي كل لذة أو كل سبب يقود إلى اللذة، هي لا تتحقق إلا في سياق معرفي رياضي يقوم على مسلمتين الأولى هي المسلمة الفردية وتقتضي أن كل إنسان ينفرد بالحكم على لذته وسعادته أحدنا يبيع خمرا والآخر يبيع تمرا فالحكم الأخلاقي عنده سواء، المسلمة الموضوعية الجماعية إذا اتحدت شروط اللذة كانت واحدة بالنسبة للجميع فالسوق مثلا يسع الجميع ويحقق غايته وهي المنافع والمصالح. المسلمتان تؤديان إلى معضلة وهي أن الناس سيندفعون إلى المنافع، وهذا يؤدي إلى التنازع المفضي إلى التقاتل وحتى تحل العقدة يأتي الحل من القياس والحساب الرياضي فتتحدد الأبعاد، وضع بينتام نسقا رياضيا يتشكل من سبعة أبعاد يمكن حصرها في أربعة أقسام هي: نجد في القسم الأول الشدة والمدة وفي القسم الثاني اليقين والقرب وفي القسم الثالث نجد الامتداد وفي القسم الرابع نجد الخصوبة والنقاء. هذه فلسفة واقعية تتماشى مع مقتضيات التاريخ الراهن للشعوب وتتعايش بمقتضى المصالح والمنافع ولجعل هذه النظرية قريبة من الفهم نفترض وجود دولة عظمى تنتج السلاح وتبيعه، بغض النظر عن طبيعته وشكله وإن كان قد يستعمل في الحروب أو لا يستعمل وإن كان قد يتسبب في قتل الأبرياء أولا يتسبب، المهم أنه يحقق منفعة عاجلة وحتى نتحقق من ذلك يقترح النفعيون كما قلنا ما يعرف بالأبعاد السبعة ونوردها مرتبة على شكل أسئلة ما هي شدته؟ بعملية رياضية إحصائية سندرك أهمية السلاح وسنضعه في بداية السلم التجاري العالمي ما هي مدته؟ إن شعور الدول بالخطر وعدم الأمان يجعل الأمن

متقدما عن الغذاء والدواء ما هو يقينه؟ إن سوق السلاح تجارة رائجة والتاريخ يثبت أنها لا تعرف الركود و الكساد ما هو قربه؟ منافعها محققة وثابتة لم نسمع شركة سلاح أعلنت إفلاسها وأظهرت عجزها. ما هو امتداده؟ هذه التجارة لها امتداد داخل المجتمع وخارجه فهي تعطي الدولة مكانة ومقدرة اقتصادية وسياسية ما هي خصوبته؟ شركات التصنيع بالكاد تلبي طلبات المحتاجين التي لا تعرف الثبات أو الاستقرار ما هو نقاؤه؟ في نهاية كل سنة الرقم الوحيد الذي لا يعرف التراجع في ميزانيات الدول هو التسلح والتوسع في القدرات الدفاعية. احتج بينتام على صدق نظريته بازدهار التجارة في زمانه وكان لمواقفه امتدادات في الفلسفة الحديثة والمعاصرة. لقيت قبولا في المجتمعات الغربية لأنها تنسجم مع ثقافتهم وحياتهم وحاول الفيلسوف ج.س.مل أن يعدل في النظرية فاقترح ضرورة تقديم المسلمة الجماعية على الفردية، ولعل أهم نتيجة تمثلت في جعل مسلمات النفعية مقدمة لنشأة الفكر البراغماتي الذرائعي.

الفلسفة الأمريكية وبراغماتية الأخلاق: هي امتداد طبيعي للفلسفة النفعية وإن اكتست بثوب اقتصادي هو النظام الرأسمالي العالمي عبرت بصدق عن المادية وفلسفة الهيمنة والرؤية الواحدة للعالم ونبذ التحليلات الكلاسيكية عقلية وحسية. الكون يخضع لإرادة القوي المتملك ينفي بيرس الوجود الموضوعي للمعرفة لأن القيمة الحقيقة للأشياء هي النتائج العملية التي نرغب في تحقيقها ما المانع أن ينتج المصنع الواحد الدواء لعلاج المواطن والسلاح الجرثومي للدفاع عنه ضد أعدائه وكارهي حضارته وثقافته. أما مسألة الإيمان بالله حلها وليام جيمس لأنه من غير المصلحة والمنفعة أن نحل مسألة الاعتقاد بالشعور والإرادة كما تزعم الملل والنحل

بل نحلها بالقراءة الموضوعية للواقع ويظهر ذلك في قوله: "إن الواقع الموضـوعي سوى كثرة من الوقائع التي لا رابط بينها". هذا نفي للفكر الكلاسيكي القائم على فكرة الترابط السببي بين الظواهر والله، في زعمهم الله حالة براغماتية تحقق المنـافع والمصالح هو ملف في درج يخرج لما تكون حاجتنا إليه ضرورية كجعله ذريعـة في مواجهة المد الشيوعي الملحد، البديل البراغماتي هو الإيمان الموضوعي القائم علـى الجهد الذاتي في تحقيق المصالح أخذ الأراضي من الهنود الحمـر وجعلـها مزارعـا وحقولا من صميم الاعتقاد السليم.

القيمة الأخلاقية ومسلمات علماء الاجتماع: يقول مؤسس علم الاجتماع المعاصر إميل دوركايم: "إذا تكلم الضمير فأن المجتمع هو الذي يتكلم فينا". يعني أن الظاهرة الاجتماعية شيئية وخارجية، هي كأي شيء من الأشياء لا نمتلك التحـرر منها و مثلها مثل الزلزال والإعصار الذي تعجز إرادة الإنسان عن منازلته ومقاومته هي متسامية يتقبلها الفرد كقضاء وقدر لا مفر منه. يقول كذلك "المجتمـع لـيس سلطة أخلاقية فحسب بل أن كل الدلائل تؤكد على انه النموذج والمصدر لكـل سلطة أخلاقية". في نفس السياق العلمي العملي يقدم ليفي برول تصورا مسـلمته الأولى أن الأخلاق تدرس خارج المفاهيم الفلسفية وكذلك المنطقية أو حتى الجمالية لأن هذه الأخيرة تستند للحكم المعياري بل يجب أن نـدرس القـيم كعلـم لـه موضوعاته ومناهجه مثله مثل الفيزياء والبيولوجية، فهي تخـتص بـالحكم علـى السلوك الإنساني في نظام بيئته ووسط له قوانين تفسره، ومن التناقض الشـديد أن نضع قانونا أخلاقيا واحدا يحكم على سلوك الأفراد دفعة واحدة. النظريـة أرادت أن تجعل الأمانة و الخيانة والصدق والكذب موضوعات مادية لها كتلـة وحجـم

وحركة ويمكن أن نضعها في جداول إحصائية لنفسرها ونعي أسبابها، هو مخـالف لحقيقة الفعل الأخلاقي الصادر عن إنسانية الإنسان. لذلك اعتبر برغسـون هـذا التصور مغلق على ذاته ميت لا حياة فيه بمعنى أن الإنسان يندمج في مجتمعه كمـا تندمج الشاة في القطيع مسلوبة الإرادة والحرية إن الأخلاق باب يفتحه العظمـاء والفقهاء ويشتركوا كلهم في صناعة الضمير الواعي الحر.

بعد وفاة نبيهم عليه الصلاة والسلام المسلمون وقفوا أمام ثـــلاث جبـــهات الجبهة الأولى وهي خط الدفاع الناري الأول وهو القرآن الكريم حفظه الله تبـــارك وتعالى بحفظه الأعظم فقال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ الحجـــر:9 وساهم في حفظه نبينا عليه الصلاة والسلام و الخلفاء الراشدون من بعده، كتـــب سيدنا عثمان رضي الله عنه المصحف الشريف، الجبهة الثانية والخط الناري الثـــاني كان هو تدوين السنة النبوية الشريفة هذه الجبهة اخترقها الأعداء ودخلوا ميـــدان المعركة وكان العمل الدفاعي الممكن هو تسييج ميراث النبوة، لولا جهد علمـــاء الحديث لضاع هذا الميراث ولله الحمد والشكر، الجبهة الثالثة والخط الناري الأخير كان ضعيفا بل قل ميتا وهو كتابة التاريخ وتدوينه، الاستثناء الوحيد وهـــو قليـــل بالمقارنة مع الأحداث العظيمة التي شهدها المسلمون كانت كتابة السيرة النبويـــة العطرة وكتب الأعداء وحرفوا وزوروا، قراءة في فكر ابن خلدون الناقد لحركـــة تدوين التاريخ عند المسلمين كافية شافية. عرف المسلمون لاهوتا جديـــدا بثـــوب الإسلام والإيمان وهو علم الكلام، شغل المسلمين عن تسجيل حوادثهم التاريخيـــة وبناء مناهج علمية تعطيهم القدرة على تسجيل الحوادث تسجيلا موضوعيا يكون في قادم الأيام عبرة وموعظة لأجيالهم، إن فلسفة العلوم تنظر إلى التاريخ على أنـــه جملة الأحداث الاجتماعية والوقوف على أسباها الأولى التاريخ هو النظر المتبصر في حركة وسكون الماضي ويرى سيد قطب رحمه الله أن واقع التاريخ كامن في الزمان والمكان بمعنى أن الحدث التاريخي يفهم في آنيته وزمانه. الحالة التاريخية في جوهرها نص سردي يستدعي وقائع الحادثة بمنظار ذاتي يفترض وجود وحضور ذات المؤرخ وهي التي تضع الفواصل والنقاط وفق ترتيب ميتافيزيقي، لذلك مـــن الصـــعب أن يرصد كاتب التاريخ حركة الرجال والنساء في الحدث عبر الحقب والأزمنة. عادة

ما نجد في التاريخ إلا اللوحات الباهتة لبشر نضعهم أحيانا في مراتب الذلة والهوان بمقتضى الحكاية السردية، شخصية أدولف هتلر نازية بامتياز، صدام حسين مجـــرم بتفوق، لأن قاعدة التاريخ ومسلمته الأولى التاريخ يكتبه المنتصر، العجب أن السرد التاريخي تنفصل عنه الروح الأخلاقية، هنا تتدخل الأفكـــار والإيـــديولوجيات في تحديد معالم الكتابة بشكل قبلي. هكذا تغيب الرؤية الواضحة ويتم الابتعاد عـــن المنابع الأولى المؤثرة، من يدرس التاريخ السياسي الجزائري المعاصر يجـــد بداهـــة مفتعلة وكأن وجود حركة ثورية سنة 1954م يرتد إلى مجرد انقســـام حاصـــل في حزب الشعب وإلى أثر السياسة الاستعمارية فقط، الأصل أن الثائر الجزائري يمتـــد وجدانه العقدي إلى بداية الرسالة المحمدية وكيف تعلق بها المؤمنون، يعبر عن هـــذه الحقيقة المعرفية التاريخية السخاوي بقوله: "الوقت الذي تضبط به الأحوال من مولد الرواة والأئمة ووفاة وصحة وعقل وبدن ورحلة وحج وحفظ وضـــبط وتوثيـــق وتجريح". يقول ابن خلدون: "إن فن التاريخ من الفنـــون الـــتي تتـــداولها الأمـــم والأجيال وتشد إليه الركائب والرحال، وتسمو إلى معرفته الســـوقة والأغفـــال، وتتنافس فيه الملوك والأقيال ويتساوى في فهمه العلماء والجهال، إذ هو في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول، والسوابق من القرون الأول، تنمو فيها أقوال، تضرب فيها الأمثال وتطرف بها الأندية إذا غصها الاحتفال، وتؤدي إلينـــا شـــأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال، واتسع للدول فيها النطاق والمجـــال، وعمـــروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال وحان منهم الزوال. وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومباديها دقيق، وعلم بكيفية الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يعد في علومها وخليق. وإن فحول المؤرخين في الإسلام قد استوعبوا أخبار الأيام وجمعوها، وسطروها في صفحات الـــدفاتر وأودعوهـــا،

وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل وهموا فيها أو ابتدعوها، وزخارف من الروايات المضعفة لفقوها ووضعوها واقتفى تلك الآثار الكثير ممن بعدهم واتبعوها، وأدوها إلينا كما سمعوها، ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال ولم يراعوها. ولا رفضوا ترهات الأحاديث ولا دفعوها. فالتحقيق قليل، وطرق التنقيح في الغالب كليل، والغلط والوهم نسيب للأخبار وخليل، والتقليد عريق في الآدميين وسليل، والتطفل على الفنون عريض وطويل، ومرعى الجهل بين الأنام وخيم وبيل، والحق لا يقاوم سلطانه، والباطل يقذف بشهاب النظر شيطانه والناقل إنما هو يملي وينقل، والبصيرة تنقد الصحيح إذا تمقل، والعلم يجلو لها صفحات الصواب ويصقل". يقول العالم الفقيه سفيان الثوري "لما استعمل الرواة الكذب، استعملنا لهم التاريخ". التاريخ لغة تعريف الوقت و تاريخ الشيء وقته وغايته وهو علم يبحث في الوقائع والحوادث الماضية، ويقصد به السرد المنظم لمجموعة الظواهر طبيعية كانت أو زمنية إنسانية، فهناك مثلا من يؤرخ للأرض وهناك من يؤرخ للثورة الجزائرية، أساسه المشاهدة والتحري والقدرة على التمحيص وبناء الاستدلالات القائمة على النظر الثاقب و الموضوعية العلمية في التاريخ شغلت الفلاسفة قديمهم وحديثهم، لأن الشك وقذف المؤرخ بالصفات النكرة كالذاتية والتأويل وعدم موافقته للموضوعية والعلمية لها مبرراتها. هذا ما دفع العلامة ابن خلدون لكي يقتفي منهج السلف في ضبط الرواية وتحري الصدق لتثبيت الحادثة التاريخية، أصول ابن خلدون المنهجية كانت مع علماء الحديث أين استفاد من مناهجهم في تثبيت الخبر وتنقيحه شرع في وضع المناهج العلمية التي تمكن العالم والمطلع على التاريخ أن يجد راحة فكرية لما يطلع على أحوال البشر في الأزمنة والعصور الغابرة والحاضرة، هذا يبني صورة حدسية لما هو آت وقادم، هدف الفلسفة الخلدونية كان تجاوز المشكلة التالية: من

هو المؤرخ؟ وما هي الصفات الموضوعية التي تدفع عنه التأويل والذاتية؟ كلمة التاريخ مشتقة على الأرجح من اللفظ السامي الذي يعني القمر أو الشهر، وهي ترد على لفظين تأريخ بإثبات الهمزة ويقابل كلمة أستوريوغرافيا Historiographie ويفيد مطلق التعريف بالوقت، ويشير إليه السخاوي في كتابه "الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ" بأنه يعني "الإعلام بالوقت" ويذكره الجوهري بأنه يعني التعريف بالوقت هو يقابل عادة كلمة Histoire المأخوذة من اللفظ اليوناني Historia الذي يفيد الرؤية أو النظر أو المعنى بذلك يكون المؤرخ بهذا المعنى هو الشاهد على الوقائع أو الذي يقوم برسم لوحة بيانية عن مجرى الحوادث التي علم بوقوعها خلال العصور هذا ما جعل هيرودوت Herodotus هو من أقدم من كتب في هذا العلم وذلك في القرن الخامس قبل الميلاد يعرف التاريخ في كتابه عن الحروب الفارسية اليونانية بقوله: "هو عرض للاستقصاء والمعرفة وهدفه ألا تندثر أعمال التاريخ". هذا يصدق عليه قول ابن خلدون: "إن فن التاريخ من الفنون تتداولها الأمم والأجيال". هذا الفن لا يفهم إلا في سياق المنهج الاجتماعي الذي ضمنه في نظريته حول العمران البشري الذي لا يمكن فصله عن حوادث التاريخ وتعاقب أزمنته وأحداثه، لذلك فهو يقول: "خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم وما يعرض لطبيعته هذا العمران من الأحوال". هذا يقود إلى المعادلة التالية وهي: "وجود علاقة قائمة بين حياة المجتمع ومقتضياته وبين حركة التاريخ وتجلياته". هذا يقتضي بالضرورة فهم الأحوال السياسية والاقتصادية، كذلك الدينية والثقافية لأن اللحظة الراهنة التي يعيشها المجتمع هي في الأصل نتيجة سببية لما مضى ثم انقضى، هذا يستدعي المطابقة بين الخبر المنقول والقوانين المتحكمة في تجمع البشر، حتى يعصم المؤرخ نفسه من الغلط

والزلل يجب مراعاة قواعد أساسية من أهمها النقد الذي عبر عنه ابن خلدون بلفظ التمحيص وانتقد من سبقه لمزجهم التاريخ بالآراء والمذاهب والأهواء وكذلك نقل الوقائع دون نظر وفهم كما فعل مؤرخون، من أبرزهم الطبري الذي أقر الخطأ بل جعله منهجا متبعا يقول في مقدمة كتابه تاريخ الرسل والملوك: "إنما هو على ما رويت من الأخبار التي أنا ذاكرها فيه والآثار التي أنا مسندها إلى رواتها فيه دون ما أدرك بحجج العقول واستنبط بفكر النفوس إلا اليسير القليل منه" كذلك يجب على المؤرخ أن يقف على الأسباب الجوهرية بمعنى الوقوف على الجواهر لا الأعراض وأصل في ذلك قواعد من أهمها: النظر إلى أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران وقياس الغائب بالشاهد و هذا ينقل المؤرخ إلى العناية بالرواية يقول ابن خلدون: "وكثيرا ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل من المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل". إن الوقائع التاريخية غير قابلة للاستعادة ولا يمكن ملاحظتها مباشرة ومع ذلك فهي تترك أثارا تتيح للمؤرخ أن يستدل تاريخيا وذلك بفحص الوثائق فحصا علميا قاعدته نقد الوثيقة نقدا خارجيا، فإن كانت رواية فالقواعد متاحة في علم الحديث دراية وعناية، فيتم النظر في شخص الراوي مع تثبيت ثقته وصدقه وإن كانت الوثيقة مادية فتدرس دراسة خارجية بالنظر إلى مادتها كأن ندرس رسالة أو قطعة أثرية من حيث التكوين كالورق والحبر والمعدن وطبيعة النقش وصورتها فوجود قطعة نقدية أثرية يكون بداية مشروعة لمشروع كتابة تاريخية لمنطقة ودولة. هنا يستعين المؤرخ بعلوم مساعدة لأن الصورة العلمية للتاريخ لا تكتمل إلا بتوفر علوم تسند علميته وتخرجه من التحليلات الفلسفية العقيمة ومن أهمها نجد: علم الآثار Archéologie وعلم قراءة الخطوط القديمة Paléographie وعلم النقوش والكتابات القديمة

Epigrapie ومساعدة علم الوثائق وعلم النقود و المسكوكات والإطلاع علـــى علم الإنسان و الأنثروبولوجيا وغيرها وكذلك علوم أخرى نجد من أهمهـــا علـــم الجغرافيا وعلم الخرائط وكذلك الاقتصاد والسياسة وعلم النفس، وعلم الاجتماع، وعلم الأديان فالغاية من الكتابة التاريخية معرفة الغايات والأسباب المفسرة لحركـــة الإنسان وتطوره وتفسير نجاحه وإخفاقه مع معرفة أسباب انتصاراته وهزائمه لأخذ العبرة والموعظة يقول ابن خلدون: "اعلم أن فن التاريخ عزيز المذهب، جم الفوائد، شريف الغاية، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياستهم، حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا". إن هذا النص يضع معالم علمية التـــاريخ ويجعلـــه علمـــا استقرائيا متكيفا مع الطبيعة الإنسانية والحادثة التاريخية يمكن أن نلخـــص الكتابـــة التاريخية في مراحل أساسية، أهمها جمع المصادر بطريقة مباشرة أو غير مباشرة تحليل المصادر ونقدها وفهمها بوجود العلوم المفسرة والمساعدة وبناء الحادثة التاريخية بناء علميا مع الأخذ بقواعد التصنيف والتنظيم والترتيب. المحافظة على الأبعاد المكانيـــة والزمنية للحدث ثم الكشف عن الأسباب الدافعة وفهم مقتضيات الحدث التاريخي فهما بالنظر إلى الأسباب ومن أهم الطرق المعتمدة منهج المقارنة، نستطيع مثلا أن نقارن سقوط بغداد سنة 2003م مع سقوط الجزائر سنة 1830م ونبحث بطريقة منهجية في الأسباب سنكتشف المشترك بينها وهذا يتيح الأخذ بمبدأ السببية، الذي يعود الفضل في وضع مبادئه لابن خلدون وهذا يتيح متابعة الحدث التاريخي ومـــن ثمة الأخذ بقاعدة التنبؤ العلمي. إن البحث التاريخي مثله مثل أي بحث علمي تقف دونه عوائق لا يستطيع الباحث بموضوعيته القائمة علـــى الصـــدق والأمانـــة أن يتجاوزها لأنها متعلقة بطبيعة البحث الإنساني نفسه فالحادثـــة التاريخيـــة تتســـم

بالفردية، فهي عادة يقوم بها العظماء والأبطال وهذه الوقائع التاريخية تقوم علـــى فكرة الزمنية والزمن غير قابل للاستعادة لأنه انتهى وانقضى وبالتالي لا يمكـــن أن نسترجع الحوادث التاريخية كما نسترجع الظواهر الطبيعية ويكون البـــديل المتـــاح فقط هو منهج المقارنة، هو يحمل من الصورية والشكلية أكثر ممـــا يحمـــل مـــن الموضوعية المادية والعائق الأكبر هو أن المؤرخ لا يستطيع أن يحدد بدايات الحدث التاريخي، مع العلم أن هذا مشترك مع العلوم الأخرى فنحن لا نستطيع أن نحـــدد بداية الخلية في العلم البيولوجي مثلا. إن النظرية الخلدونية مصدر فخر واعتزاز لكل عربي ومسلم فهي بداية متقدمة في العلوم الإنسانية وخاصة في علم التـــاريخ لقـــد جعلته علما له مناهجه وقواعده، التي أخرجته من دائـــرة الأســـاطير والحكايـــات الوهمية التي تغص في الوهم والخيال كما نجد ذلك مثلا في الميراث اليوناني ونجده في فن الإلياذة و الميراث الفارسي والهندي ونجده في الملاحم الأسطورية. إن نظرية ابن خلدون وفلسفته تحتاج إلى مراجعة لأنها زاخرة وعامرة بالمواعظ والعبر. إن التاريخ قد ظهر قبل نشوء العلوم الإنسانية فقد قام منذ أقدم عصور اليونان بعدد كبير من الأدوار الكبيرة في الثقافة الغربية: فقد كان ذاكرة وأسطورة ونقلا للكلمة والمثـــل موصلا للتقاليد، ووعيا نقديا للحاضر واستشرافا لمصير الإنسانية واســـتباقا لـــلآتي ووعد بالعودة للحاضر. إن القيم الخيالية التي اكتسبها الإنسان من الماضي والهالـــة الوجدانية التي أحاطت به في الحقب التاريخية أفقدتـــه صـــفة الـــوعي بالحاضـــر، الاهتمام الحماسي بالانتصارات وجهل و إخفاء الهزائم والتبرؤ منها جعله مغيبا عن الأحداث التي يعاصرها، هذا يفضي إلى وجود ذلك الإنسان المفرغ مـــن التـــاريخ كما يقول ميشال فوكولت. الماضي عنصر جوهري في تحديـــد ماهيـــة الإنســـان كإنسان، كان ذلك في فرديته النفسية الواعية، أو في وسطه وبيئتـــه الاجتماعيـــة

وعلاقاته الاقتصادية والسياسية وكذلك اللغوية، هذا كله يحتاج إلى دراسة علميـــة تنفض الغبار عن هذا الجهد الفكري الإنساني، تضعه في مجال الحقيقة العلمية المقنعة المثبتة بالملاحظة والتجربة الاستقرائية الواضحة الجلية. لقد عرفنا أن كلمة التـــاريخ مشتقة على الأرجح من اللفظ السامي الذي يعني القمر أو الشهر كمـــا بينـــا في السابق. يقول سانلي جوفوس GEVONS صاحب كتاب مبادئ العلم: "مـــن السخف أن نفكر في التاريخ على أنه علم بالمعنى الصحيح" هذا يقـــود إلى نتيجـــة قاسية مؤداها التنكر للماضي وإلغائه وهذا يخدم فلسفات تفزع مـــن اســـترجاع الماضي لأنه يفضحها ويكشفها. مع ذلك يكتسب التاريخ علميته ويخضع مناهجه للموضوعية ويستعين المؤرخ العالم بمناهج متعددة ويخضع كل الوســـائل المتاحـــة ليجعل من بحثه علما يحمل صفة الصدق والوثوق وهذا الفعل إن أحسنه يجعل علم التاريخ في مرتبة تعلو العلوم الأخرى، يقول الأستاذ تريفليـــان Trevelian: "إن التاريخ ليس له، ولم يكن له قط ما للأدب الخالص من حرية أدبية، بل لا بد له أن يكون خادما للحقيقة، وإلا فقد اسمه، ولا ينبغي أن يستمد أخباره من الخيال كما هي الحال في الشعر والقصص، بل يجب أن تكون قائمة على المنهج العلمي القاسي الذي يقصد إظهار حقيقة الماضي". تعارف المسلمون على أن العقيدة فعل فـــردي قائم على علاقة المخلوق بالخالق تبارك وتعالى، أن مذاهب أهل السنة والجماعـــة مالكية وأحناف وشافعية وحنابلة حالة اجتماعية وهي عقد اجتماعي ييسر التعايش باجتهاد فقهي واحد في المسائل الفرعية والخروج على قواعد المذهب الواحد يقرره أهل العلم والفضل ولا يحق للمقلد أن يتعبد إلا بمذهبه، وقرروا أن الإمامة والخلافة حالة تاريخية، الحكم والسياسة وإقامة السياسة الشرعية مرهن بوضـــع الأمـــة في التاريخ، التاريخ العظيم ينشئ الدول العظيمة والتاريخ الضعيف يشـــكل الأنظمـــة

والأمم الضعيفة، الأمة الضعيفة لا تسعفها الحلول الفوقية تغيرها الثورات الفكريـــة البنيوية التي تعيد قراءة التاريخ ومن ثمة تغير مساره. التاريخ لا يسأل القوي عـــن قوته بل يسأل الضعيف عن ضعفه ولما قبله وجعله شرعة ومنهاجا.

قال تعالى في محكم التنزيل: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾. السجدة الآية 5، في سنة 1676م قدّم الفلكي أولاس رومر الدليل على أن سرعة الضوء غير لحظية كما ذكرت ذلك الموسوعة البريطانية واستمرت بعده القياسات ثلاثة قرون إلى أن اعتمدت في باريس سنة 1983م أثناء انعقاد المؤتمر الدولي للمعايير حيث قدرت سرعة الضوء في الفراغ : 299792.458 كم/ثانية، وجه الإعجاز في الآية القرآنية الكريمة أنها اعتبرت الحد الأقصى للسرعة الكونية في الفراغ تعادل دوران القمر حول مداره اثنتي عشرة ألف دورة، ومن ثم استنبط الدكتور محمد دودح المعادلة التي تعطي الرقم الصحيح لحساب سرعة الأمر الإلهي، وقد توصل الدكتور محمد دودح إلى أن الرقم القرآني ينطبق تماماً مع الرقم الذي أعلنه المؤتمر الدولي للمعايير في باريس سنة 1983 وهو 299792.458 كم/ثانية، هذا ما نقلته المواقع الإلكترونية وهي تثبت حقيقة كونية تواترت الأخبار على صحتها، لو علم المسلمون هذه الحقيقة في القرون الأولى لنسفوا علم الكلام نسفا وكانوا حربا على أعدائهم، لأنها تقر حقيقة النسبية وتنفي بالمطلق صفة الثبات، حقيقة تنسف نظرية الاختيار الأرسطية ومفهوم الزمان والمكان الأفلاطوني، هذا يفسر تسمية علم الفيزياء في الحضارة الإسلامية بعلم الحيل، حتى الفيزياء قرءوها قراءة أرسطية، لا عجب أرسطو عندهم المعلم الأول وما زال، الذي جهلهم وجعل قراءتهم للكون والخلق قراءة خاطئة مسرفة في الخطأ ولله الأمر من قبل ومن بعد. الفيزياء

Physique لفظ دخيل على اللغة العربية وهو علم من علوم المـــادة يبحـــث في الظواهر الطبيعية التي توصف بالشيئية وتنظر في قوانينها كالحركة والثقل والحـــرارة والضوء والصوت والكهرباء وغيرها، على خلاف الكيمياء التي تنظر في تركيـــب الأجسام والتغيرات الحاصلة في المادة. إلا أن التداخل الشديد بينهما جعل إمكانيـــة الفصل بينها تبدو مستحيلة وهذا أحدث مصطلحا جديدا وهو العلـــوم الفيزيائيـــة Sciences Physiques، هي مجتمعة تقابل العلوم البيولوجية ويبقـــى القاســـم المشترك بينهما ولو بشكل نسبي المنهج الاستقرائي الذي يقوم على خاصية الانتقال من الخاص إلى العام، هذا في محددات التجربة العلمية ومجالها البحثي القـــائم علـــى الملاحظة والتجربة ويعتبر إسحاق نيوتن واضع مسلمات الفيزيـــاء الكلاســـيكية وبمنهجه العلمي الاستقرائي أخرج علوم المادة الجامـــدة مـــن مباحـــث الفلســـفة وتحليلاتها الأولى إلى النظرة الموضوعية القائمة على الدقـــة والضـــبط والتحديـــد والشمول. منهج هذا العلم هو التجربة ولو افترضنا أن أستاذ مادة الفيزياء أراد بيان ومفهوم الصوت استعان أستاذ المادة بوسائل توضيح ليجعل منها تجربـــة عمليـــة فأحضر مسجلات صوت وأجهزة ومن أهمها مكبرات الصـــوت، علـــى ضـــوء التجارب المتعددة أظهر الأستاذ ما يعرف بعلم الصـــوتيات، كيـــف أن الصـــوت يتكون من الاهتزازات التي ينتجها جسم وتنتقل خلال وسط، خير مثـــال الهـــواء والماء وكذلك الجدران والمباني ولفهم فعل الصوت يجب النظر في تصميم القاعات الكبيرة كالمسارح، كيف يتم الاستعانة بأجهزة مكبرات الصوت ويمكن التقليل من

حدته والحد من الضجيج عن طريق الجدران والنوافذ العازلة". فتكـــون التجربـــة Expérience، هي ملاحظة العالم للظواهر الطبيعية في شروط معينـــة، يهيئهـــا بنفسه ويصرف فيها بإرادته ويكون هدفه البحث عن الفرضيات المؤدية للقـــوانين العلمية، منها تم اشتقاق مصطلح المنهج التجريبي الذي عبر عن أهميتها وتقدمها في كل بحث علمي Méthode Expérimental، هي طريقة شاملة للملاحظـــة والفرض والتجريب والتحقيق مع الرجوع إلى تصنيف الظواهر مع مقتضى البحث العلمي. نشأ العلم الفيزيائي نشأة غريبة وإن شكك بعـــض المـــؤرخين في صـــحة الرواية يحكى أن نيوتن استظل بشجرة تفاح وفي لحظة غير متوقعة سقطت علـــى رأسه تفاحة أيقظت في عقله فرضية الجاذبية، حول الملاحظة العابرة إلى ملاحظـــة علمية عجلت بوجود فرضيات جادة تستحق أن تكون كمنطلقات لتجارب علمية أدت في النهاية إلى قوانين حاسمة، حلت معضلات عالقة حول الأنظمة الكونيـــة. من هنا تتبنى فلسفة العلوم منهج الاستقراء والأخذ بخطواتـــه وأضـــحى معيـــارا وسلما لكل تفكير أراد أن يضع نفسه موضع العلم وهذا المنهج له خطوات تحـــدد معالمه. الخطوة الأولى وهي الملاحظة Observation خطوة حاسمة مـــن المنـــهج الاستقرائي وفيها يحكم الحس على الظواهر، يتم فيه التوجه إلى الشيء المـــدروس بيقظة وانتباه شديد من أجل الإطلاع على الظاهرة كما هي دون تبديل وتغيير مع ضرورة التمييز بينها وبين التجربة يقول فزيرمان Zimmermann:"إن الملاحظة هي مشاهدة الظواهر على ما هي عليه في الطبيعة على حـــين أن التجريـــب هـــو

التدخل الفعلي في مجرى الطبيعة لتبديل ظواهرها ومشاهدة ما ينشأ عن هذا التبديل". لذلك يجعل كلود بيرنارد التجربة ملاحظة محدثة Observation Provoquée لأن العالم يصطنعها لهدف وغاية مرجوة في البحث، الملاحظة هي التي تميز بين التجريب الصحيح والمفترض لأن عجز العالم عن التفسير أو بناء فرضيات جديدة يحيله إلى الملاحظات المنجدة ووظيفتها اختبار الفكرة والتأكد من صدقها وكذبها، هي أقسام فمنها الملاحظة الخارجية Externe هي ملاحظة الظواهر كما هي ثم الملاحظة الخارجية Externe هي ملاحظة الظواهر كما هي عليه في العالم الخارجي، فيرصد العالم الظاهرة في حركتها ونشأتها والتبادلات الطارئة عليها. أما الملاحظة الداخلية Interne هي ملاحظة أحوال النفس والتعرف على النشاطات الذاتية، مع ضرورة التمييز بين الذات المدركة والموضوع المدرك، لأن المنهج العلمي يحرص على تثبيت الموضوعية والوقوف دون تدخل العوامل الذاتية وهذا يحتاج إلى وسائل مساعدة، لأن سلاح العالم الأدوات يقول ك.بيرنارد: "لا يستطيع العالم أن يلاحظ الحوادث المحيطة به إلا داخل حدود ضيقة جدا، لأن القسم الأعظم منها خارج عن نطاق حسه فلا يقنع بالملاحظة البسيطة، بل يوسع مدى معرفته ويزيد من قوى أعضائه بآلات خاصة كما يجهز نفسه بأدوات مختلفة تساعده على النفاذ إلى داخل الأجسام ودراسة أجزائها الخفية". الخطوة الحاسمة الثانية هي الفرضية Hypothèse هي الأفكار التي يستحدثها العالم لتفسير الظواهر وهي خطوة تمهد لبناء القانون العلمي يقول العالم بوانكريه

"الملاحظة و التجربة لا تكفيان لإنشاء العلم، فمن يقتصر عليهما يجهل صفة العلم الأساسية" تكون الفرضية مجرد تفسير مؤقت للحوادث لأن الذي يثبت صدقها وكذبها التجربة العلمية ولأهميتها بحث العلماء في العوامل الدافعة ويمكن تلخيصها في عاملين: الأول هي العوامل الداخلية وهي تتحدد بالوضع النفسي للعالم في ذاتيته وقدراته الخاصة يقول ك. بيرنارد: "ليس لدينا قاعدة لتوليد فكرة صحيحة في ذهن العالم" العوامل الخارجية هي المقتضيات العلمية والواقعية التي تدفع بالعالم لكي يضع الفرضيات المساعدة على التفسير ويمكن تلخيصها في عاملين الأول هو البحث العلمي، لأن العلم ينهض دائما على وجود فرضيات جديدة، هذا يتحقق في ميدان البحث العلمي الجاد المتميز، هي مهام مراكز البحث العلمي والمدارس المختصة. ثم نجد الحاجات والمقتضيات وكذلك النوازل كالمعضلات الاجتماعية والاقتصادية وما يطرأ على حياة الناس يحتاج دائما إلى فرضيات عاجلة، لاحظ باستور كيف تفتك الأوبئة بحياة الناس فوضع فرضيته في وجود كائنات غير مرئية تكون هي السبب في نقل الأعراض المرضية. الخطوة الثالثة والحاسمة هي التجربة العلمية Expérimentation، يقول العالم كوفيي: "إن الملاحظ يصغي إلى الطبيعة، أما المجرب فيسألها ويرغمها على الإجابة" لأنها الخطوة التي تحسم الموقف العقلي المشتمل في الفرضية، بشكل عام نميز بين نوعين من التجارب العلمية النوع الأول هو التجريب الناقص ويقوم على عنصر المشاهدة المباشرة ويحتاجه العالم لما يريد وضع فرضية انطلاقا من ملاحظاته التي تأتي أحيانا غير كافية وفيها يحاول

تكييف ملاحظاته مع شروط جديدة يقتنع بأهميتها. أما النوع الثاني فهو التجريب الصحيح وهو التجربة العلمية الصحيحة، التي يشكلها العالم من ملاحظاته وفرضياته وهذه توضحها وتبينها التجارب الفيزيائية والبيولوجية وكذلك الكيميائية وغيرها، هذا العمل يحدد بوضوح وضع القانون العلمي وتحصيل غاية العلم، هي إخضاع الظواهر الكونية للتفسير الحتمي والقصد من ذلك البحث في الأسباب الأولى المتحكمة في حركة الظواهر، لأن العلوم المعاصرة تحاول الوصول إلى قواعد عامة تمكن من التنبؤ العلمي والأمثلة كثيرة في العلوم و نذكر بعض الشواهد من العلم الفيزيائي وكيف يضبط تعريف السرعة: هي المسافة التي يقطعها جسم متحرك في وحدة الزمن. السرعة هي سرعة انعتاق جسم من جاذبية الأرض أو الكوكب السيار. السرعة الابتدائية هي سرعة قذيفة عند انطلاقها من مدفع أو سلاح ناري. سرعة الصوت هو المسافة التي يقطعها الصوت في وحدة زمنية وتقدر 34 مترا في الثانية. سرعة الضوء هو المسافة التي يقطعها الضوء في وحدة زمنية تقدر كما يلي:300000 كيلومتر في الثانية. السرعة النسبية يغير فيها جسم وضعه بالنسبة إلى جسم آخر، المتأمل يدرك أن كل تعريف له قاعدة سببية تفسره لذلك يقول ك. بيرنارد "إن النقد التجريبي يضع كل شيء موضع الشك إلا الحتمية العلمية فإنه لا مجال للشك فيها أبدا". الحتمية في اللغة الفرنسية Déterminisme مصطلح جرده علماء المناهج من مبدأ السببية الذي نص على أن لكل ظاهرة سبب كاف في وجودها أي أن للظواهر نظام معقول تترتب فيه العناصر على صورة

يكون كل منها متعلق بغيره وهذه القاعدة بنا عليها نيوتن ومن جاء بعده ما يعرف بالفيزياء الكلاسيكية. يقول العالم لابلاس 1749-1827م: "يجب علينا أن نعتبر اللحظة الراهنة للكون نتيجة لحالته السابقة وسببا في حالته التي تأتي من بعد ذلك مباشرة ولو استطاع ذكاء ما أن يعلم في لحظة معينة جميع القوى التي تحرك الطبيعة وموضع كل كائن من الكائنات التي تتكون لاستطاع أن يعبر بصيغة واحدة عن حركات أكبر الأجسام في الكون وعن حركات أخف الذرات وزنا". الدارس لفلسفة العلوم وتاريخها يميز بين مرحلتين تاريخيتين عرفتها العلوم الفيزيائية المرحلة الأول هي الفيزياء الكلاسيكية وتعبر عنها فيزياء نيوتن و هي لم تتحرر من الفكر الفلسفي الكلاسيكي في مقدماتها، هي متأثرة بنظرية الثبات الأرسطية ويظهر ذلك في أخذها بمبدأ الحتمية المطلقة الذي ينظر إلى ثبات القوانين وعدم تغيرها وجعلت منهجها هو الاستقراء القائم على الملاحظة والفرضية والتجربة وهي لم تتخلص من ثقل الفكر الأرسطي وخاصة في باب الفرضية لأنها مشروع عقلي أي بناء منطقي، هدفها هو الوصول إلى اليقين العلمي وكانت موضوعات الفيزياء الكلاسيكية ومازالت بشكل عام ولو من الوجهة التاريخية هي البحث في الميكانيكا وعلم الحركة و الديناميكية الحرارية ودراسة الحرارة والصوتيات ودراسة الصوت والكهرباء والمغناطيسية والبصريات ودراسة الضوء. ليس القصد هنا التصنيف والترتيب بل تقديم إحاطة كلية بالموضوع. أما المرحلة الثانية هي الفيزياء المعاصرة وبرزت كفكر وعلم مستقل وبشكل عام سنة 1910م لما طرح العالم الألماني

هيزنبرغ فكرة العالم لا متناه في الصغر وكانت موضوعاتها الأساسية الفيزياء الجزئية والذرية والإلكترونية والفيزياء النووية وفيزياء الجسيمات وفيزياء الحالة الصلبة وفيزياء الموانع والبلازما. هي ثورة فكرية عن الرتابة والسكون وجمود التصورات الفلسفية وكان البديل المنطقي هو اللاحتمية وعلاقات الارتياب والنظر إلى الكون على أنه تغير وحركة وأنه مناقض للرتابة والسكون ويعود الفضل في وضع المبادئ الأولى للعلم الفيزيائي المعاصر للعالم الألماني ورنر هيزنبرغ Heisenberg Werner 1901-1976م في بداية حياته اتجه إلى العلم الرياضي والفيزيائي ويمكن تلخيص جهده وعلمه في أنه وسع ميكانيكا المصفوفات التي برهنها العالم شوندجر سنة 1926م اكتشف مصدر الحقل الكتلي الذي أدخله العالم ويس Wess عندما طبق الميكانيكا الكوانتية Quantique في دراسة البيئات الحديدية المغناطيسية. بعد اكتشاف النيترون على يد شادويك أعلن هيزنبرغ أن النواة تحتوي على بروتون ونيترون نال بكل اقتدار وكفاءة جائزة نوبل للفيزياء سنة 1932م.

نظرية ورنر هيزنبرغ: قوانين الفيزياء الكلاسيكية تقترن بدراسة الظواهر الخاضعة لمناهج الاستقراء القائم على الملاحظة الحسية والنظر في تعاقب الأحداث مع ما يتفق مع مسلمة الحتمية، هذا الوضع فقد في الفيزياء المعاصرة التي تدرس العالم الأصغر أي عالم لا متناهيات في الصغر وبين ذلك في قوله: "كلما دق قياس موقع جسيم غيرت هذه الدقة كمية حركته. كلما دق قياس حركة كميته التبس موقعه. يمتنع أن يقاس موقع الجسيم وكمية حركته معا قياسا دقيقا أي يصعب

تعيين موقع الجسيم وسرعته الابتدائيتين بالمفهوم الميكانيكي الإتباعي لذلك يصعب معرفة موقعه وسرعته في زمن لاحق". لفهم علاقة الارتياب هذه قدم مقاربة واقعية وهي لاعب لعبة البيار براعته لا تفيده كثيرا لأن كل ضربة تكون خاضعة للصدفة والارتياب هنا يتبدد اليقين في كل زاوية و في كل حركة. إن الفيزياء المعاصرة Microphysique رغم أزمتها المنهجية وأخذها بنظرية الارتياب إلا أنها حققت مكتسبات عملية كبيرة نجدها في المبتكرات كبناء الأجهزة الإلكترونية، لذلك اتفق علماء ومنهم إدنجتون وديراك أن الدفاع عن مبدأ الحتمية المطلقة بات مستحيلا وتدعم هذا الرأي بوضع نظرية الاحتمال في الرياضيات التي ساهمت في حل معضلا ت علمية لأن فلسفة التوقع أضحت مبررة ومقبولة.

البيولوجيا هي علم الحياة بالمعنى الواسع وهي تندرج ضمن العلوم الطبيعية ولا تخرج عن تاريخ العلم وفلسفته، بحكم أنها من العلوم القديمة التي لا يستطيع الإنسان تركها والتخلي عنها بحكم اقترانها بوجوده ووظائفه الحيوية وفلسفة بقائه. لقد فصل الإنسان قديما في بيان ما هو حي يحمل صفة الحياة وما هو بشيء حامل لصفة الجماد وإن كان التشارك في الشيئية واضح وغير ملتبس والإشكال هو في لفظ الحياة نفسه، لأن معناه العام والواسع هو معنى فلسفي خالص يقترن بفعل الخلق و العقل خارج قراءة الوحي يجد نفسه عاجزا عن إدراك الحقائق الكلية ومجرد النظر إلى الخلية الحية حيوانية كانت أو نباتية. العلم البيولوجي يقف أمام هذا الكم الهائل من الكائنات الحية ويحاول ان يقوم بعملية فرز تساعده في فهم البدايات التي تشكل الكائن الحي وتطوره في النظام الطبيعي. وضع سلم التطور للكائنات الحية لم يحل المشكلة لوجود التداخل في الأنماط الحياتية بين الكائنات الحية وهذا وضع مبحثا خاصا في فلسفة العلوم هو تاريخ البيولوجيا مع تحديد البدايات والنهايات لعضوية الكائن الحي. لأن الانسان هو جزء من هذا النظام يفقد تدريجيا بعض خواصه الفيزيائية والكيميائية، البعض يفسر شيوع الأمراض المزمنة والمستعصية كالسرطانات بفشل وتراجع وظائف الخلية عند البشر وهناك معضلة ثانية، هي توارث الكائنات الحية للأمراض وكيف تنتقل وراثيا من جيل إلى آخر. لفظ علم الحياة في جوهره مفارقة كبرى عند فلاسفة العلم Biologie هي لفظ يوناني مكون من bios βιος وهي علم الحياة λογος logos ، من يدرس تاريخ العلم وتطوره يجد أن العلم البيولوجي قد تأخر في الظهور لأسباب إبستيمولوجية من أهمها التداخل بين الفكر العلمي الصحيح والفكر الفلسفي اليوناني، العلة الأولى للتأخر هي القول بنظرية التولد الذاتي لدى الكائنات الحية، هي فلسفة أرسطية

أطاح بها العالم باستور لما نقض عن الفكر البيولوجي ثقل الفكر الخرافي الوهمي اليوناني، العلة الثانية نظرية القداسة والإنسان المتعالي الأفلاطونية منعت البحث العلمي الموضوعي، تجلى ذلك في هالة القداسة التي منعت الباحثين طويلا من فهم وظائف الأعضاء بالتشريح لوجود مقتضيات لاهوتية. مع ثورة كوبرنيك تحدى العالم جان لامارك 1744-1829م هذا الواقع ونقل المباحث البيولوجية من الفلسفة وعقمها إلى العلوم التجريبية وخصوبة نتائجها. فلسفة العلوم تعتقد بوجود جملة من العوائق تحد من علمية البيولوجيا، مع ذلك ينبهر العالم بما يقدمه العلم البيولوجي، لعل من أهمه الهندسة الوراثية وهي تقوم على تغيير المورثات أي الجينات داخل جسم الكائن الحي، ذلك بإكسابه سمات مختلفة تنعكس على وضعه البيولوجي بجلاء، تمكن المهندسون الوراثيون من إنتاج معظم السلالات المهمةٌ اقتصاديا من النباتات والحيوانات، كما طوروا طرقا لعزل مورثات بعض الكائنات الحية وإدخالها من جديد في خلايا النباتات وحتى الحيوانات، هذا ساهم وبشكل فعال في المحافظة على سلالات نباتية وحيوانية كادت تنقرض وكذلك في رفع مستويات الإنتاج كان ذلك في الكمية والإنتاجية. البيولوجيا Biologie علم الحياة والحياة نقيضها الموت والفناء لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاء وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاء وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ 22 سورة فاطر، هو علم واسع يشمل فروع عديدة من أهمها: علم الحيوان وعلم وظائف الأعضاء وعلم الحياة العام وغيره، ندرك هذه العوائق في الحالات البسيطة و المعقدة الناتجة عن الأحوال المرضية. العلم البيولوجي يعترضه عائق الحياة وهو مجموع ما يشاهد في الحيوانات والنباتات من فوارق بينها وبين الجمادات كالتغذية والنمو والتناسل

وغيرها، هذه صفة تحدد ماهية الكائن الحي وتفضي عليه استقلالية خاصة يقول جورج كوفيي: "إن سائر أجزاء الجسم الحي مرتبطة فيما بينها، فهي لا تستطيع الحركة إلا بقدر ما تتحرك كلها معا". إن تعقد الظاهرة البيولوجية إلى الحد الذي يجعل تصنيفها مستحيلا على خلاف الظواهر الفيزيائية والكيميائية، الجهاز العصبي يحمل من الوظائف الفيزيولوجية والفيزيائية وكذلك الكيميائية يجعل مجرد وصفه وفهم تغيراته بعيد المنال. إن النتائج التي حققها البحث البيولوجي لا تحمل صفة التعميم وهي خاصية أساسية في العلم بمعنى أن التجربة الواحدة والقانون المبرهن على صدقه استقراء لا ينطبق على الجميع، فنجد أن التشخيص الواحد والعلاج الواحد يعطي نتائج متباينة. إن الكائن الحي على خلاف الجماد يحمل صفة التغير والتبدل وكذا يقف الوسط والبيئة والتغيرات المناخية عوامل تعيق الباحث في هذا العلم. لذلك نجد من الأمراض ما هي موسمية وأخرى مقترنة بتضاريس ومواقع جغرافية خاصة، منذ زمن قريب كانت الأوبئة تفتك بالملايين ان الإنسان يقف موقف العاجز المستسلم الضعيف المستلب الإرادة، يذكر المؤرخون أن وباء الطاعون كان إذا حل ببقعة استعد الأحياء لمصيرهم، فكتبوا وصاياهم واستقبلوا مصيرهم المنتظر فجاءت أعمال باستور ومن جاء بعده بمعجزات طبية رفعت عن البشر هذا الحمل، أضحى بمقدور المريض أن يتوجه إلى أقرب طبيب وصيدلية حتى يجد الشفاء ويخلص جسمه من عبء الداء وثقله ويكتشف معجزات الطب ويتذكر قوله تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّن نَّشَاء وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ 76 سورة يوسف. لا ينكر أحد مدى التعقيد الحاصل في دراسة المادة الحية ورغم ذلك أزال البحث العلمي الكثير من ذلك، يعود الفضل في إرساء الخطوات المنهجية للعالم الباحث كلود بيرنارد واضع كتاب مدخل لدراسة الطب التجريبي، أثبت وظيفة

الكبد السكرية واكتشف وجود العصب الودي واستقلاله عن الجملة العصبية والنتائج المتوقعة تكون هكذا:

1. **<u>خضوع المادة الحية للتجربة:</u>** قام ك. بيرنارد 1813-1878م بتجربة في علم وظائف الأعضاء فأحضر أرانب من السوق ولاحظ أن بولها صاف وحامض وهذا مخالف لطبيعة الحيوانات المتغذية عن الأعشاب، أن بولها عادة يأتي عكر وقلوي فوضع فرضية لماذا لا تكون الأرانب قد وضعت في شروط غذائية يشبه شروط الغذاء عند الحيوانات المتغذية على اللحوم فقام بتجربة علمية. فغذى الأرانب بغذائها الطبيعي المكون من الأعشاب فاستعادت وضعها الغذائي الطبيعي يعبر عن منهجه قائلا: "فَإِنَ تَعَقُدَ الظَوَاهِرَ الجَامِدَةُ أَقَلُ بِكَثِيرٍ مِنْ تَعَقُدِ الظَوَاهِرِ الحَيَوِيَةُ وَلِذَلِكَ اسْتَطَاعَتْ العُلُومُ التِي تَدْرُسُ الظَوَاهِرَ الجَامِدَةَ أَنْ تَكْتَمِلَ بِشَكْلٍ أَسْرَعِ مِنَ العُلُومِ الأُخْرَى، أَمَا فِي الأَجْسَادِ الحَيَةِ فَإِنَ الظَوَاهِرَ عَلَى غَايَةِ مِنَ التَعَقُدِ، وَمِنْ جِهَةٍ أخْرَى فَإِنَ حَرَكِيَة الخَصَائِصِ الحَيَوِيَةِ تضِيفُ إِلَى صُعُوبَةِ مَعْرِفَتِهَا وَتَحْدِيدِهَا صُعُوبَةً أُخْرَى. وَلاَ يُمْكِنْ مَعْرِفَةْ خَصَائِصَ المَادَةِ الحَيَةِ إِلاَ عَنْ طَرِيقِ عَلاقَاتِهَا بِخَصَائِصِ المَادَةِ الجَامِدَةِ وَمِنْ هُنَا وَجُبَ عَلَى عُلُومِ الحَيَاةِ أنْ تَتخِذَ كَقَاعِدَةِ حَتْمِيَةٍ لَهَا العُلُومِ الفِيزْيُو-كِيمْيَائِيَةِ التِي تَسْتَقِي مِنْهَا وسَائِل تَحْلِيلِهَا وَطرُق بَحْثِهَا، وَتِلْكَ هِيَ الأَسْبَابُ الحَتْمِيَةُ لِتَبعِيَةِ وَتَخَلُفِ العُلُومِ التِي تَهْتَمُ بِظَوَاهِرِ الحَيَاةِ، وَلَكِنْ إِذَا كَانَ هَذَا التَعقُدُ فِي الظَوَاهِرِ الحَيَوِيَةِ يُشَكِلُ عَوَائِقَ كَبِيرَةٍ جدا فَلاَ يَنْبَغِي أَنْ يُزْعِجَنَا ذَلِكَ لأِنَ مَبَادِئَ العُلُومِ مُتَمَاثِلَةٌ فِي

المَيَادِينِ وَلاَ يُمْكِنُ نَفْيُهَا، إِلاَ إِذَا نَفَيْنَا تَمَامًا إِمْكَانِيَةَ عِلْمِ الحَيَاةِ، فَنَحْنُ إِذًا مُتَأَكِدُونَ مِنَ السَيْرِ فِي السَبِيلِ السَوِي وَمِنْ الوُصُولِ مَعَ مُضِيِ الأَيَامِ إِلَى النَتِيجَةِ العِلْمِيَةِ التِي نَنْشُدُهَا أَيْ إِلَى الحَتْمِيَةِ فِي ظَوَاهِرِ الكَائِنَاتِ الحَيَةِ".

2. **خضوع المادة الحية للكم والتقدير الرياضي:** حقق العلم البيولوجي نقلة نوعية لما استطاع أن يدخل الرياضيات الإحصائية وكانت البداية سنة 1865م مع أعمال ماندل Mendel، كان ذلك في علم الوراثة وعمل على النبات وثبت ذلك بجداول إحصائية كانت نتائجها كما يأتي: أفراد الجيل الأول متشابهون وصفات الأجداد تظهر في الجيل الثاني، توزيع هذه الصفات يظهر بصفة منتظمة ومطردة. توسع مجال البحث الإحصائي وتمكن العالم الأمريكي مورغان Morgan 1910م من تفسير انتقال الخصائص الوراثية من جيل إلى جيل عن طريق المورثات الموجودة في الكروموزات، مع تطور تقنيات البحث أضحت المقارنة بين العلم البيولوجي والفيزيائي متاحة ومبررة.
3. **العلم البيولوجي والحتمية الفيزيائية الكيميائية:** نظرية العالم ك.بيرنارد يعتقد أن المظاهر التي تتجلى في الأجسام الحية مثل المظاهر التي تتجلى لدى الأجسام الجامدة تخضع لحتمية ضرورية تربطهما بشروط كيميائية خالصة، هذا مبرر بالتشابه الحاصل في التكوين والطبيعة بين المادة الجامدة والحية. لأننا نجد العناصر واحدة والبحث العلمي يؤكد ذلك، نجد على سبيل المثال أن جسم الكائن الحي يدخل في تركيبه الكربون والهيدروجين و الأزوت والكالسيوم والفسفور وغيره

بنسب متفاوتة وخير مثال أن التنفس والهضم ليسا إلا تفاعلين كيميائيين وهذا ينطبق على الوظائف الحيوية الأخرى.

4. **النزعة الحياتية Animisme والقول بالغائية:** فلاسفة وعلماء بيولوجيا أظهروا أن الحياة قوة طبيعية مستقلة عن القوى الفيزيائية –الكيميائية، هي علة وسبب ما نشاهده في الحيوانات والنباتات من صور الحياة وهي لا تفارق النفس وهذا يدفع للأخذ بالغائية القائمة على التسليم بوجود قوة مفارقة لها قوة الخلق وهي تتحقق بتثبيت عظمة الخالق تبارك وتعالى في خلقه. لذلك ما هو متاح للإنسان هو فهم تركيب المادة كأن نفهم وظائف القلب والجهاز العصبي، أما الوقوف على الغايات والنهايات فهذا متعسر، العلم لا يستطيع تفسير وظائف حيوية كهجرة الطيور والأسماك، التي تقطع فيها مسافات شاسعة وطويلة تعجز فيها أدق الأجهزة عن تتبع مساراتها، كذلك تكيف الكائن الحي مع المقتضيات الطارئة الصادرة عن المناخ والتضاريس، مهما اكتست النزعة الحياتية والإحيائية وهما سواء من صدق القول و التحليل، يبقى جهد الإنسان في البحث والسعي للمعرفة مطلوب وإن وجدت عوائق فهذا المتوقع والمحتمل مع التقدم الحضاري أضحى الفصل بين المعارف الفلسفية والعلمية قابل للتحقق والإمكان وذلك بفضل وجود المنهج الاستقرائي الذي جعل التجربة معيارا للصدق والكذب، لقد تم التخلي عن التحليلات الفلسفية المعيارية التي أعاقت تطور العلم البيولوجي، هذا ساهم في نشأة علوم المادة وأمكن من تطورها، انعكس إيجابا على العلم الفيزيائي الذي عرف مرحلتين الأولى كلاسيكية اتسمت بالضبط والتحديد والشمول والثانية معاصرة غاصت في عالم لا متناه من الصغر، أخضعت نتائجها للاحتمال والارتياب وكانت نتائجها مذهلة في الاختراع

والاكتشاف، هذا أحدث ثورة علمية سارع علماء البيولوجيا وغيرهم لتطوير أدوات بحثهم لمواكبة العصر وتفكيك تناقضاته العملية بالاستفادة من الأجهزة والأدوات المتاحة في التشخيص وبناء الأدوية.

أعظم فكر وضعه الانسان هو العلم الرياضي دون منازع، يمثل قمة التفكير البشري وأكثرها عطاء، تبقى مشكلته الأولى أنه اقترن بالتفكير الفلسفي اليوناني القديم واقترن بنظرية الثبات الأرسطية فأعدمت فائدته لقرون عديدة، لولا الجهد العلمي الذي قامت حضارات سابقة بفعله وخاصة في علم الهندسة لكان مصيره مصير العلوم الكونية الأخرى، التي جعلت علم الفلك علم التنجيم وعلم الفيزياء علم الحيل وعلم الكيمياء علم السيمياء الذي يختص بتحويل المعادن الرخيصة إلى معادن ثمينة. هذا الجهد الهندسي يذكر للحضارات القديمة حضارات ما بين النهرين والصينية والهندية وخاصة الفرعونية، الفضل الذي ينسب للحضارة اليونانية منقوصا من أوجه متعددة والكارثة الحضارية أن الجهد المعتبر الذي قام به المسلمون لم يكن له أثرا بالرغم من أن الفكر الإسلامي يتضمن مسلمات رياضية معتبرة كالأخذ بالسنة القمرية، نظرية الأهلة القائمة على فكرة النسبية خلاف السنة الشمسية القائمة على نظرية الثبات الأرسطية ونظرية المواريث وحساب الزكاة المقترنة بالحول، مع ذلك وغيره جمد العقل العربي في فلسفة الجماد والسكون التي تسللت إلى المناهج والآراء دون حسيب ولا رقيب. الرياضيات أو علم الرياضة هو علم المفاهيم المجردة ومصطلحه يدل على فكرة الكم والمقدار والأهم هنا أن المقدار غير ثابت وقابل للنقصان والزيادة ولما نقيس نكون أمام مفهوم عميق وهو كم وهذا سؤال معرفي له القدرة على حل لغز الكون والوجود ويكون البداية الفعلية لقيام علم مجرد وبناء. النتيجة المبتكرة في العلم الرياضي هو تحقيق هذه القاعدة وهي القياس الكمي لا الأرسطي وهنا مكمن الداء والعقل الاسلامي وإلى غاية الآن لم يفكك هذه المعادلة ويكتشف مفارقتها. من العلماء من عرف

العلم الرياضي أنه علم القياس وهذا تعريف صحيح على الأقل من الرؤية الإبستيمولوجية التاريخية الخالصة، لأن لغة العلوم هي العلم الرياضي كان ذلك في العلوم الشرعية والإنسانية والطبيعية واللغوية الخطابية، بل حتى في تفسير الحياة والمآل وفهم النوازل والمقتضيات المستحدثة لا تفهم ولا تدرس إلا بالأنساق الرياضية. ننتقل إلى تعريف أعم وأشمل وهو أن العلم الرياضي هو دراسة القياس والحساب، الهندسة والقياس له مفردات متعددة منها التحليل والنشر والبناء والتفكيك والاستنباط المجرد، هذا يقود إلى النتيجة التالية الحاسمة وهي أن هذه المضامين مجتمعة تعطي القدرة على تفكيك شفرة الكون بالمفهوم المعرفي لا الخرافي الميتافيزيقي. لأن تحديد البنيات الكمية للكون كتحديد بنية الفراغ والفضاء والتغير والأبعاد يختزلها العلم الرياضي ويجعلها كظواهر كونية ميسورة الفهم ومقبولة، المنهج الجديد في العلم الرياضي هو منطق البرهنة المجردة من أجل تفكيك الظواهر تفكيكا مجردا من لواحق الأفعال الحسية. لو تجردنا من لواحق الحس الثابتة بثبات الزمان والمكان وجعلناها أكثر تجريدا نستطيع أن نضع تفسيرات عامة وواضحة، كما نجد مثلا في نظرية النسبية للعالم اينشتاين هذا الحس الرياضي مفقود في فكرنا الإسلامي المعاصر رغم أهميته في دفع النهضة العلمية والفكرية المنتظرة. العلم الرياضي كبداية تاريخية نشأ نشأة حسية لما تأمل الانسان الأول في ملكوت الله تبارك وتعالى، أراد أن يضع روابط بين ما يشاهده وما يعقله وهذا أخذ وقتا طويلا، كان سببه تغلل الفلسفات الماورائية اليونانية التي تدفع العقل إلى البحث عن المطلق والكمال عوض البحث في الواقع وكشف الأسباب التي قف وراءه. الرياضيات العقلية هي نظام منطقي شامل يتسع بشكل مطرد لتفسير الظواهر الكونية والأحداث

الاجتماعية تفسيرا كميا تقديريا، العلوم الرياضية لها تطبيقات في كل شيء ودون استثناء من أبسط المسائل الحسابية إلى أعقد المسائل الجبرية، هي الدراسة المنطقية لفهم البنيات الكمية هي البحث عن العلاقات وسلسلة الترابط العددي بين الظواهر و يمكن حصرها في فروع الجبر والهندسة والتحليل. تاريخ العلم يثبت أن الهندسة نشأت نشأة حسية وأن الجبر نشأ نشأة عقلية، بالنظر إلى تطور أدوات القياس التي حاولت أن تحدد مفاهيم الزمان والمكان، للتعايش مع التغيرات المناخية كحساب السنين وتحديد المسافات هذه حالة عامة تعرفها كل المجتمعات قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ 189 سورة البقرة. هذا البحث قاد إلى أفكار جديدة كفكرتي الاستمرار و الحد و عجل بنشأة التحليل الرياضي واكتشاف حساب التفاضل والتكامل في القرن السابع عشر على يد لايبنتز ونيوتن، آخر العلوم الرياضية نشأة الاحتمال والإحصاء والمجموعات، العلم الرياضي له مصطلحه وقواعده البحثية والمنهجية حوالي 300 ق.م وضع اقليدس أول نسق رياضي على شكل مبادئ هندسية مستمد من البنية المعرفية الأرسطية القائمة على فلسفة السكون وهو نظام رياضي بديهي البرهان يشتق من مبادئ وأصول ثابتة. لخصه اقليدس: "إذا لم تستطع البرهان على أمر فلا تقل إنك تعرفه". تأخر ظهور الحساب لطبيعته المعقدة فهو يشمل دراسة الأعداد الصحيحة والكسور والأعداد العشرية وعمليات الجمع والطرح والضرب والقسمة، هو الأساس لكل علم رياضي يبني مهارات كالعد والتجميع والقياس ومقارنة

الكميات، الجبر لا يقتصر على دراسة أعداد معينة. هو يشمل حل معادلات تحوي أحرفا س و ص و تمثل كميات مجهولة، يستخدم في بناء العمليات الجبرية، كالأعداد السالبة والأعداد الخيالية والجذور التربيعية للأعداد السالبة. التحليل ساهم في تطوير الفكر الرياضي، أضحى التكامل والتفاضل متقدم لأنه يقدم طرائق حل ممتعة لمسائل متعلقة بالحركة والكميات المتغيرة. التفاضل يفيد في تحديد معدل تغير الكمية يفيد التكامل في تحصيل الكمية بمعلومة معدل تغيرها هكذا، يكون الفكر الرياضي فلسفة مطلقة تحيط بالعالم والكون وتفسره. أول ما يدرك من المحسوس هو الامتداد لذلك كانت الهندسة أولى العلوم الرياضية نشأة أن أول نسق وضعه الفيلسوف اليوناني اقليدس كما أشرنا وضمن ذلك كتابه الأصول، لم يستطع أحد بعده أن يضيف لعلمه شيئا. إلا أن العرب برعوا في مسائل محددة ولم يخرجوا عن الأنساق الرياضية اليونانية، عرفوا تسطيح الكرة وأحسنوا نقل الخرائط من سطح الكرة إلى السطح المستوي ومن السطح المستوي إلى الكرة نظروا إلى الهندسة في شقها التطبيقي العملي، انعكس ذلك على فن العمارة والبناء، يعتبر البيروني من الأعلام ومن أشهر مؤلفاته استخراج الأوتار في الدائرة بخواص الخط المنحني فيها، استطاع غياث الدين الكاشي أن يستخرج نسبة محيط الدائرة إلى قطرها ويحسبها بدقة متناهية، من يتجول في ربوع الجزائر يكتشف آية الجمال في العمارة الإسلامية وخاصة في واد ميزاب ومنازل تلمسان وقصور الصحراء. تاريخ العلم يظهر كيف أن الحضارات القديمة مجتمعة ساهمت في بناء الأنساق الرياضية النظرية، كذلك العملية وكيف استطاع كهنة مصر القديمة من وضع المبادئ الأولى لعلم الهندسة التطبيقية. الأعمال المشخصة في العلم الرياضي جعلت الهندسة نسق

نظري يحاكي الواقع الدارس لفلسفة العلوم يطرح هذا الإشكال كيف تكون الهندسة صورة تحاكي الواقع الحسي؟ الهندسة فرع من العلم الرياضي يختص بدراسة الهيئات والأحجام وكذلك الأشكال ووضعها الهندسي والأشكال تأتي مستوية كالمثلثات والمستطيلات. أما المجسمة كالمكعبات والكرات وهي ثلاثية البعد، العلم الذي ندركه مملوء بالأشكال الهندسية، هي تقترن بالعمل اليدوي فالاستواء يحتاجه البناء والنجار والحداد، الأشكال الهندسية فلسفة واقع فالتلميذ وبكل يسر يبصر الأسطوانة والسباعي والمثلث والثماني الأوجه والمتكررة الهندسية والمنشور وغيره حتى ندرك الطبيعة الحسية للهندسة، يستخدم علماء الفلك والبحارة وعلماء مسح الأراضي حساب المثلثات لحساب الزوايا والمسافات، هذا إذا تعذر القياس المباشر أما اليوم فأضحت الهندسة هندسيات فنجد المدنية والكهربائية والصناعية والزراعية والبيئية. هذه الحقائق أثبتها التاريخ كحقيقة وواقع ساهمت في تطور المعرفة العلمية يقول ج.سارطون "والعقل لم يرتق إلى هذا التجريد دفعة واحدة بل توصل إليه شيئا فشيئا بالتدريج، إن الرياضيات المشخصة هي أولى العلوم الرياضية نشوءا فقد كانت في الماضي تجريبية وكانت خاضعة لتأثيرات صناعية عملية ثم تجردت من هذه التأثيرات وأصبحت علما عقليا". التاريخ أثبت وبشكل قطعي أن فن المساحة العملي متقدم في النشأة عن فروع العلم الرياضي لأن العالم الذي نراه ويتجلى لنا لا يخرج عن عالم الحواس، عبر عن هذه الفكرة أحد أقطاب النزعة الحسية وهو د.هيوم بقوله: "إن الألوان والأصوات والحرارة كما تبدو لحواسنا، لتختلف في طبيعة وجودها كما تكون عليه حركة الأجسام وصلابتها". هذا ينطبق على القضايا الرياضية فمجموعة من الأشجار توحي بفكرة العدد

ومشاهدة الشمس توحي بفكرة القرص وكذلك رؤية الجبل توحي بفكرة المثلث كما ذكرنا، عملية مسح الأراضي تعرفنا بالأشكال الهندسية هكذا تكون المعرفة ترابط إحساسات، في الأصل الإنسان يولد صفحة بيضاء، يشكل عالمه الداخلي بقوة حاسته، لا يكون الصوت مسموعا إلا إذا سمع، لا يكون الشيء مشاهدا إلا إذا شوهد، هذه حقائق ذكرها أهل التحقيق وأقنع المدرسة التجريبية بهذه الحقيقة: "لا يوجد شيء في الذهن، ما لم يوجد من قبل في التجربة". قالوا كذلك: "إن القضايا الرياضية التي هي في الذهن مركبة مصدرها التجربة". موقف أكده فلاسفة المدرسة ومن أهمهم جون لوك و جون ستيوارت مل، طرح فلسفي تؤكده نظرة الإنسان العادي وهو يستعين بالأصابع والحصى إذا أراد العد والحساب، إن العالم لا نستطيع أن نستوعبه وندركه، إلا في علاقاته الحسية لأن الحاسة هي التي تفصل بين العالمين الداخلي والخارجي، قوتها مؤثرة وهذا يدل على صدق المقولة الفلسفية التالية: "فقدنا حاسة فقدنا بالضرورة معرفة". الحقائق الحسية وأهميتها أكدتها الدراسات السيكولوجية المعاصرة وخاصة علم النفس الطفل، فقد فصل في المشكلة لما بين أن الطفل يكتشف عالمه الخارجي حسيا، هو يمتلك اللفظ مثلا كصوت مسموع ثم يعطيه دلالة المعنى هذا يشرح ويفسر كيف تكتسب المعاني الرياضية حسا؟ لا يفهم العلم الرياضي إلا بفهم بنياته الفكرية، مثلا العدد هو أحد أساسيات العقل وهو ماهية لا تحتاج إلى تعريف، البعض عرفه بوضعه الرياضي لما نسبه إلى غيره فقال: "العدد هو الكمية المؤلفة من نسبة الكثرة إلى الواحد". العدد 2 هو إضافة العدد 1 إلى 1 مثلا، وهنا نميز بين نوعين من الكم والمقدار الأول هو المقدار المنفصل Quantité Discontinue، المقدار المتصل

Quantité Continue، أي ما كان بين أجزائه حد مشترك وهذا ينطبق على الهندسة، الأعداد ثلاثة أنواع وهي الحقيقية و الخيالية والمركبة، العلم الرياضي يفصل بين الأعداد الصحيحة الموجبة والسالبة والأعداد الصحيحة مثل: 9، 4، 44 مفاهيم متداولة منذ القدم، في القرون الوسطى ابتكر الهنود مفهوم الأعداد الصحيحة السالبة كصيغة رياضية تعبر عن حالة الدين في التجارة، اكتشف علماؤهم الصفر الذي يدل على غياب العدد، مع العلم أن أرخميدس 287-212ق.م قد ذكر مسألة وجود أعداد لا متناهية في الكبر، وصل إلى ما يلي: "لا حدا أعلى لنظام الأعداد، وأن اللانهاية بعكس الصفر، ليست عددا وأنه مهما بلغ كبر عدد، فهناك أعداد أكبر منه". هكذا تكتمل فلسفة العدد في صورة خط يمتد من اللانهاية السالبة إلى اللانهاية الموجبة، في القرن السادس عشر ابتكر الإيطاليون كمية خياليه "خ" يعطي مربع النتيجة-1، الأعداد التي تدخل فيها خ تسمى أعدادا خيالية". تبقى الرياضيات هي خطاب العقل وتشخصه في المعرفة، على خلاف العلوم فهي قد فرضت نفسها كلغة ونسق ومعرفة، تحدد ماهية الوجود وتفسره لقوله تعالى: ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾96 سورة الأنعام وقال كذلك: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾5 سورة الرحمن، قال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾5سورة يونس، وقال كذلك: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

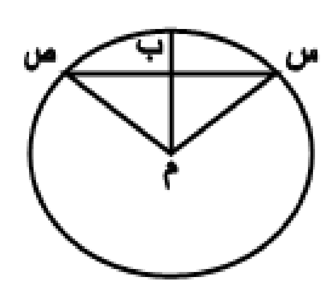
وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾2 سورة الفرقان، التقدير والحساب يختص به أولي الألباب أي العقول وبيان ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ﴾7سورة آل عمران. الرسوخ في العلم لا يتحقق إلا بقراءة الكون والحياة قراءة و تقديرا وحسابا، المفاهيم الرياضية المجردة ألهمت علماء الفكر الرياضي على وضع التساؤل التالي: كيف يكون العقل عددا وحسابا وجبرا يقرأ العالم ويحاكي الكون رياضيا؟ استعمل الإغريق ومنهم ديوفانتوس القرن الثالث ق.م الأحرف في المعادلات، لفظ جبر عربي معناه تجبير العظام وعلم الجبر كعلم وفن ينسب للأمة الإسلامية، هو جهد و عمل يحتاج إلى ذكاء وعقل، كلمة جبر كمصطلح اعتمدها عالم الرياضيات العربي الخوارزمي، دفعه لذلك حل مسائل المواريث. علم المواريث يتحدد بقواعد شرعية حسابية متناهية في الدقة، مع القرن السادس عشر اعتمدت أوروبا الصيغ الجبرية وجاءت البداية مع فرنسيسكوس فياتا، إلا أن النقلة الحقيقية جاءت مع ديكارت فعبر عن الكميات بالمجهولة: X Y Z عبر عن المعلومة a b c، هذا ساهم في بناء العلم الرياضي المعاصر فجاءت اللغة الرياضية صيغا جبرية كما هو حاصل في العلوم الفيزيائية والكيميائية للتعبير عن الكميات والعلاقات. الفلسفات المثالية تعتقد أن عالم الطبيعة لا يقدم عددا خالصا وأن العقل يعطي للخط صورة العرض وللسطح

السمك، التجربة الحسية قاصرة عن انتزاع صورة الشيء من نفسه كالامتداد. من الفلسفات القديمة التي اعتمدت الرؤية المثالية للعلم الرياضي أفلاطون، جعل الرياضيات واسطة بين العالمين المحسوس والمعقول، في الفلسفة الحديثة اعتقد ديكارت أن المعاني الرياضية من أشكال وأعداد هي فطرية مثلها مثل فكرة الله التي تتسم بالبساطة والبداهة واليقين، هو يقول: "إن العقل هو أعدل قسمة بين الناس". أما كانط فيرى أن المكان والزمان صورة قبلية لكل حساسية، بين أن العدد ما هو إلا رسم لمقولة الفهم الصادرة عن مقولة الكم، إذا أردنا مثلا أن نحدد شخصا بعينه، يجب أن نضعه وبصورة قبلية في إطار الزمان والمكان وهما صورتان مجردتان، تكون المعاني الرياضية صادرة عن قوة الذهن، قدرة العقل على بناء التصورات وإصدار الأحكام وإقامة الاستنتاج الذي يبنى بناءا استدلاليا الاتجاه المثالي انطلق من مسلماته الفلسفية التي اعتبر فيها أن الإنسان بالماهية مفكر، هذا ما يفصله عن الكائنات الأخرى وأن مبادئ العقل كمبدأ الهوية أو عدم التناقض أو الثالث المرفوع، كلها موجودة بالفطرة وهي الأساس لكل برهنة فلما نأخذ مثلا البديهية الرياضية: "الكل أكبر من الجزء" هي تنسجم وتتفق بداهة مع المبدأ العقلي "عدم التناقض" كل الاستنتاجات الرياضية تحليلية كانت أو تركيبية لا تخرج عن هذا النسق. هكذا يتم تثبيت العلاقة الوثيقة بين العلم الرياضي والمنطق وهذا مبحث يطلع به المنطق الرياضي وهو من العلوم المعاصرة. على ضوء هذه القراءة نطرح التساؤل التالي: هل العلم الرياضي هو علم الكميات المجردة؟ ما يؤكد توجه العلم الرياضي نحو الغوص في التجريد، هو نشأة علوم رياضية جديدة كالاحتمالات والإحصاء، هي إن خاطبت الواقع إلا أن قوانينها عقلانية خالصة، الاحتمال نظرية رياضية

معاصرة تحدد فرص إمكانيات توقع حادث غير مؤكد الحدوث، كاحتمال توقع سقوط قطعة نقد، مع إحصاء ممكنات الوقوع، تحديد لكل ممكن صفة محددة، تكون الممكنات التي نحصيها متساوية القيمة، علم الإحصاء لا ينفصل عن العلوم الرياضية المعاصرة، هو يهتم بجمع البيانات وتحليلها لمعرفة الأنماط والتوجهات العامة، العلم الرياضي جملة هو بحث منطقي خالص يقول العالم الرياضي ف.غونزيث: "في كل بناء تجريدي يوجد راسب ومتبقي حدسي يستحيل محوه وإزالته، وليست هناك تجريبية خالصة ولا معرفة عقلية خالصة، بل كل ما هناك أن أحد الجانبين العقلي والتجريبي قد يطغى على الآخر، دون أن يلغيه تماما". هكذا يكون الحدس الرياضي معرفة مباشرة، صادرة عن الوعي الإنساني الذي يحمل صفة التعقل فمن علم البدائي قداسة العدد وتميزه في الحياة. يعتقد عالم النفس جون بياجي الباحث في خصوصيات الفكر وتشكل البنيات المعرفية لدى الطفل أن الفكر الرياضي يحتضنه فضاء الزمان يقول: "المعرفة ليست معطى نهائيا جاهزا وأن التجربة ضرورية لعملية التشكل والتجريد، ومع ذلك يمكن القول بدون مبالغة، بأن عالم الرياضيات هو عالم الإنسان، أي عالم كائن التجريد العقلي الخالص". صدقه يتجلى في قوة الاستدلال الرياضي القائم على مبادئ و أصول ويعود الفضل في بناء الأصول الرياضية للفيلسوف وعالم الرياضيات اقليدس أين حدد للفكر الرياضي الثوابت التالية الأساسية في كل تحليل رياضي: بداية <u>التعريفات</u> التعريف Definition هو ذكر شيء تستلزم معرفته معرفة شيء آخر والتعريفات هي الصياغة العقلانية المجردة البعيدة عن التجربة الحسية، هي ضرورية وأساسية لبناء المعاني وتحقيق خاصية البرهان القائم على التحليل والتركيب ومن الأمثلة على

التعريفات نذكر: المثلث شكل هندسي محاط بثلاثة خطوط مستقيمة متقاطعة مثنى مثنى، العدد هو مجموع وحدات متجانسة، مربع العدد هو حاصل ضرب العدد في نفسه. البديهيات والبديهية Axiome، قضية أولية صادقة بذاتها يجزم بها العقل من دون برهان وهي عامة وتشمل كل العلوم وتستخدم في كل برهان، هي مبدأ عقلي عام ومن أشهر البديهيات الرياضية: الكل أكبر من الجزء والكميتان المساويتان لكمية ثالثة متساويتان، إذا أضيفت كمية ثابتة لطرفين متساويين لن يغير من تساويهما. من الأصول الرياضية كذلك المصادرات المصادرة Postulat أما المسلمة فهي Presupposition، وكذلك المواضعة Convention، تكاد تحمل نفس المعنى في العلم الرياضي وهي قضايا يطالب التصديق بها لحاجة العقل إليها في الاستدلال ومن أشهر مصادرات أقليدس من نقطة خارج مستقيم لا يمكن أن نرسم سوى خط موز له، الخطان المتوازيان لا يلتقيان مهما امتدا، المكان ذو ثلاثة أبعاد: الطول والعرض والارتفاع. المبادئ الرياضية هي أساس كل برهنة رياضية، البرهان الرياضي يقوم على خاصيتين هما: أولا التحليل وهو عمل بنائي يقوم على التفكيك لما نريد أن نبرهن على أن: 2+3=5، فإنني أعتمد خاصية التحليل وأكتب: 3=2+1 و 2=1+1 فإذا عوضت 3 بتعريفها كانت: 5 =2 + (2+1) بعد التعويض العدد 2 بتعريفه أجد: 5=(1+1)+(1+1)+(1).هذه البرهنة قائمة على البديهية القائلة: الكميتان المساويتان لثالثة هي مـــتساويتان. هذه البديهية عملية منطقية خالصة، كقولنا مثلا: زكرياء أخ لخديجة وخديجة أخت لحسام بالضرورة حسام أخ زكرياء التحليل قد يأتي معادلة كأن نقول مثلا: س+8=10 ومنه س+8-8=10-8 ومنه س=2. أما التركيب كأن نقول مثلا:

س-2=0، س-3=0. بعد التركيب نجد: س2-5س+6= 0 ، منه نشرع في الحل: س2-5س+6=0 معادلة من الدرجة الثانية ومن ثمة نقوم بحلها، الأمر نفسه في الهندسة نريد مثلا أن نبرهن مثلا على أن نصف القطر العمودي على الوتر يقطع هذا الوتر في منتصفه نعتبر هذا الوتر س. ص قاعدة لمثلث متساوي الساقين، مادام الضلعان م س، م ص من المثلث م س ص نصف قطري دائرة متساويين بالتعريف. القطعة م ب العمودية على القاعدة س ص هـــي في نفس الوقت الارتفاع للمثلث المتساوي الساقيـــن م س ص أي منصفه كما هو معروف في خصائص المثلث المتساوي الساقين، فكأنما قلنا مادام الوتر س ص صالحا لأن يكون قاعدة لمثلث متساوي الساقين ومادام ارتفاع المثلث المتساوي الساقين بنصف قاعدته فأن ب م منصف س ص و أساس البرهنة هنا وجود مبادئ ومنطلقات يضعها العالم الرياضي. لذلك تتضمن الرياضيات الكلاسيكية يقينها من مبادئ واضعها اقليدس. هنا نتحقق من صفة اليقين المؤدي بالضرورة للمطلق، بعد أقليدس ومع تعاقب العصور حاول الرياضيون الاعتراض على المسلمة الأوقليدية "من نقطة خارج مستقيم لا يمكن أن نرسم سوى خط مواز له" وفي سنة 1830م أثار العالم الروسي لوباتشفسكي1793-1857م الشك حول صدقها، ثم نقضها وأحدث فكرا رياضيا جديدا. جاء كانقلاب عن الميراث القديم الذي نشأ نشأة أرسطية آمنت بنظرية الثبات، وأن كل شيء ساكن وأن التغير يتنافى مع فلسفة الكون إلا أن فلسفة التطور قد ألغت هذه التصورات كلها نجد أن هذا النقض والنقد أسس ما يعرف بالأكسيوماتيك



Axiomatique وهو من نتائج الثورة الكوبيرنيكية من زاوية تاريخية نميز بين صنفين من الهندسة الأولى أوقليدية كلاسيكية والثانية لا أوقليدية معاصرة. أولا الهندسة الأوقليدية وتوصف بصفتين هما الاستواء والتجسيم الأولى تعنى بالسطح من حيث الشكل الحامل للبعدين الطول والعرض، نجد ذلك في دراسة المستقيمات والزوايا والمثلثات والدوائر والأشكال الرباعية، أما الهندسة المجسمة أو الفراغية فهي تفهم بالبعد الثالث وهو الارتفاع والعمق، البرهان الرياضي الثابت في هذه الهندسة هو من نقطة خارج مستقيم لا يمكن رسم سوى خط مواز له. الثانية الهندسة اللاأوقليدية و يعتبر العالم الروسي لوباتشفسكي، أول من أثار الشك حول مصادرات اقليدس وتمكن سنة 1830م من نقضها، وبين أن أساس النسق الأوقليدي هو تصور المكان على أنه مستوي في هذه الحالة يكون مجموع زوايا المثلث 180 درجة، لذلك نشأت الهندسة اللاأوقليدية وظهر ما يعرف بعلم الأكسيوماتيك الذي تخلى عن فكرة المبادئ وتم تعويضها بالفرضية، قدم لوباتشفسكي نسقا هندسيا جديدا لقد تصور المكان مقعر يمكن تخيله داخل الكرة Courbature Négative، وتكون النتيجة أن مجموع زوايا المثلث أقل من 180 درجة، يمكن أن نقول من نقطة خارج مستقيم يمكن أن نرسم مالا نهاية من المتوازيات، وجاء بعد ذلك العالم الألماني ريمان 1826-1856م وتمكن سنة 1854م من تقديم تصور في سياق نظريته الدالات والهندسة اللاأوقليدية، حين افترض فيه أن السطح كروي Courbature Positive ومن نتائجه أن مجموع زوايا المثلث أكبر من 180 درجة وبين كيف أنه لا يمكن رسم أي مواز من نقطة خارج مستقيم. تحت ظلال الثورة الكوبيرنيكية بدد المنهج الأكسيومي فكرة ثبات النسق الرياضي يقول العالم

بولغان: "إن كثرة الأنظمة في الهندسة، لدليل على أن الرياضيات ليس فيها حقائق مطلقة". اعتبر العالم الرياضي المعاصر بوانكري أن المبادئ ما هي إلا فروض و منطلقات لقيام النسق. هكذا اندمجت الرياضيات بفروعها في جدلية العلم القائمة على التبدل والتغير وظهرت فروع جديدة. المناهج المعاصرة في الرياضيات حددت المسلمة التالية بوضوح النسق الأكسيومي ومبدأ التغير وقيام منطق الفرضية كبديل عن الأصول الأوقليدية الساكنة والراكدة. يرى العالم الرياضي المعاصر هـــ. بوانكري 1854 - 1912م أن التمييز بين المبادئ الرياضية أضحى أمرا ثانويا، إنما تؤخذ جميع المبادئ كفروض تكون مجرد مواضعات يقترحها الرياضي لإقامة البرهان، هذا قاد للشك ومراجعة ثوابت النسق الكلاسيكي ومن أبسطها البديهية القائلة الجزء أقل من الكل يمكن أن نثبت تناقضها بهذا المثال البسيط: المجموع اللام تناهي للأعداد الفردية هو 1 3 5 7 9 11 13، والمجموع اللام تناهي للأعداد الزوجية هي 2 4 6 8 10، نجد أن المجموعتين متساويتان رغم أن مجموع الأعداد الزوجية هو جزء من الأعداد.

الرياضيات وقراءة الكون: المدخل الوحيد لبناء فكر إسلامي جديد له مدخل واحد وهو العلم الرياضي، يجب التمييز بين العلم الرياضي المجرد والعلم الرياضي التطبيقي، المجردة مجالها توسيع المعارف قاطبة لأن قراءة الخلق والوجود لا تخرج عن التقاطعات الهندسية والجبرية، العقل الإسلامي المبتكر المبدع طاقة الحياة التي تحركه وتحييه هي القراءة العددية الكمية للعالم والخلق. العلم الرياضي التطبيقي هو البديل للتفكير الانفعالي الخرافي، المجتمع الاسلامي لن يخرج من الخرافة ومن التفكير الوهمي حتى يبني أنساقه العددية، التطبيق الرياضي هو القراءة الصحيحة لحركة العالم، العلم الرياضي جملة يبني العقل

العلمي ويميت الذهن الخامل الراكد صدق التصورات تبنيه المناهج الصحيحة، العلم الرياضي يعلمنا أن طرائق الفهم لا تخرج عن منهجية التحليل والتركيب. اليوم الذي يستطيع العقل الإسلامي تحليل المركب وتركيب المجزأ يستطيع أن يحدد نفسه في الوجود وبرسم تقاطعاته الحضارية العلم الرياضي بداية حقيقة لكل نهضة وتقدم، أضاع المسلمون الثورة الخوارزمية وأقبروها، الله تبارك وتعالى يضع أمامهم أعظم علم في أيامنا هذه فرصة من الفرص وحظ نتمنى أن نتلقفه ولا نضيعه ونبدده كما فعلنا في سابق الأيام.



الأفكار السيئة المتلبسة بأثواب الدين والعقيدة تفتك بالأمم والأجيال كمـــا تفتك الأمراض والأوبئة بالأجساد الضعيفة، الفاقدة للدفاع والحماية، حتى يتضـــح المقال نقف أمام هذا المثال: "فرد من بني آدم سكن مزرعة واسعة فسيحة وجـــنى منها من الثمار والخضر و ما تشتهيه الأنفس وتلذ له الجوارح و الأعين. ومع توسع زراعته استعان بآخرين ومع الأيام أضحت لهم الأعمال والمهـــن بـــين الحقـــول والأشجار. مع تعاقب الأيام والليالي زادت الألفة بين المتحابين وداخـــل المزرعـــة اتخذوا لهم مصلى هؤلاء الزوار كانوا أهل تقى ونقى وزهد عظيم وظهر فيهم عالم متبتل صائم بالنهار قائم بالليل التوسل والتهجد من طبعه وخلقته واجتمع حولـــه الناس وفي مجلسه تذرف الدموع والمهج وكذلك العبرات والزفرات وتحترق القلوب والأفئدة وترك العمل وجلس في المصلى ويتتابع الزوار لمجلسه ليغترفوا مـــن علمـــه وكراماته. وفي يوم ما وضع مشاعل في المصلى لينيره بنور الله وكتب عنـــد كـــل مشعل: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ النمل-الآية 8، ثم أخذ في ترديدها وحده ثم شاركه المريدين ثم المحـــبين ثم صعد منبرا صنعه وقال: ﴿إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ طه-الآية 10 وقال باكيـــا مترعـــج ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ البقرة-الآية 17، ثم خر مغشيا عليه من الوجـــد والفـــيض وهو يتمتم في سكينة ووقار ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ النساء-الآية 174 ثم اجتمع عليه القـــوم والمريـــدين وهـــم

يضحون: ﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾القصص-الآية 29، ومع الأيام وضع في المصلى مشعلا أكبر والتف هو ومريديه حوله وعليه وأظهروا من الكرامات والخوارق الشيء العظيم شفي العليـــل ورد على المجنون عقله وأوقف الصلاة بالمصلى وأسقطها على المرضى والعـــاجزين وقال ببركة النور كنتم لكم شيخا ومحبا وصرخ بأعلى صـــوته: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾نوح-الآية 16، قال أنا النور والنـــار هـــي السراج و من قال غير ذلك فقد كذب وكان يقف على المنبر ويكلم الناس كلاما عجبا ومن كلامه مرة ذكر صاحب المزرعة وكيف أنه أغفل عبـــادة الله وتـــرك أحكام التتريل الخفية وأنه يصلي ولا يحتذي بالنار كمـــا قـــال نـــور الســـموات والأرض، وأن هذا الغافل عن الباطن والتأويل تجاهل حكمـــة النـــار والنـــور وأن صاحب المزرعة يعبد النور ونحن نعبد النار لأنها مصدر لكل نور كـــان ذلـــك في السماء والأرض تحتهما أو فوقهما لأن الذي يعلم النار والنور فبهت الجميع مـــن كلامه وأنه من الأسرار اللدنية والخفايا السرمدية والبحور النورانية وتجليات النـــار والأنوار في العباد. وشرع صاحب المزرعة يجادل عن مزرعته ويظهر الحجة والبيان في صدقه وصرخ في الحاضرين أن البعض من هؤلاء انحرف عن مهامه ووظائفـــه وعوض أن يغرس عنبا و أقحوانا غرس حشيشا وكوكـــايين، ومـــا شـــابه مـــن المخدرات والمسكرات والمهلوسات ثم استشاط غضبا وقرر طرد البغاة من مزرعته وتدخل آخرون وقرروا أن يصلحوا بين المتخاصمين غضب صاحب المزرعة وقال: لقد أخل الأجراء بالعقد وعوض أن ينتجوا قمحا وذرة أنتجوا حشيشا وكوكايين

وخمرا وحبوبا هلوسة ورد زعيم الخصوم بقوة: نحن إخوة وتشـــاركنا في الـــزرع والبذر ودخلنا المزرعة برضى صاحبها أما دعواه بأننا ننتج حشيشـــا وكوكـــايين وخمرا باطل، من وجوه متعددة نحن ننتج أسرارا ســـرمدية ومكنونـــات نورانيـــة ونتواصل مع الفردوس و طلاسمه الجلية و لنا من الألواح الخفية والحقائق النورانية ما لا عين رأت ولا خطر على قلب بشر. فذهل الحاضرون مـــن هـــذه التـــرانيم السجية ووصفوا صاحب المزرعة بالغفلة والجهل وأخبروه أنـــه يجهـــل الأســـرار والكامن من الربوبية قال صاحب المزرعة: يا عالم إنهم ينتجون حشيشا وكوكايين وخمورا وهلوسة وضياعا ويزرعون في أبنائكم الغفلة والشـــرود والهـــذيان فقـــام الحاضرون بجره وضربه، وسحلوه وشجوا رأسه وأسالوا دمه وفي حشرجة المـــوت صرخ صرخة الفناء: لا تدخلوا الغريب مزارعكم احرثـــوا أرضـــكم بشـــفاهكم وعيونكم واسقوا حرثكم بدموعكم واحضنوا أرضكم بدمائكم لأن الغريـــب إذا دخل مزرعتكم في غفلة منكم لا يرحمكم لا أنتم ولا أطفالكم وستلعنكم الأبنـــاء والأحفاد هذا إن بقي لكم أبناء و أحفادا يذكرونكم أو حتى يلعنونكم و بعد زمن افتقد نزلاء المزرعة شيخهم فاختلفوا قوم قالوا إنه رفع وقوم قالوا إنه في جبل فيـــه عسل وماء وقوم قالوا هو في السراديب العلوية أما من كان خارج المزرعة فاختلفوا في أمره طائفة قالت إنه من أهل الذكر والولاية وطائفة قالوا إنه من أهـــل الجهـــل والغواية وطائفة توقفت في أمره و قالوا بدأ حياته بالضـــلالة وانتـــهى إلى الهـــدى والهداية". كلمة حق يراد بها الباطل والضلال كما قال سيدنا علي كرم الله وجهه، كم هي الأفكار التي نعتقد بصحتها وهي الموت والفناء كم هي المقـــولات الـــتي نتوهم فيها الصدق والإيمان وهي في الأصل الضلال والهلاك. تعارف المغاربة على ثوابت وأصول عامة يتقيد بها المتعلم الذي شرع في تحصيل العلم الشرعي، نتـــذكر

ونحن في الصغر كيف نردد في المحضرة القرآنية متن ابن عاشر وهذا البيت الجميـــل الذي كنا نتغنى به ونحفظه.

في عقد الأشعري وفقه مالك وفي طريقة الجنيد السالك

نتقل كثرة الأقوال وتناقضها في تعريف لفظ صوفي أنه من الصوفة لأن الصوفي مع الله كالصوفة المطروحة لاستسلامه لله تعالى، من الصِّفة إذ أن التصوف هو اتصاف بمحاسن الأخلاق والصفات، ترك المذموم منه ومن الصُفّة، لأن صاحبه تابعٌ لأهل الصُفّة الذين هم الرعيل الأول من رجال التصوف وهم مجموعة من المساكين الفقراء كانوا يقيمون في المسجد النبوي الشريف ويعطيهم رسول الله من الصدقات والزكاة طعامهم ولباسهم، من الصف فكأنهم في الصف الأول بقلوبهم من حيث حضورهم مع الله وتسابقهم في سائر الطاعات، من الصوف لأنهم كانوا يؤثرون لبس الصوف الخشن للتقشف، من الصفاء، فلفظة صوفي على وزن عوفي أي: عافاه الله فعوفي ولفظ صوفي لهما وقع سمعي واحد، الأصل أن اللفظ مستمد من المصطلح اليوناني وهو Soufisme ومعناها العام هو الحكمة وهو دخيل على اللغة العربية ولم ينتبه المسلمون والعرب لمصدره فرجعوا للتأويل وتحريف المعنى عن مقاصده. قلنا أن الكاشف عن الدخيل في الثقافة الإسلامية هو النظر إلى البنيات المركبة للمعرفة والصوفية دون جهد هي فكر أفلاطوني يثبت نفسه بنفسه، صوفية الإسلام المتفلسفة لها نفس القواعد البنائية للتصوف اليهودي والمسيحي والهندي، التجلي والوضوح حاصل بأخذها للنظريات الفلسفية الإشراقية القائمة على معتقد وحدة الوجود ونظرية الاتحاد، هي أفكار بالجملة وثنية ظهرت في أثواب دينية يهودية و مسيحية وكذلك إسلامية والآخذ بها من المسلمين ليس

له دليل صريح لا من كتاب ولا سنة ونقول لهم ما قاله السابقون وما يقوله اللاحقون هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين. سنعرض في هذه المشكلة التصوف كتجربة إنسانية عامة ونقف عند المسلمين وحكمة الزهد التي لم يذمها أحد ثم نشأة التصوف الإسلامي كمشروع روحي منتظم ومنضبط بقواعد الشريعة مع ذكر جهد الإمام الجنيد ثم الغزو الفكري الذي جاء أيام الفتح الإسلامي ودخول قوميات وأجناس مثقلة متنوعة الملل والنحل. هذا أحدث ثقافة وافدة كان لها ذلك الأثر السلبي القاتل الذي ساهم في وجود الطرق المنحرفة الخارجة عن منهج السلف كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، تجلى ذلك عند المتصوفة المتفلسفة كابن عربي وغيره و الأمة الإسلامية تجني الآن حصاده المر متمثلا في الخرافة والوهم ومسالك الهذيان في الفكر والسلوك. الإشكالية أن تشخيص علة انحراف الفكر الصوفي عن الحق تبقى غائبة والآن نستطيع بفضل الله تبارك وتعالى أن نرفع اللبس والغموض عنها، قلنا ونعيد أن المرض والوباء القاتل جاء من القراءة الخاطئة للفكر اليوناني خاصة ثم التأثر بالتراكم السفسطائي اليهودي والمسيحي والمجوسي وما يتبع من ملل ونحل وجدت أرضا خصبة في فكرنا. المسألة في غاية البساطة التصوف قبل أن يكون عقيدة وشريعة كان مسلكا فلسفيا ورؤية خاصة للكون والوجود والرؤية الوحيدة والمتاحة في العصور الإسلامية الأولى ومازالت إلى الآن هي الرؤية الفلسفية اليونانية سقراطية كانت أو غيرها من أفلاطونية وأرسطية، هذه الفلسفة كانت سببا في نشأة الفرق الكلامية والطرق الصوفية المتفلسفة وحتى في ظهور ديانات تسمت باسم الإسلام ونكتفي بمثال واحد، الخليفة الرابع لما يسمى بالجماعة الاسلامية الأحمدية وهي جماعة حديثة منشقة لها دين وثني وهي من ميراث الفكر الشيعي الضال يزعم أن سقراط كان نبيا للآلهة الإغريق القدامى

وأنه كان مهبط الوحي و أنه قام بدور المرشد الأخلاقي، يسترسل في هذه الأقوال دون برهان ولا حجة وكعادة هؤلاء لا يحسنون إلا بناء المغالطات والمفارقات، سمعت بعض المغفلين السذج البلهاء يترضون على أفلاطون وهذا من إفراط الحمق والبلاهة العقلية، الظاهر أن هذا الخليفة الرابع المزعوم وغيره غير ملمين بالفلسفة اليونانية ولا ثقافتها، قدم أفلاطون رؤية للوجود والإنسان تعتقد أن هناك فصلا تاما بين النفس والجسم والدليل قصيدة ابن سينا في النفس كمثال واضح من آلاف الأمثلة والشواهد على غوص الفكر الاسلامي في الأنساق العامة والبنيات الفكرية الأرسطية والأفلاطونية خاصة في الفكر الصوفي قديمه وحديثه.

هبطت عليك من المكان الأرفع . . . . ورقاء ذات تعزُّزٍ وتمنعِ

محجوبةٍ عن كلِ مقلة نـــاظر. . . وهي التي سفرت ولم تتبرقعِ

هذه النظرية كانت سببا في نشأة التصوف اليهودي والرهبانية في المسيحية والمشكلة أنها ساهمت في نشأة التصوف الإسلامي وبنت صرحها على قاعدة كلمة حق يراد به باطل، الحق هنا الزهد الذي لا ينفصل عن فكرة التواضع والباطل هـــو بناء قاعدة سلوكية باطلة، أن الإنسان يجد لذته في سكون النفس وتواترها بعيـــدا عن مكامن ومطالب الجسم، فشرعوا في قتل المطالب المشروعة والمستحقة تحـــت هالة من النصوص المقدسة، الصحيح يؤول وهو عندهم قليل والكـــثير وضـــعوه ولفقوه. الآن وبالبرهان القاطع من الوحي الصحيح وعلم النفس الصريح أن ثنائية النفس والجسم أكبر أكذوبة فلسفية وأن هذه الأوهام مجتمعة هي حصـــاد الفكـــر

الأفلاطوني الذي اندس في عالم الأفكار الإسلامية بعد دخول الأمم الوافدة علـــى الحضارة العربية الإسلامية.

نشأة التصوف وتطوره في الفكر الإنساني: عن أبي هريرة رضي الله عنــه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله قال: "من عادى لي وليا فقــد آذنتــه بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي من ما افترضت عليه، ومــا يــزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصره به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن ســألني أعطيتــه، ولأن استعاذني لأعيذه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفــس المــؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته". رواه البخاري. قال ابن القيم الجوزية: "التصــوف مذهب معروف يزيد على الزهد ويدل على الفرق بينهما أن الزهد لم يذمه أحــد، وقد ذموا التصوف على ما سيأتي ذكره، وصنف لهم عبد كريم بن هوازن القشيري كتاب الرسالة فذكر فيها العجائب من الكلام في الفناء والبقاء والقبض والبســط والوقت والحال والوجد و الوجود. إلى غير ذلك من التخليط الذي ليس بشـــيء. "من الصعب أن نجد للتصوف تعريفا، بين القشيري أنه لا تعريف له وما ذكر يحمل على الصفات فقط ومن تعريف المتصوفة له: "الصوفي هو الذي صفا من الكــدر، وامتلأ من الفكر وانقطع إلى على البشر، و استوى عنده الذهب والمدر، والحريــر والبر". قالوا كذلك: "إن الصوفي من لبس الصوف على الصفا وأطعم الهوى ذوق الجفا، وكانت الدنيا منه على القفا وسلك منهاج المصطفى". الكلام الجامع المــانع في بيان التصوف لخصه ابن خلدون في قوله: "بَدَأَ حُرْقَةً وَانْتَهَى خِرْقَة". بهذا المعنى تكون بدايته زهدا ونهايته خرافة ووهما وغلطا عظيما، قال علي سامي النشار: "أنا

لا أنكر أن التصوف -في دوره الفلسفي-أخذ يتلمس آرائه ونظرياته من مختلـــف الثقافات مسيحية ويهودية و غنوصية -ديانة مسيحية -بقي الاثنين إســـلاميين - الزهد والتصوف-وفي مرحلة التطور انقسم -كما قلت-إلى قسمين قسم مســـلم بحت، وقسم فلسفي ابتعد عن الإسلام وبعد تحليل وذكر التصوف الفلسفي يقول: "وأن لا أنكر أبدا وجود صلات بين الصوفية والشيعة من ناحية ووجود صـــلات بين أنواع من التصوف وأنواع من التشيع". نجد أن هناك التباس حاصل في اللفـــظ على عمومه، الأقرب إلى البحث العلمي أنه مشتق من اللفظ اليوناني Sophisme كما ذكرنا، مع ضرورة التمييز بين التصوف الصادر عن الشريعة وهو لا خـــلاف في صدقه على خلاف الممتزج بالديانات والفلســـفات الـــذي قـــاد إلى البـــدع والضلالات.

التصوف السني تجربة ذوقية إسلامية: أجمعت مصادر الفكر الإســـلامي قديمها وحديثها أن عبد الله سعيد الثوري كان عالم الأمة وعابدها كما قـــال أبـــو نعيم وقال فيه كذلك: "كان العلم حليفه والزهد أليفه نشأ ســـفيان في رحـــاب الكوفة فكان في زمانه محدث الأمة، ثم وصل إلى أوج الفقه وكان المفـــتي وأســـس مذهبا فقهيا إلا أن حياة الزهد منعته من نشره، ذكر عبد الله بن مبـــارك الزاهـــد فقال: "ما رأيت أفضل من سفيان ولا أرى سفيان مثل نفسه". اعتبره إبراهيم بـــن أدهم إمام الزهاد توفي عام 161 هــ عابدا عارفا". ظهر التصوف السني كثـــورة اجتماعية على الترف وحياة اللهو التي انتقلت من الحضارات اليونانية والفارســـية والهندية، مع العلم أنه تم التصدي للفلسفات الزاحفة التي أخذت في احتلال عقول الضعاف، ظهر التصدي في انتشار حالة من الزهد تذكر بحياة النبي صلى الله عليـــه

وسلم. سئل الإمام الجنيد -رحمه الله-عن التصوف فقال: "الخروج عن كل خلـــق رديء، والدخول في كل خلق سني". وكذلك قال: "مذهبنا هذا مقيد بالأصـــول الكتاب والسنة". طريقة الجنيد السالك ملخصها: "علمنا منوط بالكتاب والســـنة، ومن لم يحفظ الكتاب ويكتب الحديث ولم يتفقه لا يقتدى به". هكذا يكون قـــد أسس صوفية العمل والجهاد، لا صوفية المحدثات والموبقات، تدعم منهجه بأعلام الكتاب والسنة ممن سلك طريق الزهد وعرف الولاية التي نـــص عليهـــا حـــديث البخاري يقول الحسين النوري: "ومن رأيته يدعي حالته لا يدل عليها دليـــل ولا يشهد لها حفظ ظاهر فأتهمه على دينه". وقال الجريري: أمرنا هذا كله مجموع على فضل واحد، وهو أن تلزم قلبك المراقبة، ويكون العلم ظاهرك قائما هؤلاء أعـــلام الصوفية اتفقوا على أن العلم هو الكتاب والسنة يقول أبي جعفر-رضي الله عنـــه- وهو من أعلامهم: "من لم يزن أقواله وأفعاله وأحواله بالكتاب والسنة ولم يتـــهم خاطره، فلا تعده في ديوان الرجال".

التصوف و الفلسفات الوافدة: انتشر الرهبان والقسس في جزيرة العرب قبل الإسلام فاعتنق الغساسنة وأهل نجران المسيحية، وعرف العـــرب الرهبانيـــة، ومنهم من أخذ بالتصوف المسيحي ويظهر ذلك في شخص ورقة بن نوفل ويذكر أهل السير قصة الراهب بحيرا وكيف تعرف على النبي صلى الله عليـــه وســـلم في السيرة وكذلك تنصر عبيد الله بن جحش، كان على ملة الإسلام وأنه هـــاجر إلى الحبشة وارتد وعاش فيها نصرانيا، مع وجود اليهود العرب وهؤلاء لهم مدارســـهم الصوفية، لرفع الغموض نقسم الصوفية إلى صنفين صوفية متفلسفة هؤلاء وجـــدوا قبل الإسلام وبعده مع وجود فارق وهو إحداث عملية تمويـــه وقـــراءة إســـلامية

لأفكارهم، وغرضهم إحداث القبول فقط، وصوفية الكتاب والسنة وهي ناصعة لا لبس ولا غموض فيها.

1-**التصوف تراث مشترك بين الملل والنحل:** قبل الإسلام وفي الحضارات القديمة كان للتجربة الصوفية أسماء، فهناك التصوف اليهـــودي بمدارســـه، الرهبانيـــة المسيحية بطوائفها، الميراث اليوناني متجليا في نظرية أفلاطون في الـــنفس الـــتي أقامها على أسطورة عالم المثل، كذلك الأفلاطونية الحديثة وتأسيس المدرســـة الرواقية، نجده واضحا جليا في الفلسفة الهندية وما تعلق بها من وثنية قائمة على تشييد الأضرحة ونكتشف في ديانة بوذا ما يسمى بحالة النرفانا، هي الحركات الغريبة التي يأتيها البعض بدعوى الوجد، والأثر الأكثر جـــاء مـــن الثقافـــات وديانات الفرس كالزرادشتية و المانوية، نجدها في مسالك الصـــوفية المتفلســـفة كالتوسل بالأموات وبناء الأضرحة والقيام بالطقوس، كالمسيرات والقربان وهو تقديم الزيارة، كلها ثقافة شركية مشتركة، يتأسف ابن القيم الجوزية مما آلـــت إليه أحوال هؤلاء فيقول: "فمهمتهم دوران المطبخ والطعام والماء المبرد، فـــأين جوع بشر، وأين ورع سري، وأين جد الجنيد؟ هؤلاء أكثر زمانهم ينقضـــي في التفكه بالحديث أو زيارة أبناء الدنيا".

2-**تطور التصوف إلى الفناء والحلول والشطح وفلسفة ابن عربي:** يـــروي ابـــن القيم الجوزية عن أحمد بن حنبل -رضي الله عنه-أنه سمـــع كـــلام الحـــارث المحاسب فقال لصاحب له: لا أرى لك أن تجالسهم، وعن ســـعيد بـــن عمـــر البرذعي قال: شهدت أبا زرعة وقد سأل عن الحارث المحاسب وكتبه، فقـــال للسائل: إياك وهذه الكتب كتب بدع وضلالات عليك بـــالأثر،

فإن تجد فيه ما يغنيك عن هذه الكتب. قال: بلغكم أن مالك بن أنس وسفيان الثوري، و الأوزاعي والأئمة المتقدمة، صنفوا هذه الكتب في الخطرات والوساوس. ثم قال: ما أسرع الناس إلى البدع". هذه الآراء لها يبررها بالنظر إلى ما كتبه أئمتهم كالسهر وردي وبن عربي والغزالي في مرحلة من حياته، قبل أن يرجع في آخر حياته إلى منهج السنة والجماعة، ذكر أهل التاريخ أن الإمام الغزالي في آخر حياته عكف على قراءة صحيح البخاري، هذه الترهات التي أخذ بها الصوفية المتفلسفة ردت ورفضت فقد ذكر الهجويري في كتابه كشف المحجوب ص257: "وهذه ترهات أرباب اللسان في وقت عبادة العبارة" العبارات الصوفية الممتزجة بالأفلاطونية اكتسحت هذا الفكر وجعلته معولا يهدم بناء الأمة. أدخلوا ثقافة الهنود الوثنية في وحدة الوجود وحولوا المجتمعات إلى حلق الشطح وهستيريا التخلف، من الذين ساهموا في بناء هذا الركام محيي الدين ابن عربي وفلسفته الغنوصية و وحدة الوجود 1165-1241م هو محي الدين بن علي بن عبد الله العربي، من أشهر المتصوفة المتفلسفة، عرف عند أتباعه بلقب الشيخ الأكبر، في بداية حياته تعرض لمرض تغيرت حياته بعده، تحول إلى زاهد وانقطع للعبادة والخلوة، ترك الأندلس وذهب إلى تونس ثم بلاد فارس تعرف على ميراثهم الثقافي وفكرهم المجوسي الرافضي، وضع كتابه الإسراء إلى مقام الأسرى، ثم تجول في العالم الإسلامي فزار القدس، ثم اتجه إلى مكة حاجا ولزم البيت الحرام، كتب تاج الرسائل و روح القدس، شرع في تأليف الفتوحات المكية، ثم استقر في دمشق وتوفي فيها سنة 638هـ تعرض للنقد الشديد من قبل الفقهاء والعلماء فوصفوه بالزندقة، والخروج عن أصول الشريعة. تكاد تجمع الدراسات العلمية الموضوعية أن فكر ابن عربي مزيج هائل

من الثقافات و الديانات. أخضعها لمنهجه وحتى يوفق بينها اعتمد أسلوب الرمز وعمل بالمناهج الباطنية، يعتقد ابن عربي أن الله وجوده مطلق وهو يتجلـــى في الواقع في صوره المتعددة، يعتقد أن الله مصدر الوجود وخالقـــه، أنـــه متفـــرد بالوحدانية وأنه يخرج عن دائرة الإحساس وهو وما خلق شيء واحد. يرى أن خلق الإنسان صادر عن إرادة الله هو خاضع لها بالضرورة، يرى أن الإنســـان العادي لا يصل إلى معرفة الله، يستطيع المتصوف ذلك، لأنه ينظـــر لعـــين الله، يحقق ذلك عن طريق المجاهدة والرياضة التي تؤدي لعملية الكشف. ينفي المعرفة عن العقل والشرح، لأن الصوفي يدرك بكشفه أن الله يضحى بسبب الحلول الله والعالم واحد، هكذا يكون هذا الإنسان روح الكون وسبب وجـــوده، هـــذا يؤدي إلى نتيجة و هي: وجود وحدة شاملة تجمع الكون المخلوق والله. هـــذه الأفكار وغيرها لا تنضبط بمنطق وشريعة، هذه المعارف عنده يدركها الخاصـــة بقوة المشاهدة ثم يخوض في عالم الطلاسم والتعقيد. يقدم سلسلة كشفية تعـــدد أسماؤها كالعرش والعقل الأول والحياة والروح الأعظم والقطب والقلم الأعلى، هذا يتحقق في مطلق تام إلى درجة أننا لا نميز في كلامه بين الـــوهم والحقيقـــة وبين الكذب والصدق، بدأت هذه الأفكار بداية كحالة لا وعي عكست حالة التخلف الفكري والثقافي، لم يفكر هؤلاء أن أفكارهم هذه قد حولت فئـــات اجتماعية إلى كائنات واهمة تعيش حالة هذيان مرضي، فهذه أضرحة تشد إليها الرحال وتزار، هذه طلاسم وحكايات، تلك خوارق تسمى كرامات، هذا يتيه في الصحاري باحثا عن الخضر، هذا يلازم الكتب الصفراء ويبحث عن الاســـم الأعظم الذي يفتح الأبواب، هذا قطب، هذا وتد، هذه حلـــق الـــذكر علـــى طريقتهم العبثية، هذا يهتز كالثعبان، تلك تقفز وتأتي المنكر ولا حرج ولا وجل

فهي تفعل ذلك لترضي سيد مغيب في قبره، لله في خلقه شؤون. يصفه الدكتور علي سامي النشار ابن عربي ناقدا قائلا: "إنه ليس رجل دين إطلاقا ولا رجـــل زهد ولا تصوف بل هو فيلسوف غنوصي" الغنوصـــية Gnose كلمة يونانية من معانيها المعرفة، الأصل أنها حركة دينية عالمية في الفكر القديم وهي فلسفة معقدة باطنية وهي أداة لاكتساب ونقل الفكر الوثني للديانات، هي حركة نقل للميراث الوثني الهندي اليوناني خاصة، تظهر كفلسفات غريبة وهي مزيج مـــن الفكر الإبراهيمي التوراتي التلمودي القديم ومن يدرس هذا الفكر يجد فيه الرؤية اليهودية وأفكارهم عن العالم السماوي. ونظرية ثنائية الكون والخلق، هي فكر وثني عام له أصول كذلك في الفكر الفارسي المجوسي، تقابل بـــين أفعـــال الله الصالحة من جهة وأفعاله الشريرة من جهة أخرى، أسسوا لاهوتا عالميا وثنيـــا ينطبق على الفكر الديني الانساني ككل، حتى نخرج من هذا الغثيان الفكـــري نترك ابن عربي يلخص فكرته:

كنت قبل اليوم أنكر صاحبي إذا لم يكن ديني إلى دينه دان

لقد صار قلبي قابلا كل صورة فمرعى لغزلان ودير لرهبان

وبيت لأوثان وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف قرآن

أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالحب ديني وإيماني

الغنوصية يعتقدون أنهم يمتلكون مفاتيح المعرفة، لهم حقد عظيم على العالم الطبيعي المادي، يعملون على تخريبه، يعتقدون أن البشر سجناء أجسادهم، هذا

القول موثق في الكتب الدينية اليهودية نقرأ هذه العبارة يسوع مُخاطباً يهوذا: "هذا يُغلّفني" حسبما تُشير مخطوطة إنجيل يهوذا الإسخريوطي. تتبع هذا الفكر لا طائل منه هو فكر خرافي وهمي ينضم للحقب الأفلاطونية التي بينا في أكثر من موقع ضعفها وسوءها على العقيدة والاعتقاد. نلخص فلسفة ابن عربي في تصنيف أتباعه لأفكاره وآرائه، له نظرية في وحدة الوجود، يبشر بها الفكر الوثني وتؤسس لفلسفة الطقوس وهستيريا الوجد، من شطح ورقص وحلق تعكس حالة الغياب عن الوعي، نظرية الإنسان الكامل وليس له أي فضل في ابتكارها هي فلسفة أفلاطونية خالصة تقوم على أسطورة النفس الساذجة سذاجة المعتقد الوثني، نظرية ختم الولاية وهي فلسفة لاهوتية يهودية مسيحية لها ثوب الفكر الغنوصي، نظرية الأعيان الثابتة هي فلسفة وحدة الوجود، يحاول بعض الصوفية المتفلسفة في عصرنا أن يضعها في حلة إسلامية ويجعلها من مفاتيح الاعتقاد، كيف يكون لفكر وثني متسلل للعقائد صورة الايمان والتوحيد والله المستعان، ثم نظرية المراتب السبعة، نظرية التزلات الستة، هذه السفسطة خدعت الكثير، خاصة الذين لا علم لهم بالفلسفات اليونانية والهندية بالدفاع عنه لأنهم تأثروا بقوة لغته، قوة اللغة من خدعه، هو يستعمل أساليب غامضة ومبهمة وغير مفهومة فيعتقد الجاهل أنها من فنون الإبداع، هي في الأصل من فنون الخداع ومن يدافع عنه يدعي أن المتلقي لا يفقه اسلوب الشيخ، هو يكتب بلغة الرمز والباطن، نقول أننا نقرأ كتاب ربنا ونفهمه ونقرأ سنة نبينا ونفهمها ونقرأ لغة ابن عربي ولا نفهمها تكون المشكلة في شيخكم لا في أفهمانا. لقد رد على فكره وضلالاته جهابذة الإسلام بالحجج القوية الدامغة وأكثرها حجة ويقينا وثراء شيخ الإسلام ابن تيمية، كان فكره الصارم البتار على دعاة الوثنية ومن شايعهم من باطنية مع ذلك فهو ينصفه في

المواطن التي وافقت الحق ، ابن تيمية استثناه من عمالقة القائلين بوحدة الوجود فقال: "لكن ابن عربي أقربهم إلى الإسلام وأحسن كلاماً في مواضع كثيرة". مجموع الرسائل 176/1 وقال ابن خلدون موضحا: "ومن هؤلاء المتصوفة: ابن عربي، وابن سبعين، وابن برّجان، وأتباعهم، ممن سلك سبيلهم ودان بنحلتهم، ولهم تواليف كثيرة تداولوها، مشحونة من صريح الكفر، ومستهجن البدع وتأويل الظواهر لذلك على أبعد الوجوه وأقبحها، مما يستغرب الناظر فيها من نسبتها إلى الملّة أو عدّها في الشريعة" وهناك من وقف على الحياد في أمره سئل الإمام محي الدين النووي عن الشيخ محي الدين بن عربي فقال: "تلك أمة قد خلت ولكن الذي عندنا أنه يحرم على كل عاقل أن يسيء الظن بأحد من أولياء الله عز وجل ويجب عليه أن يؤول أقوالهم و أفعالهم ما دام لم يلحق بدرجتهم ولا يعجز عن ذلك إلا قليل التوفيق". الرأي الذي أطمئن إليه والله أعلم قول شيخ الاسلام في مقالات ابن عربي: "وهي مع كونها كفرًا فهو أقربهم إلى الإسلام، لما يوجد في كلامه من الكلام الجيد كثيرًا، ولأنه لا يثبت على الاتحاد ثبات غيره، بل هو كثير الاضطراب فيه، وإنما هو قائم مع خياله الواسع الذي يتخيل فيه الحق تارة والباطل أخرى.والله أعلم بما مات عليه مجموع الفتاوى ج2. الصوفية المتفلسفة والباطنية استعانوا بجمالية الأسلوب وقوة التعبير، حتى تخفي الأفكار وتمارس دورها في هدم الشريعة. اعتقد ابن عربي وتوهم وتخيل أن فكره تنجذب إليه القلوب، خاصة إذا كان الخطاب خطاب الحب والعشق الإلهي، هذا يفسر انحراف فكره وكيف أنه جاء كصدى لثقافات دخيلة ولعل من أهمها نظرية وحدة الوجود وهي فلسفة هندية قديمة تعتقد أن الله والوجود واحد فجمال الزهرة من جماله، وضياء الشمس من ضيائه، هي تقود إلى فلسفة ونظرية الحلول التي تفضي حتما إلى الوثنية، وثنية

الصنم المعبود والقبر المشهود. نعم الزهد من الشريعة ومقاصدها ولا يمكن أن نجمل في هذا الحيز زهد النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام بل نكتفي بهذه الشذرات من وصف الصحابي ابن مسعود -رضي الله عنه-لحملة القرآن الكريم: "ينبغي لحامل القرآن الكريم أن يعرف بليله، إذا كان الناس نائمون وبنهاره إذا الناس يفطرون، ويحزنه إذا الناس يفرحون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبصمته إذا الناس يخلطون، وبخشوعه إذا الناس يختالون، وينبغي لحامل القرآن الكريم أن يكون باكيا محزونا، حكيما، عليما سكيتا، ولا ينبغي لحامل القرآن أن يكون جافيا، ولا غافلا ولا صخابا، ولا حديدا". لازم الزهد حملة القرآن قديما وحديثا، كان القراء معالم الزهد والإيمان يعرفوا في الجهاد بهذا النداء: "يا أصحاب القرآن زينوا القرآن بالفعل". من يطلع على ثورة التحرير المباركة يكتشف أن وقودها طلبة الزوايا، حملة الفرقان، الذين يصدق عليهم قوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ 23 سورة الأحزاب، فكانت ثورة الشهداء والأولياء وصفهم ربهم بقوله: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ 62 سورة يونس، نعم كانت حياة النبي هي المنهل والعطاء، أنكر صلى الله عليه وسلم على الصحابيين الجليين عثمان بن مظعون وعبد الله بن عمرو بن العاص صيام الدهر وتعذيب النفس، وقال موبخا الصحابي عكاف بن وداعة حين امتنع عن الزواج: "إن كنت من رهبان النصارى فألحق بهم، وإن كنت منا فمن سنتنا النكاح". ومن الكوارث المتلاحقة على الفكر الإسلامي نجد نظرية الإشراق والكشف، نظرية الصوفي المتفلسف السهر وردي 1155-1191م عرف أصحاب التراجم قالوا: "هو شهاب الدين بن حبش جمع

التصوف والفلسفة في طابع إسلامي عام، مهد للدروشة والخروج عن المألوف والطبيعة، كان قذر الهيئة لا يغسل له ثوبا ولا جسما، ولا يقص شعرا ولا ظفرا، نقم عليه العامة والخاصة، لأحواله الغريبة، من أشهر مؤلفاته "حكمة الإشراق" أعدمه في حلب الملك الظاهر ابن صلاح الدين الأيوبي". حتى نفهم هذه الحالة نحتاج إلى مناهج متعددة تلقي الضوء على نظرية الإشراق، لابد أن نرصد حالة التخلف التي عايشها هؤلاء والتي تقترن بحالة الإحباط الناتجة عن التمزق الحاصل بوجود الفرق الضالة، وفي مقدمتها الباطنية، التي ساهمت في نشر الأوهام كتقديس الأضرحة والطواف حولها، والبحث عن القبور التي في تربتها الشفاء، وتحت سمائها يستجاب الدعاء، هذه السلوكيات المنحرفة عبرت عن قلة المعرفة والاندفاع مع الأفكار الوثنية السطحية والبسيطة. نظرية الإشراق من الفلسفات الدخيلة والإشراق في اللغة الإضاءة، نقول طلعت الشمس أضاءت، فلسفة الإشراق عند الفلاسفة تقابل الكشف الذي عرفه الجرجاني بقوله: "الاطلاع على ما وراء الحجاب من معاني الغيبية والأمور الحقيقية وجودا وشهودا". هو يتم إما بطريقة حدسية أو إلهامية، الحدس يعني قوة العقل في تحقيق النتائج دون مقدمات كأن نحسن معرفة دون تعلمها، الإلهام في اعتقادهم العلم الذي يقع في القلب عن طريق الفيض، ويفسره الغزالي بأنه نور يقذفه الله في الصدر، أما نظرية السهر وردي فقد لخصها جميل صليبا في قاموسه الفلسفي كما يلي: "لا شيء أظهر من النور، ولا شيء أغنى منه عن التعريف، فالشيء في نظره ينقسم إلى نور وضوء في حقيقة نفسه أي في ذاته، وإلى ما ليس بنور وضوء في حقيقة نفسه، وهو الظلمة، فإن الظلمة عدم النور، أما النور في نفسه ولنفسه فيسمى بالنور المجرد، والنور المحض".

هذه النظرية تعود مسلماتها إلى الميراث الفارسي المجوسي، وثنائية النور والظلام بالإضافة إلى الثقافات الأخرى وخاصة الهندية والمسيحية في صورتها الغنوصية.

السعادة الذوقية جدلية بين العرفان والإلهام: إن الخوض في هذه التناقضات وشرح هذه الفلسفات هو جهد ضائع، عن أبي نجيح العرباض بين سارية رضي الله عنه قال: وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة بليغة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون فقلنا: يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصني قال: "أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد، وأنه من يعش منكم فسيرى اختلاف كثيرا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة". قال الترمذي حديث حسن صحيح.

الإمام الغزالي وفلسفة الزهد والعرفان: الإمام الغزالي حجة الإسلام ومجدد المائة الخامسة 450-505 هــ قال فيه العلماء، قال الإمام الذهبي: "الشيخ الإمام البحر حجة الإسلام وأعجوبة الزمان، زين الدين، أبو حامد صاحب التصنيف والذكاء المفرط". قال الحافظ بن كثير: "برع في علوم كثير، وله مصنفات منتشرة في فنون متعددة فكان من أذكياء العالم في كل ما يتكلم فيه".

شهادة العلماء: قال إمام الحرمين: "الغزالي بحر مغدق". قال ابن الجوزي: "صنف الكتب الحسان في الأصول والفروع، التي انفرد بحسن وضعها وترتيبها وتحقيق الكلام فيها". الإمام الغزالي أثار جدلا واسعا قديما وحديثا، فهنالك من نقم عليه وشكك في عقيدته، ومنهم من نظر في اعتدال، فميز خطأه من صوابه، وهذا هو الراجح يقول شيخ الإسلام: "فمن أخطأ في بعض مسائل الاعتقاد من أهل

الإيمان بالله ورسوله وباليوم الآخر والعمل الصالح. فيغفر الله خطأه، أو يعذبه إن كان منه تفريط في إتباع الحق على قدر دينه، أما تكفير شخص عُلِمَ إيمانه بمجرد الغلط في ذلك فعظيم".

الإمام الغزالي والتصوف: يجد الباحث صعوبة في الوقوف على المصادر الحقيقية لفكر الإمام، لأن هناك كتب نسبت إليه منها كتاب "السر المكتوم" وكذلك "تحسين الظنون" وغيرها كثير، أما منهجه فقد وصفه الشيخ يوسف القرضاوي في كتابه الإمام الغزالي بين مادحيه و قادحيه: "إن الغزالي حين وقف في وجه الفلسفة الغازية لم يقف محاربا لها باعتباره سنيا أو أشعريا أو شافعيا، بل باعتباره مسلم فقط". يلخص الغزالي موقفه كما يلي: "علمت أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة وأن سيرتهم أحسن السير وطريقهم أصوم الطرق وأخلاقهم أزكى الأخلاق. فإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم، مقتبسة من نور مشكاة النبوة -على وجه الأرض-نور يستضاء به".

تجاوز العثرات والزلات وبناء موقف شرعي: سأل فرقد السبخي الحسن البصري -رضي الله عنه- عن شيء فأجابه فقال: إن الفقهاء يخالفونك، فقال الحسن رحمه الله ثكلتك أمك. وهل رأيت فقيها بعينك؟ إنما الفقيه الزاهد في الدنيا، الراغب في الآخرة البصير بدينه، المداوم على عبادة ربه، الورع الكاف نفسه عن أعراض المسلمين، العفيف عن أموالهم، الناصح لجماعتهم". عرف ابن خلدون التصوف بقوله: "أحد العلوم الشرعية الحادثة في الملة، وأصله العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخارف الدنيا وزينتها والانفراد عن الخلق

وهذه الصفات كانت عامة في الصحابة والسلف، ولما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وبعده اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة".

موقف شيخ الإسلام ابن تيمية: لم ينكر طريقة الصوفية في أصلها بل أثنى على مشايخها، الذين استقاموا على الطريق وعدهم من أهل السلف، وقد نقل في الاستقامة مقولة القشيري: "اعلموا أن شيوخ هذه الطائفة بنو قواعد أمرهم على أصول صحيحة في التوحيد و صانوا بها عقائدهم عن البدع، ودانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السنة من توحيد، ليس فيه تمثيل ولا تعطيل". علق شيخ الإسلام قائلا هذا كلام صحيح، فإن كلام أئمة المشايخ الذين لهم في الأمة لسان صدق كانوا على ما كان عليه السلف وأهل السنة. "ولما تكلم القشيري عن الجنيد رحمه الله علق شيخ الإسلام قائلا: "وهذا من أصول السنة، وأئمة المشايخ، خصوصا مشايخ الصوفية، فإن أصل طريقتهم الإرادة التي هي أساس العمل، فهم في الإرادات والعبادات والأعمال والأخلاق أعظم رسوخا منهم في المقالات والعلوم".

الرجوع إلى فلسفة العلوم: الزهد أصيل في الإسلام ويعتبر من روافده المعطاءة. كان له وضع في حياة السلف و تعاقب في الأجيال كحكمة وطريقة حياة ومع توسع الأمة وامتزاج الثقافات الوافدة ظهر في أشكال مختلفة، منها التصوف الفلسفي وهو لفظ عام لا يحده معنى أو مفهوم، فانتسب إليه كثير صالح وطالح واختلفت زاوية الرؤية ومنهج العمل. البعض وجد فيه الإيمان والإحسان وتمثل بطريقة الجنيد السالك وسلك مسالك التقوى والعرفان، وآخر رصد الانحراف وسجله فناصبه الكره والعداء. غابت الدراسات العلمية الموضوعية، ظهرت الكتابات المشحونة بالانفعال فظلم من ظلم ورفع من رفع بغير وجه حق،

ووجدت الفرق الضالة فرصتها فشحنت الصوفية المنحرفة ببدعها ومنكراتها العظيمة، كقولهم بهتانا وزوراً أن الولاية تسبق النبوة. نصل إلى النتيجة الخاتمة الآراء الصوفية مجتمعة لا تخلو من الميراث اليوناني قل أو كثر ونضع خارطة طريق للخروج من هذا الركام، وهو أن العقل الإسلامي يستطيع أن يبني فكرا جديدا بشرط، هو أن يخرج الآن وسريعا من الميراث اليوناني وتراكماته و يكون الرجوع إلى مناهل الشريعة الأولى الصافية الخالصة من الشوائب.

يقول سيد قطب: "إن الفن هو الوجه الآخر للدين". يقول مالك بن نبي: "إن الأفكار بصفتها روح الأعمال التي تعبر عنها أو تسير بوحيها، إنما تتولد من الصور المحسوسة الموجودة في الإطار الاجتماعي، والتي تنعكس في النفس من يعش فيها. وهنا تصبح الصور معنوية يصدر عنها تفكيره. فالجمال الموجود في الإطار الذي يشمل على ألوان وأصوات وروائح وحركات و أشكال، يوحي للإنسان بأفكاره ويطبعها بطابعه الخاص من الذوق الجميل، أو السماجة القبيحة والذوق الجميل الذي ينطبع فيه فكر الفرد، يجد الإنسان في نفسه نزوعا إلى الإحسان في العمل، وتوخيا للكريم من العادات. ولا شك في أن للجمال أهمية اجتماعية هامة، إذا ما اعتبرناه المنبع الذي تنبع منه الأفكار، وتصدر عنه بواسطة تلك الأفكار أعمال الفرد في المجتمع والواقع أن أزهد الأعمال في نظرنا له صلة كبرى بالجمال، فالشيء الواحد قد يختلف تأثيره في المجتمع باختلاف صورته التي تنطق بالجمال، أو تنضح بالقبح ونحن نرى أثر تلك الصورة في تفكير الإنسان وفي عمله وفي السياسة التي يرسمها لنفسه ولعل من الواضح لكل إنسان أننا أصبحنا اليوم نفقد ذوق الجمال، و لو أنه كان موجودا في ثقافتنا إذن لسخرناه لحل مشكلات جزئية تكون في مجموعها جانبا من حياة الإنسان. وعليه فإن فكرة المحيط تدخل في كل عمل فردي أو جماعي في وسط متحضر، ولكنها تدخل ضمنا فقط لا على وجه التحديد الذي نريد القيام به هنا حين نتحدث عن أحد المقومات الثقافة وهو الجمال. والإطار الحضاري بكل محتوياته متصل بذوق الجمال بل أن الجمال هو الإطار الذي يكون أية حضارة، فينبغي أن نلاحظه في أنفسنا". علم الجمال Esthétique يبحث في شروط الجمال ومقاييسه ونظرياته وكذلك يبحث في الأذواق الفنية وفي الحكم على الآثار الفنية، عرف الجرجاني الجمال بقوله: "نعوت

الرحمة والألطاف من الحضرة الإلهية والجمال من الصفات ما يتعلق بالرضا واللطف، وأما الجلال فهو نعوت القهر من الحضرة الإلهية والجلال من الصفات ما يتعلق بالقهر والغضب". تعارف الناس بحكم ثقافتهم العامة أن الله جميل يحب الجمال. الجمال هو القراءة السليمة للكون والوجود مع الالتزام الكلي بالخروج السريع عن المقتضيات الفلسفية القديمة، النظر إلى الوجود العيني الذي يتسق مع تطور العلم ونتائجه لا مع أفكار ميتافيزيقية يونانية نحتاج إلى قطيعة معها، ومن ثمة بناء حالة جمالية جديدة يشهدها السلوك ويفعلها الفعل الانساني. التاجر المسلم بمسلمات الجلال والجمال نقل الدين والتوحيد للبلدان والأمصار وكان فعلهم في الأمم أقوى من وقع السيوف في معارك وملاحم الفتح الاسلامي. الجمال والجلال إبداع الإنسان عرف هربرت ريد الجمال بقوله: "وحدة للعلاقات الشكلية بين الأشياء التي تدركها حواسنا". لذلك اعتقد قدماء اليونان أن الإله يجمع بين الجماليات البشرية الكاملة، وأنه المثال المتكامل السامي للإنسانية لذلك تعلقت الدراسات الجمالية القديمة بالخوارق والمثاليات، يتجلى ذلك في الملاحم الأسطورية، أما في تاريخنا الحديث والمعاصر فأضحى الجمال مقترنا بالتحولات الاجتماعية والاكتشافات العلمية، أما لفظ الجلال فهو يعني في اللغة العظمة والكبرياء والجليل هو المتصف بالجلال بمعنى الرائع المتميز، الذي يأخذ بمجامع العقول و يتجلى الجمال والجلال في الانفعال و التعبير أرسل معاوية -رضي الله عنه -إلى الأحنف بن قيس، فقال: يا أبا بحر ما تقول في الولد؟ قال: ثمار قلوبنا وعماد ظهورنا، ونحن لهم أرض ذليلة، وسماء ظليلة، فإن طلبوا فأعطهم، وإن غضبوا فأرضهم، يمنحوك ودهم، ويحبوك جهدهم ولا تكن عليهم ثقيلا، فيملوا حياتك ويحبوا وفاتك". هناك اقتران بين الحب والجمال، إن أجمل ما عند الأم أبناءها، وأجمل الأشياء عندنا

هي التي نحبها، ولعل أعظمها وأجلها محبة الله تبارك وتعالى يقول ابن القيم الجوزية: "ليس للقلب والروح ألذ و لا أطيب ولا أحلى ولا أنعم من محبة الله والإقبال عليه، وعبادته وحده، وقرة العين به، والأنس بقربه، والشوق إلى لقائه ورؤيتـــه وإن ذرة من هذه اللذة لا يعدل بأمثال الجبال من لذات الدنيا". ومن أقدم النظريات الجمالية نظرية المحاكاة في علم الجمال، هي من أقدم الآراء في الفن وتظهر جلية في الفكـــر الفلسفي اليوناني ونجدها في الأفلاطونية وغيرها، هي لا تخرج عن الأنساق اليونانية القائمة على الثبات وهي فعل إنساني يكتفي فيه المبدع بمحاكاة وتقليد الطبيعـــة، ولقد تطورت بتطور تاريخ الفن ولها وجود في الفنون المعاصـــرة يقـــول الفنـــان دافنشي: "أنا المحاكي الوحيد لكل الأعمال المرئية في الطبيعة". إنه يمتلك قدرة هائلة على التقليد وبناء الصورة منقولة من الواقع، يقول المفكر الفرنسي ديـــدارو: "إن أروع لوحة فنية ليست إلا تقليدا ضعيفا للوحة الطبيعة، الطبيعة هي أرقى من الفن ولا يستطيع الفنان أن يبدع إنتاجا يكون بغناه وسحر ألوانه وبنســـبه المتنوعـــة أن يفوق الطبيعة". كذلك نجد في القرن التاسع عشر ما يعرف بالفن الانطباعي، هـــو تعبير دقيق عن تألق الضوء على السطوح الملونة، هذه المدرسة كان لها أثـــر علـــى الآداب يقول شكسبير: "إن غاية التمثيل والمحاكاة كانت وستظل هي حمل مـــرآة أمام الطبيعة". نجد أن لفظ المرآة ورد عند أفلاطون في الجمهورية فهو يقـــول: "إن الشاعر أو المصور إلى جانب إنتاجه لكل أنواع الأشياء الصناعية يستطيع أن يبدع النباتات والحيوانات ونفسه أيضا والأرض والسماء والأجرام السماوية وكل ما في جوف الأرض في العالم الأدنى وسبيله إلى ذلك هو أن يأخذ المـــرآة ويـــديرها في جميع الاتجاهات". يظهر تاريخ علم الجمال أن أرسطو قد وضع ما يعرف بنظريـــة محاكاة الجوهر فهو يقول: "ليس من مهمة الشاعر أن يروي ما حدث". وبين ذلك

بقوله: "الشعر شيء أقرب إلى الروح الفلسفية من التاريخ وأرفع منه إذ أن الشعر يتجه إلى التعبير عن الكلي بينما التاريخ يعبر عن الجزئي". يطالب أرسطو من المبدع أن يُضمن تجربته الإنسانية في عمله الفني. إن القول بأن الإبداع الفني يكون بالتقليد والمحاكاة هو قول بسيط، لأن جمال الطبيعة كامن في ماهيته ووجوده، والإبداع الخالص هو أثر الفنان في العمل وقدرته على بناء الصور ورسم ظلال جديدة. ومن الآراء المعاصرة التي أرادت تجاوز الثبات نجد حدسية برغسون وهو لم يكتب كتابا خاصا بالفن، مع ذكره الشديد للمشكلات الجمالية، لأنه نظر للعالم والنفس الإنسانية نظرة فيلسوف مدرك للقيم الجماعية، فلما أراد أن يقيم الفكر الجمالي عند رافسون قال: "إن فلسفة السيد رافسون كلها مشتقة من الفكرة القائلة: الفن ميتافيزيقا مصورة، وأنها عبادة عن تفكير في الفن، وأن نفس الوجدان الذي يستخدم استخداما متباينا هو الذي يخلق الفيلسوف العميق والفنان العظيم". يقاسمه الموقف ويذكر فلسفته في الفن قائلا: "الفن الحق يهدف إلى تصوير فردية النموذج، ولهذا فهو يبحث خلف الخطوط التي نراها عن الحركة التي لا نراها أصلا، ويبحث خلف الحركة نفسها عن شيء هو أكثر سرية وغموضا". نكتشف في نظريته المعرفة الجماعية الجمالية باعتبارها مقدمة للمعرفة الميتافيزيقية، ونموذجا لها ولتبسيط موقفه نرى أن العالم المادي الذي ندركه بحواسنا لا يتحقق كفعل فني إلا لما نسقط عليه عالم الحدس والشعور، إن الفنان الذي يختص برسم الطبيعة الميتة يبدع لما يضع أمام الناظر لوحة معبرة عن قطع فاكهة متناثرة، إن المشهد الحدسي هنا الإسقاط الذي يرتسم كظلال على الصورة المدركة وحتى لا نغوص في الحالة الشعورية ونفقدها وجودها وصدقها. فصل عالم الجمال الإيطالي بنديتي كروتشه بين المنطق والحدس لأن القاسم المشترك بينهما هو التمييز، لأن الجمال يتقدم التعبير

وهذا خاضع بالضرورة لقوة العقل والتعبير يتميز بخاصية الإبداع وهي القدرة على البناء ورسم الظلال الجمالية، إن المتذوق للشعر العربي القديم يحتـــاج إلى إعمـــال العقل حتى يسافر بين المعاني والكلمات فيغوص في المعنى والدلالة ، يفقـــه مـــثلا الوقوف على الأطلال ويعايش الشاعر في مدحه ورثائه، إن فلسفة الحدث تنـــدرج ضمن التحليلات الفلسفية، مع العلم أن إمكانية التمييز بين العقل والشـــعور غـــير متاحة، إن الحالة الشعورية هي تجليات النفس في الواقع وعالم النفس أوسع من أن يحاط بصورة فنية جاءت كرسم أو قصيدة. وهذا يقود للتســـاؤل التـــالي: هـــل الإبداع كحالة إنسانية نفسره بقوة العقل أم عمق الخبرة أم شـــدة الممارســـة؟ إن العالم انبهر بشخصية مبدعة هي ستيفين هوكنج Stephen Hawking، وهـــو يملأ الدنيا علما وثقافة ولد سنة 1942م ببريطانيا يعاني إعاقة شديدة حيث فقـــد القدرة في التحكم في أعضائه، فهو يتحرك على كرسي ذي عجلات ويســـتخدم الحاسوب في الكتابة ومحادثة الآخرين قال يوما: "إذا استعطت أن تفهم كيف يعمل الكون، فستتمكن من السيطرة عليه". وهو الآن أشهر علماء الفيزيـــاء وأكثـــرهم شهرة بعد أينشتاين، عمل في مجال النظرية النسبية، وبحث ظاهرة الثقوب الســـوداء الفلكية، ثم قام بمقاربة علمية بين النسبية والكوانتية وأجمل ما كتب "تاريخ مقتضب للزمن من الانفجار العظيم إلى الثقوب السوداء" وصف المؤلف كتابه بأنه ألحـــان الكون وترانيم الزمن وموسيقى العالم في فكر الإنسان الفيزيائي ومازال يلقى اهتمام الباحثين وتشد شخصيته العالم بأسره. لا نستطيع أبدا أن نضع حدودا مادية بـــين صفات الإبداع والجمال، ولا نستطيع أن نقارب بين الجلال والإلهام ومن الصعوبة بمكان أن نقول أن مصدر هذا الإعجاز هو الإلهام الصادر عن العقـــل والتجربـــة الحسية التي تنضبط بها عوامل الممارسة والخبرة، إن الشخصـــية المبدعـــة المدركـــة

لعظمة الجمال تتجاذب فيها عوامل متعددة لا نمتلك تحديد معالمها يقول العالم الفيزيولوجي ك.بيرنارد: "ليس لدينا قاعدة لتوليد فكرة صحيحة في ذهن العالم". نعم هناك اقتران بين الإلهام و جمال النفس وقوتها، قال أفلاطون في محاورة أينون لما انشغل بالحديث عن إلياذة هوميروس وصرح بأن العبقرية إلهام إن الشاعر كائن أثيري مقدس ذو جناحان، لا يمكن أن يبتكر قبل أن يلهم فيفقد صوابه وعقله ومادام الإنسان يحتفظ بعقله فأنه لا يستطيع أن ينظم الشعر. الأفلاطونية عكست حياة أفلاطون الجمالية كما تصورها بدأ حياته بقرض الشعر ولما وضع فلسفته المثالية رأى أن الشعراء يتلقون شعرهم في صورة إلهام مصدره الإله وهذا يفقدهم الصواب ويبعد عنهم القدرة على التمييز وإعمال العقل. كلام أفلاطون تشرحه أساطير العرب قديما الذين اعتقدوا بوجود ما يعرف بجن الشعر وذكروا في ذلك أساطير وحكايات من نسج الوهم والخيال. دار جدلا واسعا قديما وحديثا بين الفلاسفة وعلماء النفس حول صفة الإلهام ووضعه في النفس البشرية، مع العلم أن هناك إشارات تدل على ذلك: حدث ابن سينا قال: "وكنت أرجع بالليل إلى داري وأضع السراج بين يدي وأعمل بالقراءة والكتابة فمهما غلبني النوم أو شعرت بضعف، عدلت إلى شرب قدح من الشراب ريثما تعود لي قوتي، ثم أرجع إلى القراءة ومتى أخذني أدنى نوم أحلم بتلك المسائل بأعيانها حتى أن كثيرا منها انفتح لي وجوهها". وفي التاريخ الحديث مقولات مشابهة يقول العالم جوس Gauss: "النتيجة عندي ولكني لا أعرف كيف حصلت عليها". ثم قال: "وأخيرا منذ يومين نجحت لأنني بذلت جهودا مضنية، ولكن هبة من الله، كأن إشراقا حدث فجأة، فحُل اللغز" قال باستور: "أجل هذا صحيح لقد أسلمت نفسي حرا طليقا بين الأفكار التي لا يمكن البرهنة عليها بجلاء، تلك هي طريقتي في النظر إلى

الأمور". الإلهام لحظة عابرة وهو لا ينفصل عن الجهد، لذلك من يبني قيمته ويؤكد على أهمية الإرادة والعقل قال أديسون: "الإبداع فيه واحد في المائة إلهام، والباقي جهد وعرق يتصبب" وصف ألفريد نوبل طريقته في العمل قائلا: "أعمل لفترات متقطعة وأترك الموضوع أشعر بأنني سأنجح في النهاية" هذا النجاح هو تحقيق لصناعة تجعل من الابداع مقدمة لتغيير الواقع بالجهد والبحث وكذلك العناء يطبع حياة العالم المبدع، ينظر إلى جمال لمادة وتناسق قوانينها، قام العالم بكيرل Becquerel، بدراسة واسعة عن النشاط الإشعاعي الصادر عن إشعاعات اليورانيوم الخام، وبعد عمل مضني ترك حل هذه المشكلة إلى السيدة كوري وزوجها، فتابعا أعماله ووصل إلى اكتشاف البلونيوم والراديوم. العلم و المعرفة بناء وما يحدث للعلماء وغيرهم من صور توصف بالإلهام هي نتيجة طبيعية لإعمال الفكر في قضايا المعرفة. إن أعظم الاكتشافات جاءت بالجهد المضني قاما ف. بانت نج F. Banting وج. ماكلويد Acleod بأعمال عظيمة للوصول لاكتشاف الأنسولين تاريخ العلم يقدر جهد فلمنج في اكتشاف مادة البنسلين، ولقد بقي العالم اينشتاين سبع سنوات في بحث متصل حتى تيسر له وضع نظرية النسبية، والأمر نفسه نجده في العالم الأدب وضع الشاعر الإنجليزي المعاصر إليوت نظرية نقدية هامة اسمها "المعادل الموضوعي" نفى فيها مبدأ الإلهام وقرر حقيقة العقل والإرادة، اعتقد وبشكل قطعي بعدم وجود حالة إلهام وإن كان هناك إبداع فهو يتم بالعقل والإرادة. من الباحثين من أراد أن يقف وسطا بين نظريتي الإلهام والعقل يقول دولا كروا H.Delacroix: "إن للإلهام وجوده ولكنه لا يكفي لتفسير الإبداع وليست ميزة الفنان أن يقف مسلوب الإرادة أمام وابل الإلهام، بل لعل ميزته الكبرى هو أنه يستطيع أن يمسك بهذا الشروق ويتأمله". هناك من يحلم بأن

يجعل من الابداع صناعة عملية في سنة 1959م، عرفت الدراسات السيكولوجية ما يعرف بنظرية هارس Harris، وهي دراسة علمية جعلت الإبداع منهجية يمكن تلخيصها كما يلي: 1/وجود الحاجة إلى حل مشكلة. 2/جمع المعلومات. 3/التفكير في المشكلة. 4/تخيل الحلول. 5/تحقيق الحل التجريبي. 6/تنفيذ الأفكار. بعد الدراسة قرر أن العبقرية كامنة في قدرة العقل على الانتقال السريع من الخطوة الأولى وهي الحاجة إلى الخطوة الرابعة وهي تخيل الحل تبقى هذه الحلول مجرد فرضيات صورية تفتقر إلى الحجة العلمية المثبتة. الأصل أن الإبداع يتجاوز الذات إلى الموضوع و يتجلى الإبداع الجمالي في مفروشات الهضاب العليا وأزياء السواحل وكرم الضيافة في الصحراء، الجمال ليس مجرد نظريات تدرس في معاهد الفنون الجميلة إنه واقع نشاهده ونلمسه بحواسنا وندركه بعقولنا، وتحتضنه قلوبنا، ونعتز به ونتطاول به على الآخر، لأنه الهوية والانتماء، والبعد الذي نجد فيه الماضي والحاضر وكذلك المستقبل. تنشغل الفلسفات والدراسات الاجتماعية المعاصرة بتفسير وفهم هذه العبارة "الفن العظيم، تنتجه الجماعة العظيمة"، هذا يفسر اندفاع الدول إلى تسجيل وإحياء تراثها الشعبي كإعادة الاعتبار للهجاتها وألسنتها المنطوقة، لأنها كلها روافد ثقافية تصب في مجرى التراث والثقافة الوطنية، مع ضرورة العودة إلى الماضي واسترجاع قداسة التراث الشعبي، وتوثيق الذاكرة الشفوية بالتسجيل السمعي والبصري، كمعرفة رقص الفلاحين وأهازيج الفلاحات والتصوير البدائي. هذا يثبت أن الفن حقل واسع يمقت السكون ويقبل على العطاء المستمر المثمر ويجعل إبداع الفرد من إبداع الجماعة والقرن التاسع عشر أعاد لفكرة الجماعة مكانتها بعد أزمنة طويلة من تأليه الفرد وجعله متعاليا، هذا من نتائج الثورة الفرنسية التي ساهمت في بناء فكر يهتم بالمعاناة ونلمح ذلك مثلا في

الرومانسية الكلاسيكية وكيف أحدثت تغيرات بنائية في مناهجها. الفن والإبداع تراث وميراث الشعب هو الأداة الكبرى التي توسع دائرة الإبداع فهو في السياسة يمثل البطولة، في مجال الفنون الجميلة يظهر في الملاحم كملحمة هوميروس اليونانية أو ملحمة سيف بن ذي يزن في التراث العربي، أو إلياذة الجزائر الخالدة خلود المبدع مفدي زكرياء -رحمه الله- ومن يدرس الأدب العربي يجد نماذج رائعة، كشعر الحماسة وأيام العرب، والجمال المشترك قد يظهر واضحا في الفن الشعبي الفلكلور ويتجلى في صيغه الرمزية، الفن الشعبي في مناطق الهقار يعكس روح الكبرياء والعزة لدى الرجل، والكرامة والشرف لدى المرأة، هذه الأعمال لا يحتكم فيها إلى سلم فني أو نظرية في علم الجمال، إنما تترك للأثر الواقع في النفس وهذا يتشكل بالبداهة والعفوية، بشكل عام يمكن أن نحدد الموروث الفني الاجتماعي بالعوامل التالية: 1/ مؤثرات الجماعة والطبيعة والجنس المشترك. 2/ إبداع الصنع ورسم التقاليد في ظلال التراث المشترك. 3/ الوعي وإدراك قيمة الجمال لدى الجماعة، مع ذلك يبقى الجمال جمال الخالق في مخلوقاته: الله جميل يحب الجمال، وأروعه وأكبره ما أودعه في قلب الإنسان ألا وهو البيان يقول طرفة بن العبد:

لخولة أطلال ببرقة ثهمد ... تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

يقول عنترة بن شداد:

ولقد ذكرتك والرماح نواهل ... مني وبيض الهند تقطر من دمي

فوددت تقبيل السيوف لأنها ... لمعت كبارق ثغرك المبتسم

يصل التعبير الجمالي إلى قمة التعبير العفوي والساذج يقول الشاعر الجاهلي المنخل اليشكري:

وأحبها وتحبني ويحب ناقتها بعيري

بين التعقيد والتبسيط يبقى الجمال واحدا هذا إبداع المخلوق فكيف يكون إبداع وجلال الخالق، يقول تعالى في محكم تنزيله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ 6 سورة النحل، هذا بعض جمال الدنيا. أما جمال الآخرة فلا عين رأت ولا خطر على قلب بشر يقول تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ 26 سورة يونس. جعل الإسلام العقل هو المقياس والسلم الجمالي في البداية سادت حالة من الشك والترقب لما اطلع المسلمون على الميراث العالمي وكيف أنه انطبع بالوثنية التي جسدها النحت خاصة في التراث اليوناني فلم يقلدوا، يشهد التاريخ على أنهم حافظوا على ثقافة الغير وإن كان مندثرا، وخير مثال المحافظة على ميراث الحضارة الفرعونية، يرى المفكر الإسلامي المعاصر محمد قطب أن الحس والذهن يشتركان في تذوق الجمال، لذلك نجد أن الفنان المسلم يتجنب تصوير الإنسان وإنما يعبر بفنه عن جوانب الحياة الجمالية وفيها غنى، العبقرية تسجل جمالية الكون والحياة وهذا العالم الذي لا تنقطع عجائبه.

نلج بهدوء وسكينة ووقار بيت النبي محمد صلى الله عليه وسلم نستمع لمسامرة بينه عليه الصلاة والسلام وزوجه عائشة رضي الله عنها، هي تخبره خبر نساء في الجاهلية تكلمن الكلام الصريح عن أزواجهن بلغة صافية نقية، لا منطق أرسطي فيها و لا فلسفة عبثية، بلسان عربي مبين يجمل ويبين مقاصد علم الألسنية وكيف أن اللغة ليست مجرد كلام مستقيم اسم وفعل وحرف الكلم، بل هي حالة اجتماعية تعبر عن علامات وإشارات، توجز المقال وتظهر المطلوب دون تكلف ولا تصنع ولا تمنطق، لغة تصدر عن الفطرة السليمة والجبلة المستقيمة. الأمل أن نعيد بناء لغة جديدة أو قل ألسنية متجددة، تعيد القدرة للعقل الاسلامي و تفتح كامن المعاني وتحقق معجمية اللسان واللغة والكلام، نستمع للمسامرة والمتكلمة هنا هي أمنا عائشة رضي الله عنها: جلسَ إحدى عشْرَةَ امرأةً فتعاهَدْن وتعَاقدْنَ أن لا يكْتُمْنَ من أخبارِ أزواجِهِنَّ شيئًا قالت الأولى: زوجي لحمُ جملٍ غثٍّ، على رأسِ جَبَلٍ: لا سهلٍ فيُرتَقَى ولا سمينٍ فيُنْتَقَلْ. قالت الثانيةُ: زوجي لا أبُثُّ خَبَرهُ، إنِّي أخافُ أن لا أَذَرَهُ إنْ أذْكُرْهُ أذْكُرُ عُجَرَهُ وَبُجَرَه. قالت الثالثة: زوجِي العَشَنَّقُ، إنْ أنطِقْ أُطَلَّقْ إنْ أَسْكُتْ أُعَلَّقْ. قالتْ الرابعةُ: زوجِي كَلَيلِ تِهَامَةَ لا حرٌّ ولا قُرٌّ، ولا مَخَافَةَ ولا سآمةَ. قالتْ الخامسةُ: زوجي إنْ دخلَ فَهِدَ، إنْ خرجَ أَسِدَ، ولا يسألُ عمَّا عَهِدَ. قالتْ السادسةُ: زوجِي إنْ أكلَ لَفَّ، وإن شربَ أشْتَفَّ، وإنْ اضْطَجَعَ الْتَفَّ، ولا يُولِجُ الكفَّ ليعلَمَ البثَّ. قالتْ السابِعَةُ: زوجي غَيَايَاءُ، وَعَيَايَاءُ، طَبَاقَاءُ، كلُّ داءٍ لهُ داءٌ شَجَّكِ أو فَلَّكِ أو جَمَعَ كلًا لَكِ. قالتْ الثامِنَةُ: زوجِي المسُّ مسُّ أرْنَبٍ، والريحُ ريحُ زَرْنَبٍ. قالت التاسعةُ: زوجِي رفيعُ العماد طويلُ النِّجَادِ، عظِيمُ الرَّمَادِ، قريبُ البيتِ من النَّادِ. قالتْ العاشِرَةُ: زوجِي مالكٌ وما مالكٌ، مالكٌ خيرٌ من ذلكَ، لهُ إبلٌ كثيراتُ المَبَارِكِ، قليلاتُ المَسَارِحِ، وإذا سَمِعْنَ صوتَ المِزْهرِ، أيْقَنَّ

أَنَّهُنَّ هَوَالِكٌ. قالت الحادِيةَ عشْرَةَ: زوجي أبو زَرْعٍ، فمَا أبو زرعٍ، أَنَاسَ من حُلِيٍّ أذني، ومَلأَ منْ شَحْمٍ عَضُدَيَّ و بَجَّحَنِي فَبَجَحَتْ إليَّ نَفْسِي، وجَدني في أهلِ غُنَيْمَةٍ بشِقٍّ، فجَعَلَني في أهلِ صَهِيلٍ وأَطِيطٍ، ودَائِسٍ وَمُنَقٍّ، فعنْدَهُ أقولُ فلا أُقَبَّحُ، وأَرْقُدُ فَأَتَصَبَّحُ، وأشْرَبُ فَأَتَقَنَّحُ. أمُّ أَبِي زرعٍ، فَمَا أمُّ أَبِي زَرْعٍ، عُكُومُهَا رَدَاحٌ، وبيتُهَا فَسَاحٌ. ابنُ أَبِي زرعٍ، فمَا ابنُ أَبِي زرعٍ مَضْجَعُهُ كَمَسَلِّ شَطْبَةٍ، ويُشْبِعُهُ ذِراعُ الجَفْرَةِ. بنتُ أَبِي زرع فمَا بِنْتُ أَبِي زرعٍ طَوْعُ أبيهَا، وَطَوْعُ أمِّهَ، وملءُ كِسَائِهَا، وغيْظُ جَارَتِها. جاريةُ أبي زَرعٍ، فما جاريةُ أبي زرعٍ لا تَبُثُّ حديثَهَا تَبْثِيثًا، ولا تُنَقِّثُ ميْرَتَنَا تَنْقِيثًا، ولا تملأُ بيتَنَا تَعْشِيشًا. قالتْ: خرجَ أبو زرعٍ والأَوْطَابُ تُمْخَضُ، فَلَقِي امرأةً معَهَا ولدانِ لَهَا كالفَهْدَيْنِ يلعبانِ من تحتِ خَصْرِهَا برُمَّانَتَيْنِ، فطَلَّقَنِي ونَكَحَهَا، فنكَحْتُ بعدَهُ رجلًا سريًّا، رَكِبَ شَرِيًّا وأَخذَ خَطِّيًّا، وأَرَاحَ عليَّ نِعمًا ثَرِيًّا، وأعطاني منْ كلِّ رائِحَةٍ زوجًا، وقالَ: كُلِي أمَّ زرعٍ ومِيرِي أهْلَكِ قالتْ: لو جَمَعتُ كلَّ شيءٍ أعطَانيهِ، ما بَلَغَ أصغَرَ آنيَةِ أبي زرعٍ. قالت عائشةُ: قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: (كنْتُ لكِ كأَبِي زرعٍ لأمِّ زرعٍ) الراوي: عائشة أم المؤمنين المحدث: البخاري. هذا الجلال اللغوي في التعبير والأسلوب سره الكم الهائل في العلامات والإشارات اللغوية، وخلو النص من البنيات والتركيبات الفلسفية، هذا الفعل تفتح أفاقه العلوم اللسانية وتخرج النصوص من رتابة وسكون الفهم الواحد المشبع بالإرث الأرسطي الناتج عن فلسفته الخطابية. إن اللسانيات في الفكر المعاصر انقلاب جوهري على كل المفاهيم الكلاسيكية البالية والقراءة اللغوية الباهتة، للفظ والمعنى البسيط المركب انتهى.

هناك عالم آخر نلج، هو عالم العلامة الصوتية، كيف أن الدماغ هو مستودع العلامات، العقل الذي كان يجهد نفسه في وضع المحسنات والأساليب

البيانية ليوصل معنى، هو يتراجع ويتراجع بخطوات مسارعة للصورة، والكلمة. القراءة السيميولوجية تصنع المعجزات، تلك اللغة الثابتة الساكنة الفاقدة للحياة تتلاشى من قواميس الخطاب وكتابة النص بالنمط الأرسطي، فقد وجوده أمام مسار علمي سرعته تكاد تكون غير مشاهدة.المحافظة على قداسة اللفظ والتركيب اللغوي وقواعد الصرف وأساليب الحقيقة والمجاز ثوابت، المشكلة هي في آلية التبليغ والتواصل، في عالمنا الإسلامي قراءة القرآن العظيم والوقوف على معانيه يختص العلم الشرعي بوضعه، الجديد الذي يتيحه علم اللسانيات هو في العرض والتقديم في البناء والتشكيل في نقل المعلومة نقلا صحيحا، يتفق ولغة العصر لأن الثبات على منهج واحد في التقديم يفقد هذا العلم قيمته. لذلك أول وظيفة عاجلة ومستعجلة يجب القيام بها هي تفريغ كتب التفاسير من هذا التراكم الهائل، التخفيف على المتلقي بإدراج وسائل بحثية جديدة في الفهم والنقل وكذلك النقد، لماذا لا نضع تفاسير إلكترونية تمارس تنقية ذاتية للنصوص من الآثار الكاذبة، بمعنى أن المتلقي يتلقى رسائل موثقة شكلا ومضمونا، تودع في دماغه كعلامات تحرك لغته في نسقها العصبي العام، وليس النسق التراكمي الكمي الذي يضم أشتات متناقضة ترسم في الوعي ظلال الشك والتردد، هذا المنهج يطلعنا على ميراث الماضين من زاوية فهم اللسان والتعرف على تطور العلامات اللسانية واللغوية عند الشعوب والأمم المنتظمة في الحلقة العقدية للأمة الإسلامية. من أجل ذلك نأخذ شذرات من العلم الإنساني وأهم قضاياه الفلسفية، بداية اللسانيات هو التاريخ المتعلق بنشوء وتطور علم للسانيات و اللغويات Linguistics و هو يهتم بدراسة اللغات الإنسانية وفهم الخصائص العامة والبحث في أوجه الاتفاق والاختلاف بين اللغات العالمية. وهذا البحث قديم و هناك من يوثقه ويعيده إلى التاريخ الهندي القديم

2500 ق.م حين قام أحد الكهنة قبل ألف ستة من الميلاد هو بانيني Panini قبل ألف سنة من الميلاد قام بعملية تقنين للغة السنسكريتية تقنينا نحويا، ليعتمدها كطقوس دينية والعلم اللساني اقترن بمناهج المقارنة بين اللغات المنطوقة خاصة، والعلامة الفاصلة تأتي مع الباحث ويليام جونز William Jones ساهم في تشكيل بدايات الألسنية المقارنة بالإنجليزية (COMPARATIVE LINGUISTICS) وهذا في نهاية القرن الثامن عشر، بين علاقة الاقتران بين اللغة للاتينية، واليونانية، والسنسكريتية وبين وجود أصوات متشابهة فعلى سبيل المثال كلمة frater اللاتينية، وكلمة phrater اليونانية، وكلمة bhratar في اللغة السنسكريتية تعني كلها أخ وهذا عجل بنشأة الدراسات اللسانية مستقبلا. المشابهة في اللغات اقتربت حتى من المفاهيم البيولوجية فنسمع هذا اللفظ Genetic Relationships وعلى شاكلة الخارطة الجينية البشرية باشروا بتشكيل الأسر اللغوية وهي تضم: السنسكريتية، واليونانية، واللاتينية، والإنجليزية، والألمانية، ولغات أوروبية أخرى متفرعة وأسيوية كذلك ومن أهم الأسر نجد.

1- شجرة لغات الجونكوين: Algonquian لغات سكان أمريكا الشمالية الأصليين.

2- شجرة لغة البانتو: تضم اللغة السواحيلية، والهوسا، والزولو ولغات أفريقية أخرى.

3- شجرة اللغات الأفرو أسيوية: وهي اللغات الحامية السامية وهي العائلة اللغوية الأساسية السائدة في الشمال الإفريقي والشرق الأوسط، وتنقسم إلى خمس عائلات فرعية هي: السامية، والبربرية، والمصرية، والكوشية، والتشادية. اللغة العربية تنتمي إلى العائلة الفرعية للغات السامية.فلسفة العلوم لم تترك البحث

اللساني يغيب عن إبستيمولوجية المعرفة يعتقد الفيلسوف الأمريكي صموئيل كوهن بوجود براديغم اللغة واللسان، اللغة الإنسانية انسيابية تعبر عن فكر وعلم وهي لغة فعل الكينونة الحاضر والموجود بالقوة الحاكمة على الأشياء، لما نقول جاء الصبح لا السجن ولا السجان، العبارة يحملها فعل الكينونة المستتر جاء الصبح الإصباح فعل حصل وانتهى بفعل قوة الوجود، لا السجان فعل حاصل بالفعل والقدرة البشرية، براديغم اللغة هو صب مستودع العلامات في الذهن كبنيات وأطر تحكمية، تنظف منظومة المعلومات الكامنة في الدماغ والجملة العصبية، اللغة ماهية الإنسان ووجوده، هي حلقة التواصل بينه وبين الآخر وهي عالم العلامات الذي يفضي على الحياة غايته وكذلك دلالته. هي ليست مجرد تعبير انفعالي ولا نشاط حيوي بل هي شكل من أشكال التعبير الانفعالي، عرف ابن جني توفي سنة 392 اللغة بقوله: "إنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم". وعرفها سابير Sapir بقوله: "اللغة نظام بشري غير غريزي لتبليغ الأفكار والأحاسيس والرغبات بواسطة رموز مستحدثة بطريقة إرادية". عرفها لالاند: "كل جملة من العلامات يمكن أن تكون وسيلة للاتصال". الكائن الحي بأنواعه يحدث آلية الاتصال، في نوعه كما نجد ذلك مثلا في عالم النحل اكتشف العالم فون فريش Von Frish، أن التواصل في هذا المجتمع يتم بلغة الحركة والإشارة، ونصطلح عليها مجازا بلغة الرقص، فالحركة عندها لها دلالات، كدلالة المسافة، ودلالة اكتشاف الغذاء، ودلالة رد العدوان وهكذا، اتسعت هذه الرؤية بالدراسات الفيزيولوجية التي اشتملت عالم الحيوان و تنوعه، فأثبتت الملاحظات التشريحية على عدم وجود فوارق بين الإنسان و الشامبنزي Chimpanzé هو من أنواع القردة العليا،

إلا أنه يمتلك حوالي ثلاثين صوتا تحقق له لغته الانفعالية وجاءت المشكلة لتطرح نفسها إذا كان يمتلك هذه الأصوات، فلماذا لا يدخل لعالمه الانسجام بالتواصل الصحيح، فيقفز على غريزته ويعبر عن مشاعره بصدق وعفوية؟ أثبت العلم الفيزيولوجي الحقيقة التالية: "الأصم بالولادة، أبكم بالضرورة". لأن في النطق نستعمل الحبال الصوتية الموصولة بالوظائف الدماغية العصبية، نستعين بالرئتين وجميع أعضاء الفم، فإذا فقد الإنسان التواصل السمعي فقد لغته بالضرورة، لأن السمع هو أداة تواصل مع العالم الخارجي وبعد هذه المقاربة نجد أن إمكانية المقارنة بين لغة الحيوان والإنسان معدومة، إن ظهر التشابه في الوظائف الفيزيولوجية فهو تشابه في العرض وليس في الجوهر، مهما بدا سلوك الحيوان معقد، فهو لا يخرج عن الفطرة والغريزة يقول عالم النفس دونالد هب: الاتصال عند الحيوان وظائف حيوية منعكسة لا قصدية". تبقى رسالة الحيوان وعلامته في كل الحالات لا تقبل التفكك والتحليل، اللغة هي التعبير عن التكيف مع التلاؤم مع الواقع ، في حديثه عن غزوة مؤتة روى الإمام البخاري عن أنس -رضي الله عنه-أن النبي صلى الله عليه وسلم نعى زيدا وجعفر وابن رواحه للناس قبل أن يأتيهم خبرهم فقال: "أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذ الراية جعفر فأصيب، ثم أخذ الراية ابن رواحه فأصيب وعيناه تذرفان الدموع، حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله، حتى فتح الله عليهم". نلاحظ إمكانية التمييز، بين نمطين وشكلين من اللغة أولا العلامات الطبيعية و نجدها في عبارة عيناه تذرفان الدموع، وهي لغة طبيعية تجمع بين الإشارات والحركات والأصوات التقليدية والظواهر الجسدية وهي تصاحب الانفعالات وعالم الأفكار، ثانيا العلامات الاصطلاحية و هي

الجامعة للرموز والإشارات المتفق عليها كرموز الجبر والكيمياء ولغة الموسيقى وغيرها. العلم اللساني يطرح السؤال التالي: ما هو وضع الكلام بين العلامتين الطبيعية والاصطلاحية؟ لشرحه نقدم الشواهد من الأدب العربي قال عنترة ابن شداد مخاطبا جواده:

فازور من وقع القنا بلبانه وشكا إلي بعبرة وتحمحم

نجد أنه جمع بين العلامات الاصطلاحية في البيت وانتهى بعلامة طبيعية في قوله تحمحم وهو صوت الجواد الهادر في المعركة. يقول الشاعر:

أشارت بطرف العين خيفة أهلها إشارة محزون ولم تتكلم

فأيقنت أن الطرف قد قال مرحبا وأهلا وسهلا بالحبيب المتيم

العلامات الطبيعية هنا واضحة وهي بطرف العين إشارة طبيعية ما تبقى هي علامات اصطلاحية هكذا يظهر مدى التداخل بين العلامات أي الإشارات الطبيعية والاصطلاحية. تبقى اللغة خاصية إنسانية فريدة في غزوة مؤتة أخذ اللواء جعفر بن أبي طالب فأبلى بلاء عظيما، حتى إذا ألحمه القتال نزل عن فرسه فعقرها ثم انطلق يشتد في قتال القوم وهو يرتجز:

يا حبذا الجنة واقترابها طيبة وباردا شرابها

والروم روم قد دنا عذابها كافرة بعيدة أنسابها

علي إذ لاقيتها ضرابها

ظل يقاتل حتى قتل رضي الله عنه ضربه رجل من الروم فقده نصفين فوجد في جسمه خمسون طعنة، ليس منها شيء في ظهره الرواية للبخاري إن اللغة هنا إنسانية فريدة جعلها الشاعر أداة لها معنى ومغزى تجاوز بها لحظة الضعف الإنساني وشكل لحظة شاعرية غير قابلة للاستعادة، يعتبر الفيلسوف الفرنسي ج.غسدورف أن اللغة كلمة السر التي تدخل الطفل عوالم الإنسانية وإنها وظيفة نفسية وروحية. هكذا تكون اللسانيات المعاصرة هي الدراسة السميولوجية للغة، نتأمل في هذه الآيات الكريمة لنتعرف على معنى السمة قال تعالى: ﴿تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا﴾ البقرة 273، وقال عز وجل: ﴿سيماهم في وجوههم من أثر السجود﴾ الفتح 29، وقال تبارك وتعالى: ﴿يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام﴾ الرحمن 41، ولفظ السيمة متواتر في اللغة العربية: قال الأصمعي: "السيمة من السيمياء و السيما وهي العلامة". قال أسيد بن عنقاء الفزاري مادحا:

غلام رمـــــاه الله   له سيمياء لا تشق على البصر

النظرية السيميولوجية من النظريات التي قامت على أنقاض الفكر الأرسطي المتهالك ونظريته في الخطابة والأصل أن كلمة سيمياء مشتقة من سمة وهي العلامة أو الآية وفي الفرنسية، Signe وتعني العلامة، أما السيميولوجي فهي نظام السيمة أو الشبكة من العلامات النظمية المتسلسلة وفق قواعد لغوية متفق عليها في بيئة معينة ونجد من اهتماماتها اللسانية دراسة اللغة واللسان والكلام، وهذا ما أكده العلم اللساني والذي يشترط فيه الموضوعية والعلمية. وهذا يعرفنا على ذلك

الاختصاص المسمى بالدراسات السيميولوجية التي جعلت إمكانية الدراسة العلمية للغة ممكنة مثلها مثل الدراسات الشيئية، لذلك يعرف أندريه مارتيني اللسانيات العامة بقوله: "هي الدراسة العلمية للسان البشري، وتكون علمية حقيقة عندما تتأسس على ملاحظة الوقائع، وتمتنع عن افتراض الاختيارات القائمة على المبادئ الجمالية أو الذهنية". هكذا النشاط اللغوي الإنساني يشمل ما ينطق أو يكتب كعلامة واصطلاح، اللغة هي كل تتكامل أنسقته من الرموز و العلامات وهي واقعة اجتماعية اللسان يظهر في كونه اللغة المعبر عنها في سياقها الاجتماعي كأن نقول لسان عربي مبين، القصد هنا الموروث اللفظي من مفردات وكلمات وقواعد صرفية. هو الممارسة الفردية المنطوقة، وندركه بملاحظة الكلام أو الكتابة، أي القدرة على التفاهم الاجتماعي، يشترط فيه وجود لغة محددة كالعربية و الفرنسية مثلا، ووجود القدرة على التبليغ والتعبير المادي والمعنوي، مع الالمام بمعرفة المفردات والكلمات والقواعد الضابطة. العلم اللساني يطرح هذا الإشكال اللغوي أين تكمن نقاط الالتقاء بين الكلام واللسان؟ اللسان هو اللغة التي تستعملها جماعة محددة بجماعة وتاريخ وجغرافية، أما اللغة تختلف عن الكلام كونها اجتماعية، في حين يبقى الكلام عمل فردي متغير و اللغة متوارثة، بينما الكلام عمل فرد وإن ظهر بشكل جماعي، اللغة تمثل الجانب الاجتماعي من الكلام، النتيجة أن اللغة أعم من اللسان. هذا الكلام انقلاب كلي على المفاهيم الكلاسيكية مكن من تفكيك غامض التواصل، لأن اللغة هنا حالة اجتماعية تحدثها الجماعة لتحقق غاية التواصل، المعنى ليس ثابتا مطلقا في دلالته ومعانيه. يعود الفضل في فتح هذه الآفاق للعلامة فردنان دي سوسيرm.f.de Saussure: ولد في جنيف بسويسرا ومساهمته في بناء علم لساني جديد خالف فيه القدماء ولد في 17 نوفمبر سنة

1857م وتوفي سنة 1913م يرى أن اللسانيات فرع من السمياء Semiology أي علم العلامات العام، يرى أن الظاهرة اللغوية تتمثل في ثلاثة مصطلحات أساسية: اللسان Le Langage، اللغة La Langue الكلام La Parole ،هذه الصيغ أضحت عالمية في اللسانيات المعاصرة و يرى أن اللغة واقعة اجتماعية وليست مجردة بل متواجدة في عقول الناس يقول: "إن اللغة توجد على شكل مجموعة من البصمات المستودعة في دماغ كل عضو من أعضاء الجماعة على شكل معجم تقريبا حيث تكون النسخ المتماثلة موزعة بين جميع الأفراد... يمكن صياغة نمط وجودها بهذا الشكل: "1+1+1+1....=1". عرفنا أن لفظ Sémiologie، هو علم المعنى أما Phonologie فهو علم الأصوات، وهذه وغيرها علوم مساعدة لفهم الأسس وتشكل أنساق الفهم، بنية الكلام الذي يحمل على جزئيتين الأولى هي الفونيمات Phonème وهي الأصوات الأساسية غير الدالة على معنى. أما الثانية فهي المورفيمات Morphème وهي ضم الصوت إلى وحدات لها معنى، بدايتها الكلمة ونهايتها. من الذين فصلوا هذا المعنى عالم اللسانيات مارتيني A.Martinet: 1908-1999م ألف ما يقرب من مائتين وسبعين مؤلفا العديد منها يتعلق باللسانيات العامة، مدرسة براغ اللسانية فصلت بين الصوتيات الوظيفية Phonologie عن الصوتيات Phonetics فالأولى تنسب إلى العلوم، أما الثانية فتنسب إلى الدراسات اللسانية.

مارتيني أزال هذا الفصل واعتبر الفونولوجيا نوعا من الفونيتيك وكان هدفه تشخيص العناصر الصوتية وتصنيفها حسب وظيفتها في اللغة وميز بين ثلاث وظائف أساسية الوظيفة التمييزية Distinctive و تمكن السامع من المعرفة، الثانية

الوظيفة الفاصلة **Démarcative** وتمكن السامع من تحليل القول والثالثة الوظيفة التعبيرية **expressive**، تعلم السامع عن الحالة العقلية و الفكرية. اللسانيات المعاصرة تنظر في أنساق الرمز وتنوع الدلالة و الرمز عندهم هو مثير بديل يستدعي بنفسه نفس الاستجابة، قسموه إلى قسمين رمز لغوي و هو الكلمات المنطوقة أو المكتوبة، رمز غير لغوي ومثاله الجرس في تجربة بافلوف. هكذا تكون اللغة على خلاف القدماء لغة تواصلية تحتضن العلامات والإشارات وبينها دو سوسير اللغة عبارة عن مستودع من العلامات، العلامة وحدة أساسية في عملية التواصل وتضم جانبين أساسين هما: الدال **Signifiant**، والمدلول **Signifié** فالدال هو الصورة السمعية، أما المدلول فهو التصور، يرى أن العلامة اللغوية لا تربط شيئا باسم بل تصورا بصورة سمعية و إن غرض اللسانيات هو دراسة هذه العلامة التي يمكن ملاحظتها كأشياء. التي يغلب عليها الطابع الاعتباطي والاعتباطية هنا هي الصيغة التحكمية في المعنى والقصد أن الناس قد درجوا على معاني يخاطبون بها فألفاظ القرآن الكريم لا تحمل قياسا أرسطيا ولا فلسفة أفلاطونية وإنما تحمل على لغة الخطاب التي تعارف عليها العرب زمن الوحي، لو تأملنا في الآيات التي تصف الجنة نكتشف ذلك بكل يسر يبيّن القرآن الكريم أن الجنة قد خُلقت وزُينت وأُعدت للمؤمنين، قال تعالى: ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين﴾آل عمران 133، و قال عز وجل: ﴿لهم دار السلام عند ربهم﴾ الأنعام 127، كما قال تعالى: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنَّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ﴾النساء 57، الآية الأولى لا يمكن إخضاعها لمفاهيم الطول والعرض الأوقليدية بل لها معنى أوسع وهي أن

قدرة الإنسان أقل من أن تدرك عالما لا عين أبصرته ولا أذن سمعته روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله عليه السلام: "قال الله تعالى أعددت لعبادي الصالحين مال عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر" والآية الثانية تدل على عظم السلم الذي افتقده العرب بفعل حروبهم واقتتالهم يقول عليه الصلاة والسلام: "لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا. ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم". رواه مسلم أما الثالثة الجنة تجري من تحتها الأنهار والأصل في نظرية الثبات أن الأنهار تجري من فوقها وهذه علامة فارقة أن التغير والتبدل هو القاعدة، المسلمة اللسانية في تحليل الخطاب لا ركود ولا سكون هذه الروح اللسانية الجديدة وسعت آفاق العلم وخاصة في علم النفس عامة وفي علم النفس اللغوي خاصة، نعم علم النفس العام من أحدث العلوم الإنسانية نشأة ومع ذلك تعددت اختصاصاته ومن أهمها علم النفس اللغوي، هو فرع من علم اللغة التطبيقي ويختص بدراسة العوامل النفسية المؤثرة في تعلمها، يحاول أن يقف على عيوب النطق ويرصد علاقة النفس البشرية باللغة. لبيان ذلك نعرض نظرية ياكبسون Jakobson لقد قام بدراسات مستفيضة وعميقة في علم النفس اللغوي ووصل إلى نتيجة ترفع الغموض عن أسس اللغة، فأقر بوجود قوانين كلية عبر عنها بالإنجليزية Universal Laws تفسر عملية اكتساب اللغة الأم، بالنظر إلى العوامل السيكولوجية المؤثرة وهذا سمح بتحديد طبيعة الأمراض اللغوية وفي مقدمتها الحبسة وبين أن فهم هذه الاختلافات الحاصلة لا يتحقق بالدراسة اللسانية فقط بل يتعداه إلى الأمراض العقلية والنفسية، كذلك العصبية مع ذلك لم ينكر المناهج اللسانية المساعدة، كالنموذج التصنيفي والتوزيعي والتحويلي وقواعد الحالات، هذه وغيرها أضحت من مفردات العلم

اللساني المعاصر. نجد أن التداخل حاصل بالضرورة بين العلم اللساني والدراسات اللغوية السيكولوجية لأن فهم أسس بناء اللغة يحتاج لهذه المناهج وغيرها لأنها ماهية إنسانية تجسد إنسانية الإنسان ووجوده.

السانيات المعاصرة أوقفت الجدل حول نشأة الألفاظ و البحث اللغوي، في كل الحضارات قديمها وحديثها أراد أن يقدم إجابة ويرفع اللبس والغموض عن أصل اللغة الذي يطرح معضلة توافق الناس واتفاقهم على تواضع اللفظ والمفردة، جاءت الآراء والأفكار غير منتجة وعقيمة بحكم أن الآراء الكلاسيكية فرضت عليها الفلسفة اليونانية فكرة الثبات فرضا، مع أنها تحصيل حاصل ومع ذلك نستطيع أن نرسم صورة فلسفية لسانية ونقدم هذه المقاربة التي نلخصها في موقفين متناقضين تاريخيا وفكريا الموقف الأول فلسفي سابق للثورة الكوبيرنيكية ويعتقد أن العلاقة المفسرة لنشأة الكلمات والألفاظ علاقة ضرورية، بمقتضى التصورات والأحكام المنطقية المؤسسة على مبادئ العقل، يرى فلاسفة ومنهم أفلاطون أن هناك تطابق بين الدال والمدلول، وأن اللفظ يعبر عن نفسه، حجتهم أن اللغة نشأت بمحاكاة الإنسان لأصوات الطبيعة فأبدع الكلمات. أما العلم اللساني المعاصر يغير القاعدة، يقدم البديل وهو العلاقة الاعتباطية Arbitraire، اعتبر دي سوسير العلامة اللغوية اعتباطية ودليله في ذلك أن فكرة أخت Sœur لا ترتبط بأية علاقة داخلية مع تعاقب هذه الأصوات: أ.خ.ت و لا يفهم من ذلك أن الفرد له القدرة على تغيير العلامات. لما نقول مثلا واد مزي، أو جبل أم سليمان، لا نجد بالضرورة مطابقة بين اللفظ والمعنى، نجد أمثلة في مسميات التضاريس الجزائرية يقول دوسوسير: "وهذا التغير في الإشارة اللغوية عبر الزمن يتخذ أشكالا متنوعة يمكن

لأي منها أن يحتل فصولا من علم اللغة. وبدون إيغال في التفاصيل، بوسعنا استنباط، أن معنى كلمة تغير لا يجب أن يؤخذ على علته، فقد يحمل على الاعتقاد بأن الأمر يتعلق تخصيصا بتحويرات في النطق والتلفظ الصوتي للإشارة، أو بالمقابل، بتحويرات في المعنى مما يحمله تصور المشار إليه، لكن كل ذلك لا يفي بالمطلوب إذ مهما كانت عوامل التغير في اللغة سواء تمت بطريقة معزولة أو منسقة فإن نتيجتها الحتمية والدائمة تتضمن تحولا ما في العلاقة بين الإشارة والمشار إليه... إن أية لغة لا تستطيع بشكل جذري رد هذا التحول الحاصل من وقت إلى آخر، في العلاقة بين الإشارة والمشار إليه، تلك إحدى نتائج الطابع التحكمي للإشارة اللغوية. أما المؤسسات الإنسانية الأخرى مثل الأعراف القوانين هي جميعها تقوم بدرجات متفاوتة على جملة الروابط الطبيعية بين الأشياء فثم توافق ضروري بين الوسائل المسخرة والغايات المنشودة أما في اللغة فعلى النقيض من ذلك لا يوجد ما يبرر الجمع بين هذه الفكرة وتلك الأصوات. "فلسفة العلوم والدراسات اللغوية المعاصرة تحاول أن تفكك مغالطة لغوية كانت سببا ومازالت مصدرا للخلاف في اللاهوت المسيحي واليهودي وكذلك في المسائل الكلامية عند المسلمين و هي مغالطة العلاقة بين اللغة والفكر و أيهما يسبق الآخر، كانت لها تداعيات في الفكر الإسلامي فيما يعرف بمسألة خلق القرآن قال الذهبي في سير أعلام النبلاء: "ثم نشأت طائفة فقالوا: كلام الله تعالى منزّل غير مخلوق ولكن ألفاظنا به مخلوقة يعنون تلفظهم وأصواتهم به وكتابتهم له ونحو ذلك وهو حسين الكرابيسي ومن تبعه، فأنكر ذلك الإمام أحمد وأئمة الحديث، وبالغ الإمام أحمد في الحط عليهم وثبت عنه أن قال: اللفظية جهمية، وقال: من قال لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي ومن قال لفظي بالقرآن غير مخلوق فهو مبتدع وسد باب الخوض في هذا".

سيدنا أحمد بن حنبل رضي الله عنه علم أن المسألة دس من معتنقي الفكر اليوناني وعلم أن الخوض فيها عقيم، لأن واضع المغالطة يريد إيقاع الخصم في الجدل الأرسطي وهذه غايته الأولى ليست المشكلة كما يعتقد الناس في مسألة خلق القرآن، بل هي في تعويد العقل الإسلامي وإخضاعه لطرائق البحث الأرسطي، إن سلمت بمنطقهم مرة واحدة لزم التسليم به في كل المسائل عقدية كانت أو كلامية، لذلك أرسلوا بدعتهم خلق القرآن وهم يعرفون كذبها وهذا لشد الانتباه فقط، كانوا على استعداد للتخلي عن فكرتهم لو وافقهم الخصوم في المنهج، لـأن غرضهم كان إدخال فنون الجدل الأرسطي كما فعلوا مع اللاهوت المسيحي، إلا أن عبقرية الإمام أحمد أفشلت مسعاهم بل كانت سببا في كشف مناهجهم يقول أحمد بن حنبل: "والقرآن كلام الله تكلم به، ليس بمخلوق ومن زعم أنّ القرآن مخلوق فهو جهمي كافر، ومن زعم أنّ القرآن كلام الله ووقف و لم يقل ليس بمخلوق فهو أخبث من قول الأول، ومن زعم أنّ ألفاظنا به وتلاوتنا له مخلوقة، والقرآن كلام الله فهو جهمي، ومن لم يكفر هؤلاء القوم فهو مثلهم". المسلمون بعد محنة خلق القرآن لم يضعوا منهجا فلسفيا يكشف هذه الاختراقات لأنه على حد الحكمة لا يفل الحديد إلا الحديد. العلم اللساني حدد للغة وظائف تنسق آلية التواصل والتبليغ وهو فعل اللغة الأصيل الذي يتيح ذلك الوسط الحيوي الذي يتعايش فيه الجميع، هكذا يتعدد التواصل وتتنوع وظائفه. العالم يكبسون: Jakobson وضع ما يعرف بنظرية الوظائف الست التي استمدها من نظرية الاتصال وهذه ظهرت سنة 1948م ترى أن التواصل يحتاج ستة عناصر أساسية: المرسِل EMITTER والمتلقي RECEPTOR، قناة الاتصال COMMUNICATIVE CHANNEL والرسالة MESSAGE،

وشفرة الاتصال CODE، والمرجع REFERENT، استخلص منها وظيفة تعبيرية ووظيفة نزوعية ووظيفة إقامة الاتصال، إذا كان الهدف من الرسالة تطوير شكلها بالذات فهذه وظيفة إنشائية، وقد تكون وظيفة واصفة للغة، وقد تكون وظيفة مرجعية، وهذه الوظائف يلم بها المشتغل بالعلوم اللسانية. ثم نكتشف نظرية القواعد التوليدية التحويلية وعلاقتها بوظائف اللغة و واضعها عالم اللسانيات المعاصرة وصاحب الفكر المتجدد الناقد للمتقدمين المفكر البارز أ.ن تشومسكي A.N. CHOMSKY ولد سنة 1928م ومازال يمد الدراسات اللسانية بإبداعاته المتتالية يقول: "إن النظرية اللسانية تعني في المقام الأول بمتكلم مستمع مثالي في مجتمع لغوي متجانس تماما حيث يعرف هذا الشخص لغة ذلك المجتمع معرفة جيدة، ويكون غير مصاب بهذه الحالات النحوية غير الملائمة مثل قصور الذاكرة، والاضطراب العقلي وعدم الانتباه والاهتمام، والأخطاء العفوية والمميزة وذلك عند تطبيق معرفته اللغوية في كل أداء فعلي". هكذا تتجلى لنا الوظائف واضحة جلية ومن أهما وأفضلها الوظيفة النفعية هي تلبية الحجات البيولوجية، الوظيفة الشخصية وهي التعبير عن الذات والقدرة على الإبداع، الوظيفة التفاعلية وهي التعبير عن الحالات الوجدانية والشعورية، الوظيفة الاستكشافية وهي بناء عالم المعرفة بالإحاطة بمسميات الأشياء في عالم الطبيعة والإنسان، الوظيفة التنظيمية وهي التعبير عن الحاجات الآنية كحاجة الإنسان إلى لغة التوجيه أو لغة الإشارة والرمز كعلامات المرور مثلا، الوظيفة التخيلية وهي أن ينفلت الفرد من واقعه لما يجعل لغته وهما و خيالا و يتجسد ذلك مثلا في عالم الطفولة، الوظيفة الرمزية وهي تتحقق كرمز يستعان به في ضبط المفاهيم العلمية والمنطقية كالرمز الرياضي والفيزيائي، الوظيفة الإخبارية وهو نقل المعلومة مسموعة كانت أو مرئية. اللغة من

الوظائف العقلية العليا، الإنسان بفكره قام بحركة نقل أخرجته من عالم الرتابة والغريزة، إلى عالم الإبداع والتميز، إن الدراسات اللسانية المعاصرة حققت أهدافا معتبرة لما أعادت الإنسان إلى إنسانيته وذلك بتجلي اللغة في وجوده، يبقى التواصل من الوظائف النفسية والمنطقية التي تعطي للفرد وجوده الحيوي وكذلك الاجتماعي.

النفس البشرية والبحث في حقائقها لا يستقيم ولا يصح بالوسائل والأدوات الفلسفية والأدبية، لأن النتائج ستكون حتما ملتبسة بالوهم والخرافة والسفسطة، إن استقامة النفس على قواعد التوحيد والإيمان يمنع عنها المرض والاختلال، يعطيها الوحدة والتواصل في كلية، يبعد عنها التفكك والتحلل مهما كانت المقتضيات والحوادث جسيمة. لأن لحظة ثبات النفس لا تنقذ الشخص نفسه بل قد تنقذ دينا وأمة، لا أجد أمامي إلا مثالا يعبر ومازال عن التواصل الداخلي السليم الذي يحدث دائما المعجزات، إنه مثال سيدنا أحمد بن حنبل وكيف واجه محنة خلق القرآن وكيف واجه سفسطة المعتزلة: "فلما وصل الكتاب كما ذكرنا استدعى جماعة من أئمة الحديث فدعاهم إلى ذلك فامتنعوا، فتهددهم بالضرب وقطع الأرزاق فأجاب أكثرهم مكرهين، واستمر على الامتناع من ذلك الإمام أحمد بن حنبل، ومحمد بن نوح الجند يسابوري، فحملا على بعير وسيرا إلى الخليفة عن أمره بذلك، وهما مقيدان متعادلان في محمل على بعير واحد، فلما كانا ببلاد الرحبة جاءهما رجل من الأعراب من عبادهم يقال له:جابر بن عامر، فسلم على الإمام أحمد وقال له :يا هذا !إنك وافد الناس فلا تكن شؤماً عليهم، وإنك رأس الناس اليوم فإياك أن تجيبهم إلى ما يدعونك إليه فيجيبوا، فتحمل أوزارهم يوم القيامة، وإن كنت تحب الله فاصبر على ما أنت فيه فإنه ما بينك وبين الجنة إلا أن تقتل، وإنك إن لم تقتل تمت، وإن عشت حميداً. قال أحمد: وكان كلامه مما قوّى عزمي على ما أنا فيه من الامتناع من ذلك الذي يدعونني إليه.فلما اقتربا من جيش الخليفة ونزلوا دونه بمرحلة جاء خادم وهو يمسح دموعه بطرف ثوبه ويقول: يعزُّ عليَّ أبا عبد الله أن المأمون قد سل سيفاً لم يسله قبل ذلك وأنه يقسم بقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم لئن لم تجبه إلى القول بخلق القرآن ليقتلنك بذلك

السيف. قال: فجثى الإمام أحمد على ركبتيه ورمق بطرفه إلى السماء وقال: سيدي غرَّ حلمك هذا الفاجر حتى تجرأ على أولياءك بالضرب والقتل اللهم فإن لم يكن القرآن كلامك غير مخلوق فاكفنا مؤنته.قال:فجاءهم الصريخ بموت المأمون في الثلث الأخير من الليل. قال أحمد: ففرحنا، ثم جاء الخبر بأن المعتصم قد ولي الخلافة، وقد انضم إليه أحمد بن أبي دواد، وأن الأمر شديد، فردونا إلى بغداد في سفينة مع بعض الأسارى، ونالني منهم أذىً كثير.وكان في رجليه القيود، ومات صاحبه محمد بن نوح في الطريق وصلى عليه أحمد، فلما رجع أحمد إلى بغداد دخلها في رمضان، فأودع في السجن نحواً من ثمانية وعشرين شهراً، وقيل: نيفاً وثلاثين شهراً ثم أخرج إلى الضرب بين يدي المعتصم و قد كان أحمد وهو في السجن هو الذي يصلي في أهل السجن والقيود في رجليه". سيدنا أحمد بن حنبل ومحنة خلق القرآن. تفكك الشخصية الإسلامية بفعل الميراث اليوناني تصل إلى درجة الانكسار حين يتناقض فكر حاكم إسلامي فريد في علمه وثقافته وهو المأمون مع قمة من قمم العلم الإمام العظيم أحمد بن حنبل والسبب سفسطة فلسفية أفلاطونية هي أسبقية الفكر على اللغة يستطيع ممتحن في مادة الفلسفة في الأقسام الثانوية أن يكتشفها، الظاهر أن الواقي والحصن المانع فقد في الفكر الاسلامي ولولا وقفة هذا الشيخ وكيف أنه كفر خصومه ليس في فكرهم بل في منهجهم وطرائق بحثهم ومنع شرهم المستطير على خلاف ما هو حاصل الآن، ملل ونحل من المشارق والمغارب تملأ الأرض فسادا وضلالا، تشن الحروب العسكرية والثقافية وتنخر الأمة في نفسها بنشر الشبهات والسفسطات، مع ذلك نبحث عن وجوه التقارب معها، ونقرر في لحظة عبثية تعبث بالوجود والمصير أن الخلاف هو مجرد قراءة تاريخية مخالفة وتصورات متباينة، نستطيع بالحكمة والتريث

أن نجمع أشتاهما، هذا كله من فرط الخيال والخبل. لما نقارن البناء الشخصي الثابت القوي بقوة التوحيد والاعتقاد عند ابن حنبل رضي الله عنه ومن نعاصرهم الآن من المسلمين نكتشف ضعف الشخصية الإسلامية المعاصرة، شخصية مفككة بفعل التراكم الخرافي، من يعش بين المسلمين في هذه الألفية لا يرى أشخاصا مشخصة بفعل وعمل وهدف منشود بل يرى صورا فوتوغرافية مركبة من أجزاء ثقافية وحضارية مركبة. يبيع الفرد دينه ووطنه وعرضه بلا ثمن، ويجد في ذلك رغبة ونزوة يفتي العالم المبجل المحترم بما لا يصح ولا يعقل ولا يجد في نفسه حرجا ولا تأنيبا، ويختلس صاحب الأمانة المؤتمن والسرور يملأ جوانحه، يفرح طالب العلم كل الفرح لما يغش بل يتفاخر وينتشي بما قام وفعل، أمراض وعلل نفسية تشد الباحث لفهم الدواعي والأسباب المؤدية للأعراض المرضية. الآلية المعتمدة في استخراج الأفكار وبناء الشخصية خارج الأنساق الفلسفية هو الكفيل بالقضاء على الداء العضال المتمثل بعدم القدرة على بناء فردية مسلمة مستقلة عن فعل الملل والنحل الباطلة، هذه وظيفة علم التوحيد الصحيح وما يتيحه من معرفة الله تبارك وتعالى، بمقتضى الوحي لأن القياسات المنطقية لا تبني شخصية قوية ثابتة في الزمان والمكان، بل تبني ذلك الكائن التائه الضائع في الوجود الفاقد لإحداثياته الكونية، لا يعلم عن نفسه وواقعه وتحدياته شيئا، يعيش عالما وهميا مفارقا للوقائع والحقائق. علم النفس الإسلامي هو بناء جديد لشخص ثائر ومناهض للخرافة، له القدرة على تفكيك المفارقات، يمتلك لغة نقدية علمية لسانية تعبر عن ذاته وتخرجه من تراكم الحقب والأزمنة، لو افترضنا جدلا أن الفرد المسلم حاسوب له ذاكرته وطاقته وقدراته على البناء والتخزين والفرز هو يحتاج برمجية، البرمجية هنا هي صدق الاعتقاد القائم على نظرية التوحيد الخالصة من عوالق الشرك والوثنيات والفلسفات، هذا الجهاز

المبرمج ببرمجية التوحيد الخالص يحتاج إلى جهاز وقاية وتنبيه، هذا الجهاز الواقي هو علم النفس التوحيد ونحل مشكلة هذا السؤال الإبستيمولوجي كيف نجعل المسلم في الكون والوجود موحدا خالصا في توحيده؟ لماذا لا يشرع المسلمون في تشكيل علم جديد يعنى بفهم النفس المسلمة وتحريرها من الرواسب والعوالق الفكرية الفاسدة و لما لا تكون بداية لتأسيس علم نفس عام يعنى بتطهير الأنا من الترسبات الخرافية الوهمية، وبناء عين مؤمنة تحدق في العالم وتنظر بموضوعية و استقلالية لتكتشف آيات ربها وخالقها، نحاول أن نبدأ من حيث بدأ علماء النفس الأوائل لنفهم مساره وتطوره إن فهم علم نفس فهما إبستيمولوجيا يحتاج إلى البحث عن العلاقة بين مصطلحي فلسفة و فيزيولوجيا أي قراءة عمل وظائف الأعضاء قراءة نفسية كانعكاس القلق وظهوره كآلام جسمية واضطرابات حيوية، هذه القراءة لا تكون إلا فلسفية أي لا تخرج عن موضوعاتها الميتافيزيقية ومن موضوعاتها النفس الانسانية، لذلك كلمة سيكولوجية أصلها يوناني تنحل إلى مفردتين نفس في اللغة اليونانية ψυχή ولفظ علم λογος، التي تعني العلم والمعرفة، من العهد اليوناني حتى الثورة الكوبيرنيكية كانت الدراسات النفسية فلسفة خالصة لا تخرج عن نظرية النفس وفكرة النفس عند أفلاطون، حتى القرن السادس عشر كان موضوع علم النفس هو العلم الذي يدرس الروح، بمعنى أوضح العلم الذي يدرس العقل، أما المسلمون فكان شغفهم بحكماء اليونان لا نظير ولا شبيه له، حتى لا نطيل نعرض قصيدة ابن سينا في النفس حتى نكتشف الأثر الأفلاطوني و الأرسطي المدمر في بناء نظرية إسلامية حول النفس البشرية:

هبطت عليك من المكان الأرفع ورقـــاء ذات تعزُّزٍ وتمنعِ

محجوبةٍ عـــن كلِّ مقلة ناظرٍ هي التي سفرت ولم تتبرقـــعِ

إن كان أهبطها الإله لحكمةٍ طويت عن الغزِّ اللبيب الأروع

فهبوطـــها لاشكَّ ضربة لازبٍ لتعود سامعةً لما لم تسمع

المسلمون بعد وفاة نبيهم عليه الصلاة والسلام لم ينتبهوا للغزو الثقافي الذي جاءهم مع تكالب الأعداء عليهم، لم يضعوا حكمة أي فلسفة تقيهم هذا الشر نظرية النفس الإنسانية عند أفلاطون هي مجرد خرافة، جعلها المسلمون من صميم ثقافاتهم ومدخل رئيسي لعلومهم، في الصوفية وعلم الكلام خاصة، أضحت من المسلمات. المغالطة التي أوقعهم فيها خصومهم من الوثنيين مجوس كانوا أو هنود أو من المشغوفين بالفكر اليوناني، هي أنهم وضعوا أمامهم مغالطات وأوهام فكرية كالاختيار والصفات والتشبيه، تعجل المسلمون الأمر وأخذوا بقياسهم المنطقي وأدخلوا نفوسهم فيروسات فكرية، لم يحصنوا أنفسهم ضدها، جعلوا منطقهم الثابت الأرسطي العقيم حجة عليهم وعلى خصومهم، معنى ذلك أنهم سلموا بصدق دليل الخصم. الاستثناء الوحيد والعقل الذي أظهر الخدعة والمغالطة هو الإمام أحمد لما رفض الخوض أصلا في مسألة خلق القرآن التي أمتحن فيها ووصف خصومه بالمروق من الدين، هذا صحيح وحتى نظهر ذلك نضرب مثلا فرد يسكن بيته ولم يكتشف إلا بعد مدة أن هناك متسللين، وأنهم أعداء وخصوم وقرر طردهم، أظهروا في البداية أنهم إخوان ورفقاء، وأن الأمر يحتاج إلى حوار منطقي وفكري هادئ، إن سمح بهذا الحوار يكون قد سقط في شراكهم، لأنه قبل

مسلماهم ومن قبل بالمقدمات يرضى ويقبل بالنتائج مكرها. هنا قمة المكر والدهاء والخوض في المسائل الكلامية دون وعي أبعادها النفسية لا العقدية جعل شخصية المسلم، خاصة في عصور الانحطاط تظهر مفككة وتتلاشى وتذوب في الوهم بيسر وسهولة، تستطيع الآن أن تقنع المسلم بأبسط الترهات كالأضرحة والتوسل، وتعجز كل العجز عن وضعه أمام نظرية كونية أو فكرة لسانية لأنه مازال يعيش في مرحلة ما قبل الثورة الكوبيرنيكية. الأمراض النفسية لها صلة بالمعتقد، لأها تمثل حالة اللاوعي في السلوك الناتج عن اضطراب الأفكار وتراكمها، يتجلى التفكك في الشخصية بعدم ثباها في الزمان والمكان، إذا كان لا يعي إحداثيات وجوده في الكون والعالم، هنا يفقد حلقة التواصل بينه وبين الآخرين وهنا نفسر الانحراف في عالم الأفراد والجماعات، كيف يكون الغوص في عالم الوهم والخرافة؟ لو افترضنا شخصا واعيا عالما بدينه وعقيدته مميزا بين الأفكار الدخيلة والأصيلة، علم وحدانية الله وفهم فهما قرآنيا نظرية الخلق والوجود، مارس على نفسه تصفية ذاتية تخلصه من الشوائب والعوالق الفكرية عاش حياة سعيدة لا شقاء ولا عناء فيها، قال عليه الصلاة والسلام: "مَن أصبَح مُعافًى في بدنِه آمنًا في سِربِه عندَه قوتُ يومِه فكأنَّما حِيزَتْ له الدُّنيا". صحيح ابن حبان.

المقدمات والبدايات: كانت البداية مع وليم فونت مؤسس المدرسة البنائية جعل الاستبطان منهجا وطريقة في علاج الأمراض النفسية، جاء بعده وليم فونت بالاستبطان من جديد، متأثرا بالأنساق القديمة واعتبرها وسيلة ذاتية تحدد وضع الفرد أمام شخصه وذاته، هذا المنهج لقي نقدا واسعا من العالمين بعقم الأفكار الفلسفية، جاء العالم الأمريكي جون واطسن ليقود ثورة فكرية ويطيح هذه

المناهج ويؤسس المدرسة السلوكية المعاصرة في علم النفس الأمريكي، ركز على الوظائف العصبية الأولى، أكد على وظائف الدماغ وأعطاه وظائف متعددة منها التفكير والإحساس والانفعال، حدد وظائف أخرى منها التفكير والخيال والكلام وقدم تفصيلا ت مهمة، جعل الوظيفة النفسية مقترنة بوظائف الأعضاء وفسر كل الوظائف كالتوازن والحركة والكتابة والخطابة. هذا العمل شكل مدرسة سيكولوجية تنتفض من بين الركام وهي المدرسة السلوكية وقال عبارته الشهيرة: "إذا أراد علم النفس أن يكون علما موضوعيا يجب أن يتخلى عن فكرة الشعور". العارف بفلسفة العلم لا ينكر الجهد الذي قدمه العالم بافلوف ونظريته في المنعكس الشرطي التي جلبت الانتباه إلى أهمية الوظائف الحيوية في بناء الحالة النفسية، وأن المدخل الوحيد لدراسة الوظائف السيكولوجية هو فهم تركيب العضوية والنظر إلى التفاعل الحاصل داخلها.

العلوم الإنسانية بين جدلية المعيارية و العلمية: لنفترض مجموعة بحث من الطلبة أرادت أن ترفع الالتباس حول معنى معيارية وعلمية، فكان الرجوع إلى القواميس الفلسفية، ولتيسير العمل وتنظيمه شكل الأستاذ المشرف مجموعة بحث انقسمت إلى قسمين الأولى بحثت في لفظ إنسان ونظرت في ماهيته و دلالاته الفلسفية، الثانية نظرت في لفظ معيار وحاولت الوقوف على معانيه ومقاصده وجاءت نتيجة البحث كما يلي: قالت المجموعة الأولى: الإنسانية في اللغة الفرنسية Humanité هي عند الفلاسفة القدماء تعني الكلي المجرد الدال على ما تقوم به ماهية الإنسان بالنظر إلى مبدأ القيمة، أما علوم إنسانية فهي مباحث العلم تدرس الإنسان كإنسان في أبعاده والكشف عن تجليات واقعه، منها ما هو قديم كالتاريخ

وما هو حديث كعلم النفس والاجتماع، هي تتوسع وتتعدد بتعدد قضايا الإنسان فنجد علم السياسة وعلم الآثار، مع الأزمات المتلاحقة أضحى علم الاقتصاد متقدم لأن العالم يشهد أعظم أزماته التي استعصت على الحل. قالت المجموعة الثانية: المعيارية من المعيار Norme وهو المقياس، عند علماء المنطق هو المقياس المجرد وعادة نجد أوجه تشابه بين المعياري Normatif والعلوم المعيارية Sciences Normatives وهي علوم هدفها البحث في صورة المطلق والكمال، نجد ذلك في المنطق والأخلاق والجمال، مع الإشارة إلى أن لفظ علم دلالته هنا مجازية لا حقيقة فلا نفهم مثلا أن علم الأخلاق مثله مثل العلم الفيزيائي له موضوعه ومنهجه، العلم الإنساني هو علم الإنسان في كل زمان ومكان بغض النظر عن موضوعه ومنهجه والعلوم الإنسانية هي العلوم المتعارف على أنها تدرس الإنسان كإنسان، كالتاريخ مثلا والعلوم المعيارية هي الخاضعة لمبدأ القيمة الذي يقود إلى فلسفة الكمال كالأخلاق والمنطق والجمال. نستطيع أن نحدد بشكل قبلي أبعاد العلم الإنساني البعد النفسي ندركه في الفردية وتجليات الأنا في سلوكياتها، البعد الاجتماعي لا ينفصل فيه الفرد عن بيئته ووسطه الحيوي الجماعي، البعد التاريخي المقترن بصورة الماضي و هو الذي يحدد ماهية الحاضر ويرسم معالم المستقبل.

علم النفس العام ومدارسه: ذكرنا أن علـــم الـــنفس في اللغـــة اليونانيـــة بسيخولوغيا ويعنى بالدراسة الموضوعية للسلوك، ما يقترن بها من وظائف تفســـر سلوك الإنسان وحتى الحيوان، كالبحث مثلا في روائز ودرجات الذكاء و تشـــير كلمة علم النفس أيضا إلى تطبيق هذه المعارف على مجالات مختلفة مـــن النشـــاط الإنساني، بما فيها مشاكل الأفراد في الحياة اليومية ومعالجة الأمراض العقلية.قد يتسع

ليفتح مجال العلاج النفسي ويشخص الأمراض، الواقع المعاصر بين أن الفصل بــين علوم المادة والعلوم الإنسانية أضحى ممكنا للتباين في الطبيعة ومنــاهج البحــث، ووجود غاية واحدة مشتركة بينهما وفلسفة العلــوم تفتــرض وجــود عوائــق إبستيمولوجية، الواقعة الإنسانية لا تعرف الثبات والاستقرار والإنســان بطبيعتــه يحمل خاصية التعقيد، هذا ينعكس على دراسته وفهم أحواله وأفعاله، أما الجانــب الذي يطغى على حياة الإنسان هو الجانب المعنــوي الــذي يــنعكس في حياتــه الشعورية والوجدانية، السلوك يخضع لمنطق الملاحظة و التجربــة وتبقــى الــنفس الإنسانية من أعقد القضايا في الفكر الفلسفي يقول تعالى في محكم تتريله: ﴿وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾ 123 سورة البقرة، لذلك اتجه البحث العلمي المعاصر إلى الوقوف على السلوك، والاكتفاء بدراسته، انقسمت المدارس السيكولوجية إلى قسمين، قسم نظر إلى السلوك الخارجي كما فعلت المدرسة السلوكية واكتفى بدراســته والنظــر إلى الاستجابات وردود الأفعال. آخر تعمق في الأفعال الداخلية وغاص في الأحــوال المبهمة كما نجد ذلك في مدرسة التحليل النفسي، علم النفس بشكل عام هو علم السلوك بمظهريه الداخلي والخارجي. من المناهج المتعارف عليها في حقــل علــم النفس المعاصر نجد مدرسة التحليل النفسي ومنهجها التمثيلي، تأثر سيغموند فرويد بمناهج التشخيص المرضي في العلم الفيزيولوجي، وأراد أن يجعل المرض النفسي مثله مثل المرض العضوي، فابتكر طريقة تستلهم روحها من قواعد الاستقراء العامــة، هذا لما أخذ بمسلمة اللاشعور كفكرة ومبدأ، الخطوات المنهجية التي حرص عليهــا هي المحادثة والحوار وهي أسلوب عملي وواقعي يتيح للمريض أن يفصــح عمــا

بداخله وهذا يعطي للطبيب المحلل فرصة الملاحظة والمشاهدة لتتبع الحالة المرضـــية والوقوف على أسبابها ودوافعها. يتابع المحلل دراسة السلوك فينتقل إلى فهم ودراسة الهفوات والأخطاء وتتبع الاستجابات وردود الأفعال الصادرة عن الأنا، ثم الانتقال إلى تفسير الأحلام والوقوف على رمزيتها وربطها بالفعل المؤثر الناتج عن عمليـــة الكبت، أخذ بالاستجواب كبديل عن التجربة، قد تكون على شكل اســـتجواب كتابي يجيب عليه المريض، مع وجود بدائل قد يعتمد المحلل مع الأطفال مثلا طرق التمثيل والقيام بأدوار تكون كوسيلة وأداة لإظهار ردود أفعال يرصدها الطبيب في السلوك. يقابل هذا المنهج التحليلي علم النفس الموضوعي صـــدر عنـــه تأســـيس سيكولوجية الوظائف السؤال الذي طرح نفسه على الباحثين هو لمـــاذا لا يكـــون علم النفس علما موضوعيا له مناهجه وأدواته؟ جـــاءت أعمـــال فيـــبر Weber وفيخنر Fechner حيث تم الاعتماد على آلات فيزيائية للكشف عن العلاقـــات الثابتة في الإحساس، صاغ فيبر القانون التالي: "إن الكمية التي تجب إضـــافتها إلى إثارة ما لإحداث فرق في الإحساس هي في الظروف العادية جـــزء ثابـــت مـــن الإثارة". كانت النسب مثلا 100/1 بالنسبة للضوء، و 30/1 بالنســـبة للـــوزن والحرارة، هذا المنهج ساهم فيه بداية العالم الروسي بـــافلوف الباحـــث في العلـــم الفيزيولوجي، صاحب نظرية المنعكس الشرطي التي شملت التجارب على الحيوانات وخاصة الكلاب، درس طبيعة الاستجابة وردود الأفعال الناتجة عن المثيرات، ساهم في نشأة علم النفس الحيواني، خاصة في أبحاث طرائق الـــتعلم. أعمـــال المدرســـة الأمريكية السلوكية معروفة لكل دارس في حقل علم النفس، لا تحتاج إلى تعريـــف وخاصة مع أعمال مؤسسها ج.واطسن Watson كان عمله هو دراسة الإثـــارة والاستجابة كما هو حاصل في الإعلان التجاري مثلا وما أكد أهمية هذا المنـــهج

العلمي الموضوعي يركس Yerkes وثورانديك Thorndike، يرى المؤرخون أن العالم الأمريكي كاتل Cattell قد اخترع طريقة الروائز، هي الاختبـــارات الـــتي تقرر وضع الحالة النفسية أو أحد وظائفها، كان ذلـــك ســـنة 1890م، المنـــهج الموضوعي تجلى واضحا عند المدرسة الغشتالتية وهي مدرسة ألمانية قدمت نظريات شارحة في التعلم وبناء الصيغة الإدراكية، كان لها الأثر العظيم في تطـــوير منـــاهج وطرائق التعلم ونقل المعرفة والتفاعل مع العالم الموضوعي، وفق قوانين تنظم إدراك المكان وتعين على بيان المعاني وتجريدها. الدراسات الموضوعية في علـــم الـــنفس المعاصر ما هي إلا بداية في حياة علم ما زال في نشأته الأولى، هو لا يقارن بـــالعلم الفيزيائي أو البيولوجي، مع ذلك أهميته قائمة وخاصة في مـــا يعـــرف بـــالحروب النفسية التي أثبت التاريخ المعاصر أنها أهم من سلاح الجو وأخطر مـــن الأســـلحة الإستراتيجية، لأن قتل نفس المقاوم وشل إرادته وتعطيل قدراته مقدمة أساسية لبناء نظرية الحسم العسكري، هل الشعور هو المعرفة الأولية التي تمكن من بناء فلســـفة علمية تحيط بأعماق النفس البشرية؟ إن عبارة علم الـــنفس موهمـــة، لا تنضـــبط بتعريف وماهية، هو قضية ميتا فيزيقية عصية عن كل تعريف، لـــذلك نقتصـــر في الدراسة على مظاهر هذه النفس، وأولى تجلياتها تكون في حياتنا الشعورية، جاء في كليات أبي البقاء: "الشعور إدراك من غير إثبات، فكأنه إدراك مزلـــزل". عرفـــه علماء النفس: "هو حدس الفكر لأحواله وأفعاله". تفسيره أنـــه الـــوعي الـــذي يصاحب فاعلية الذات فتتميز به عنها ومنه نميز بين الذات الحادســـة والموضـــوع المحدوس، عرفه لالاند بقوله: "هو معطى أولي غير متميز، ومادة لكل حياة نفسية". ووصفه وليام جيمس بقوله: "حالة شعورية نتعرف عليها بالاستبطان". ومصـــطلح استبطان يقصد به تأمل الذات لذاتها أشار كل من هيجل وســـارتر، إلى أن كـــل

شعور إنما هو شعور بشيء ما، الشعور معرفة أولية يقول هاملتون HAMELTON 1788-1856م: "الشعور أحد المعطيات الأساسية للتفكير، والذي لا يمكن تحليله إلى عناصر أبسط... أنه وعي مشترك لكل تفكير". هو كذلك معرفة ذاتية لأنه واقع في الأنا، ذلك الشعور الخالص لا وجود له، فهو صادر عن شخص له صفاته وأحواله، هو جملة الأحوال النفسية غير القابلة للتحلل، أو التجزؤ، ذلك الوعي الموضوعي لا حقيقة له، لا نستطيع أن نجد حالة نفسية مفارقة للجسد كما بتوهم الصوفية المتفلسفة بالقول أنهم يعرفون عوالم أخرى هي في الأصل هلوسة ومرض نفسي لا غير، هذا ما تثبته المباحث الفلسفية و العلمية، لأن الشعور له خصائص تميزه عن الوظائف الأخرى بحكم أنه ذاتي ومتصل، العقل يحركه وينظمه بالبداهة. فلسفة الشعور والوعي تبنتها فلسفات كثيرة منها المدرسة الحدسية وضعها الفيلسوف الفرنسي المعاصر برغسون، اعتمد الحدس منهجا، دافع عن الروحانية ضد الآلية على ضوء خاصيتي الاتصال والحركة أضاف خاصيتين جوهريتين، الأولى هي الديمومة في معناها العام، هو الشيء الذي لا يعرف الانقطاع، يكون الشعور ذلك النهر العظيم المتدفق الذي لا يعرف الانقطاع إننا نجد أن الحالات النفسية فترات متعاقبة و نبضات لا تعرف الثبات و التوقف الثانية هي الكيفية والأصل أن الشعور كيفي خالص، الأحوال الشعورية مجردة لا تخضع لقوانين الإحصاء والمفاهيم الفيزيائية والكيميائية متى كان الفرح أو الحزن تصورا شيئيا قابلا للملاحظة والتجربة؟ يبقى الشعور كمبدأ وحيد للحياة النفسية وما أكثر النظريات التي اعتمدت الشعور منهجا وموضوعا لبحثها وتفسيرا للحياة الإنسانية في شقها الواعي. من الفلسفات الكلاسيكية نجد المدرسة العقلية وعندها الشعور تصور عقلي خالص، العقل هو الذي يميز بين الذات الشاعرة والموضوع

المشعور به، الدليل على ذلك انتظام السلوك فنحن ندرك ونتذكر الصور بطريقـــة تلقائية، يقول ابن سينا: "إذا تجرد الإنسان من كل شيء حتى شعوره ببدنه، فإنه لن يتجرد من تفكيره، وأنه يستطيع أن يفكر". أما ديكارت فيقول: "الشعور تصـــور عقلي خالص". أما المدرسة التجريبية وهي من الفلسفات الحديثة وصـــلوا إلى أن الأفكار محددة بالعوامل الحسية الترابطية، اعتقد دافيد هيوم أن المعرفة ترابط بـــين الإحساسات فهو يقول: "إن المعرفة تأتي إما عن طريق الإحساسات، وإمـــا عـــن طريق الأفكار وتداعيها في مجالها الحسي". يقول جون ستيوارت ميل: "إن البرهان الوحيد على الشيء المرئي هو أن الناس يرونه بالفعل". يقول جون لوك: "إن المعاني الفطرية إنما هي مرآة عاكسة لما تقدمه الحواس". القوانين المنظمة للحياة الشـــعورية عند المدرسة التجريبية هي التجاور في المكان، مثاله الشارح وقوف شعراء العهـــد الجاهلي على الأطلال وأثره في بناء العاطفة الشعرية، تجـــاور في الزمـــان و مثالـــه الشارح تعاقب شهر رمضان الكريم في السنة الهجرية وأثـــره في بنـــاء العواطـــف والمشاعر الإيمانية، وجود تشابه ومثاله الشارح تشابه الأعياد الدينية والوطنية، مـــا يترتب عنه من مشاعر الثقة والعزة والكرامة، وجود تنـــاقض ومثالـــه الشـــارح المتناقضات وما يتبعها من آثار نفسية كالموت والحياة، النجـــاح والإخفـــاق مـــن المدارس المعاصرة في علم النفس والتي تكتسي ثوب الفلسفة نجد المدرسة الظواهرية وهي من الفلسفات الأوروبية المعاصرة، اعتبروا أن الشعور قصد ونزوع إلى الشيء المشعور به، فهو يكمل الالتقاء بين الذات الشاعرة والموضوع المشعور به، يقـــول هوسرل: "كل شعور إنما هو شعور بشيء ما من الأشياء، بحيث لا يكون هنـــاك فاصل بين الذات والموضوع". يؤكد على الالتقاء بين الذات والموضوع فيقـــول: "يتم هذا وفق خاصية القصد والتروع". نحن لا نشعر إلا ما نقصد إليه، ويكن ذلك

بوجود موضوع ما نقف عليه دون غيره، لما نجد عجلة خشبية في مزرعة نتركها ونقصيها، أما إذا وجدت في عربة ضمن أنساق حركية معينة فإننا نتجه إليها لأنها ظاهرة مشتملة في الأنا. من يمنع نفسه، في هذا العصر المادي المطرد، أن يوقف أمراض العصر القاتلة، لقد توهم البشر في بداية القرن العشرين، أن الخطر قد يأتي من الميكروبات، أو الفيروسات إلى أن نهاية القرن بينت غير ذلك، إن العلم البيولوجي قد وظف وسائله، فأبدع الأمصال الناجعة، ووضع المضادات الحيوية فانزوى المرض وذهب شبح الوباء وتم القضاء على أوبئة قاتلة. إلا أن الأمراض النفسية قد اتسعت وتنوعت، من يمنع عن نفسه القلق والاكتئاب، من يزر المجتمعات الغربية الصناعية، يدرك ذلك للوهلة الأولى سيجد أمامه مجتمعا مفككا وأحوالا متباينة. هل تستطيع مدارس علم النفس المعاصرة أن تحد من هذه الأزمات كما فعل العلم الفيزيولوجي؟ إن عمق الحياة النفسية يستدعي مناهج متعددة للحد من أزماتها وفهم تناقضاتها، مع ذلك الفلسفات التي تبنت فلسفة الشعور عبرت على الفكر الكلاسيكي و لم تخرج على التحليلات الفلسفية الأرسطية الأفلاطونية وظهرت مدارس نفسية معاصرة أطاحت بفلسفة الإنسان المتعالي، هذا عجل بنشأة مدرسة التحليل النفسي وقامت على فرضية اللاشعور وهو من المصطلحات الجديدة وله دلالات متعددة بتعدد العلوم، يفهم منه كل ما لا يمكن الشعور به كالأفعال المنعكسة، مثل حركة حدقة العين ودقات القلب وحركة الأحشاء وردود الأفعال السريعة، هذا نصطلح على تسميته باللاشعور الفيزيولوجي، أما الأساطير والمعتقدات المتوارثة والمؤثرة في السلوك تسمى اللاشعور الجمعي، أما ما تعلق بالحياة النفسية فهو اللاشعور النفسي، تأخر ظهوره لتعقد وتداخل السلوك الإنساني، فرضية اللاشعور ثورة في علم النفس وضعت الانسان في وضعه الطبيعي،

يعود الفضل إلى س.فرويد S.Freud 1856-1939م و هو طبيــب نمســاوي متخصص في الأمراض العصبية والعقلية، أسس مدرسة التحليل النفســي، اعتمــد التحليل النفسي كمنهج ونظرية في علم النفس المعاصر، مــن مؤلفاتــه تفســير الأحلام، مقدمة في التحليل النفسي. بداية تعرف فرويد على المدرسة العضوية التي أسسها الطبيب إميل كرا يبلي، التي فسرت الأمراض النفسية تفســيرا عضــويا واطلع كذلك على دراسات وأعمال شاركوا في مدرسة سالبتريير، تعرف علــى أمراض الهستيريا، نظر إلى الحالات المرضية فدرس السبات المرضــي، التخشــب، الجوال الليلي ثم اطلع على أعمال برنهايم، الذي أكد علــى الحقيقــة العلميــة في الدراسة النفسية أشار إلى أهمية الإيحاء وذكر أن الفكرة الراسخة في الذهن يمكن أن تثير نشاطا واعيا دون أن يشعر الشخص بذلك. ملاحظة علمية حظيت باهتمــام س.فرويد وكان هذا هو السر المهم الذي قاده إلى العمــل مــع العــالم برويــر Breuer، لكنه بعد زمن أدرك قصور كل هذه المناهج في تفسير الأعراض المرضية النفسية، فأسس مدرسة أخذت بفرضية اللاشعور كفكرة ومنهج وأدرك أن الطفل يولد بغرائزه ودوافعه الجنسية والعدوانية، يولد أنانيا، يتشكل في المجتمــع كــذات متميزة، تفهم في كليتها لا في أجزائها أما تفسيرها فيتجلى في دوافعها اللاشعورية، الأدلة على وجود الأحوال اللاشعورية التي سردها كثيرة منها الأحلام والتي تــأتي محملة بالرموز، والتي لا يدل ظاهرها على قصدها، هي تحقق رغبات مكبوتــة أو حاجات آنية، في يوم رمضاني حار ينام الصائم القيلولة فيرى نفسه شاربا أو سابحا، ومن يعاني ضيقا في حياته اليومية يرى نفسه في المنام محلقا أو صــارخا، كــذلك النسيان وزلات القلم وهفوات اللسان، تكون في الغالب نتيجة لدوافع لاشــعورية كنسيان الفشل أو تجاهل من نكرهه، ينسى من أخفق في الاختبــارات كشــف

نقاطه، في حين يتذكر الناجح أدق التفاصيل، دليل السخرية والنكت وهي تعبر عن الحالات اللاشعورية، الإنسان يسترسل في السخرية وينسبها إلى غيره وإلى من هو أفضل منه، لكي يعطي لنفسه وضعا رمزيا، يعلو به على الآخرين، أضاف الفنـــون ومن يطلع على الفنون الشعبية التراثية، يكتشف أنها تعبيرات لاشعورية نكتشفها في الأفراح والمآتم والتجمعات. إن الاضطرابات النفسية لا تفسر تفسيرا عضويا، بـــل يجب الأخذ بالتحليلات النفسية القائمة على تشخيص الحالة في ظروفها الانفعالية، المتصلة بالوظائف العقلية العليا، الصراع والتوازن النفسي تعكسه الحياة اليومية التي تتعقد، تتزايد تداخلا وتشابكا، لا يخرج الفرد من أزمة، إلا وقع في أزمـــة أقـــوى وأكبر منها، هو إن اقتنى شقة بعد جهد جهيد، يجد أن الموقع الذي اختـــاره غـــير مناسب والأفراد الذين جاورهم، لا يتفقون معه في أفكاره، ولا في طبيعة حياتـــه اليومية، أضف لذلك أزمات العمل، وأزمات التنقل، عدم قدرتـــه علـــى تلبيـــة الحاجات المتزايدة لأفراد أسرته، فيستسلم للانفعال، مع الأيام تكبر أزماته، تشـــتد حاجته للخروج من هذه الأزمات المتلاحقة، هي في الأصل أزمة عصر وحضـــارة، إن الفرد يتعرض في حياته اليومية لأزمات يستطيع أن يتجاوزها في أغلب الأحيان، إن تفاقمت، هي تقود إلى الأزمات والأمراض النفسية، ومدرسة التحليل النفسي، تقدم تصورا عاما للنفس الإنسانية، تتجلى في بنيات ثلاث، الأنا الأعلى ويمثل القوة الاجتماعية الأعلى الصادرة عن القيم والأعراف وما يمثل الآخر للفرد، أما الأنا فهو الحلقة الثانية في بناء كيان الشخصية ووجودها ويحقق للأنا التكيـــف والانســـجام لأنها تمتلك القدرة على التمييز والإدراك المباشر للعالم الموضوعي، الحلقة الثالثة وهي الأهم في تكون فردية الشخص الهو حسب تعبير مدرسة التحليل النفس وهي لفظ مجازي لأن الهو هو المغارة العظيمة المظلمة، تعبر عن عالم الأهواء والغرائز والدوافع

الفطرية وهو يتشكل بفعل الكبت الذي يمارسه الفرد على ذاته ويمثـــل رغبـــات الطفولة المكبوتة وكذلك الميول الموجهة التي يحتفظ بها الهو، تضـــحى الـــذكريات والعادات والعواطف بحكم التقادم منسية، يعتبر فرويد الجانب المخفي الغائب عـــن الوعي ذا طابع جنسي يخضع لمبدأ اللذة ويحمل الفرد على إشباعه، إن عجز فهـــو الكبت و التأزم وما يترتب عنه من عقد نفسية. البحث العلمي جعـــل فرويـــد في النفس البشرية يتجاوز التحليلات الفلسفية الكلاسيكية ويطرح فرضـــية تســـمح بتفسير السلوكيات البشرية تفسيرا يتفق مع الثورة الكوبيرنيكية الكونيـــة، طـــرح المشكلة الإبستيمولوجية التالية مـــن الليبيـــدو إلى الغريـــزة العدوانيـــة؟ الفلســـفة الكلاسيكية القديمة أخذت بنظرية الثبات ونظرت إلى العالم والحياة بنظرة السكون، لا شيء يتغير حتى جاءت الداروينية وأحدثت الانقلاب الثاني، أخـــذت بمســـلمة التطور ونظرية الصراع من أجل البقاء مع فلسفة الانتخاب الطبيعـــي فوضـــعت الإنسان في سلم تطور الكائنات الحية، أضحت رتبة الإنسان في الدرجة وليست في النوع، هذا جعل مؤسس مدرسة التحليل النفسي ينظـــر للإنســـان في سلســـلته الحيوانية لا الإنسانية، ما يظهر ذلك النظرية الجنسية أو ما يعرف بالليبيـــدو إنهـــا غريزة الحياة والوجود، إنها الفعل الحيوي والبناء، إنها العواطف بين النـــاس، إنهـــا الميول والرغبات والأهواء، إنها العلاقات الحميمة بين الآباء والأبناء، إنهـــا الأفـــراد والأسر والجماعات والقبائل والشعوب، إنها طاقة الوجود والبقاء. أضاف فرويـــد في آخر حياته الغريزة العدوانية، إذا كان اللبيدو هو الحياة والبقاء فإن الموت هـــو الفناء متجليا في تخريب الذات، هو ما يلحقه الإنسان بنفسه من أذى، أو ما يلحقه بأذى الغير، هكذا نفسر الاعتداء والجرائم والحروب المتعاقبة في التاريخ. من رؤيـــة إبستيمولوجية نطرح التساؤل التالي: هل تبرير اللاشعور يمثل نظرية علمية قائمـــة

بذاتها أم يظل مجرد افتراض فلسفي؟ المناهج التجريبية والروح العلميـــة وجـــدت طريقها في علم النفس المعاصر فأضحى بالإمكان النظر إلى النفس الإنســـانية مـــن زاوية استقرائية موضوعية، من النتائج المحققة نجد أن التحليـــل النفســـي كمنـــهج وطريقة علاج للأمراض وأهميته في الكشف عن مكونات الحيـــاة وإظهـــار آليـــة الكبت، بيان أهمية السنوات الأولى ومرحلة الطفولة في تكوين الشخصية و تحقيـــق نظرة العيادة بإحداث علاقة ثقة بين الطبيب والمريض، وإحداث خاصية التـــداعي التي تقود إلى تفكيك الجانب الغامض والمعقد في الشخصية. اســـتطاعت مدرســـة التحليل النفسي تحقيق ما عجزت عنه المدارس الكلاسيكية قديمها وحـــديثا، الـــتي اعتمدت الشعور كمدخل أساسي في فهم الحياة النفسية، جاء البديل بشكل علمي وعملي، له جدوى في حياة الناس وانشغالاتهم اليومية. فرضية اللاشعور أوقعـــت زلزلة فكرية في تفكيك البنيات الفردية وإحداث قراءة جديدة من نتـــائج الزلزلـــة الفرضيات المضادة لفرضية فرويد، اعتقد فرويد أنه قد حل مشكلة الإنسان، لمـــا وضعه في طبيعته وغريزته، إلا أن النتائج جاءت غير متوقعة، اعتقـــد مناصـــريه أن العلاج من الأزمات النفسية يتحقق بالقدرة على إشباع المطالب الحيوية، فانـــدفعوا في شهواتهم وتنكروا لقيمهم، فعمت المجتمعات الغربية مظاهر الانحلال وتعقـــدت الحياة بانحلال الأسر لأن التصور الذي بثته مدرسة التحليل النفسي أن تفريغ النفس يتم بإشباع الغرائز، هذه نتائج غير متوقعة حتى من صاحب المدرسة. دفع علمـــاء وفلاسفة إلى إعادة النظر في مناهج التحليل النفسي وجاءت الانشقاقات من داخل المدرسة نفسها بداية انشقاق العالم ألفريد آدلر 1870-1937م و هـــو طبيـــب نمساوي عمل مع فرويد منذ 1911م، ثم وقف معارضا لأستاذه، لما أخـــذ بمبـــدأ الجنسية وابتعد عن منهجه لما خص نفسه بفرضيته القائمة على عقـــدة الـــنقص،

فالأمراض النفسية سببـــها شعور الإنسان بنقصه وقصوره أمام الآخرين، ساهم في بناء علم النفس العيادة، ولظروفه انتقل إلى الولايات المتحدة الأمريكيـــة فحضـــي بالتقدير فاختارها موطنا، توفي سنة 1937م بأزمة قلبية في جولة قادته إلى أوروبا. ثم يحصل انشقاق العالم كارل يونغ 1875-1961م وهو عالم نفساني سويســـري تلميذ فرويد، عارضه في نظريته ساهم في بناء التحليل النفســـي وعلـــم الطبـــاع، أخـــذ بمبدأ اللاشعور الجمعي، الذي يتشكل من الطقوس والعادات الاجتماعيـــة وكيف أنه يمكننا من معرفة الأعراض المرضية وكيف يمكننا تفســـيرها وتحليلـــها. المدرسة التحليل النفسي فتحت آفاق الدراسات العلمية النفسية، تكاثرت المدارس النفسية وتعددت ومن أهمها المدرسة الغشتالتية ونأخذها كنموذج فقـــط وكيـــف تبنت نظريات قوية في العلم، تهتم بتفسير الإدراك والـــتعلم وآليـــة بنـــاء العـــالم الموضوعي السيكولوجي: Gestalt كلمة ألمانية من مفرداتهـــا الكـــل، الشـــكل، الصورة، لذلك اختلفت الترجمات: نظرية الشكل، المجال، الصورة، تأسست ســـنة 1910م في برلين ومن روادها: فيرتهيمر Wertheimer و كـــوهلر Koehler وكذلك كوفكا Koffka بداية انتقدت النزعة الذاتية ورفضت أن يكون الإدراك مجموعة إحساسات أو عملية تأليف يقوم بها الذهن قالوا: "الإدراك من أول وهلـــة هو إدراك لمجموعات ذات صور وبنيـــات". كـــذلك الـــتعلم وكـــل الوظـــائف والنشاطات الإنسانية الفكرية واللغوية، الصورة الفوتوغرافية والزيتية تـــبرز قـــوة الموضوع وشدته وأثره المباشر في بناء الصيغة الإدراكية، هذا ينطبق كذلك علـــى اللحن الموسيقي نحن تتبين أن سماعنا قد حدث بالانتقال من الكل إلى الجزء، نحـــن نستعرضه كبنيات ثم نجزئه إلى ذرات أي نوتات موسيقيه، هـــي تنـــاقض الفكـــر الكلاسيكي الثنائي والتحليلات الفلسفية وتعتمد نظرة علمية وموضوعية. تعتقد أن

المجال الإدراكي هو الانتقال من الكل إلى الجزء و أن إمكانية التمييز بين الإحساس والإدراك تبدو مستحيلة، الذي يبني الصيغة الإدراكية هو شدة المجال وانتظام الأشياء. وضعت المدرسة الغشتالتية قوانين الانتظام ويمكن أن نمثلها في الوقائع التي ندركها، التي تفرض نفسها بقوة حركتها وتجسدها كأشياء تنطبع في حسنا البصري والسمعي، كذلك اللمسي، مع وجود التتابع والتسلسل والتناسق الأخاذ الذي لا ينظر إليه إلا في كليته، أننا نبنيها في أنفسنا كموضوع يفرض نفسه في مجالنا الإدراكي. نستعين بنظريات الفن لتوضح لنا الأبعاد الجمالية وفق قوانين الانتظام القائمة على فلسفة المنظور والقدرة على تشكيل الضلال وضبط الخطوط وما شابه ذلك، يمكن أن يتحقق في الموضوع الذي نريد إبرازه بوضعه في أنساق جمالية كإخراج كتاب ولوحة فنية وبناء إعلان تجاري وبث خبر دعوي، منهج يساعدنا لما نريد أن نبرز كلمة أو نريد ضبط معلومة، وتحقيق غاية معلومة يحتاجها المعلم والمتعلم. المدرسة الغشتالتية تطرح سؤالا في غاية الأهمية: ما هو قدر النشاط الذهني في الإدراك الحسي؟ المدرسة الغشتالتية جعلت علم الموضوع مستقل بذاته له قوانينه ومسلماته، هذا يتجلى في عالمنا المعاصر عالم السمعي البصري الذي نفذ إلى قلوب البشر فطوعها وجعلها أسيرة لمؤثراتها، وخير مثال فعل الإعلان التجاري وسلطته القاهرة، النظر إلى الشبكة العالمية الإعلامية المهولة تبعث على الفزع والخوف، لأن المتلقي الآن لا تحصنه أفكاره ولا آراؤه، هي ضعيفة أمام سطوة هذا المارد، يبث بشكل متواصل رسائله المشفرة تفككها الحواس وتختزنها في اللاوعي، ومع الزمان تطفو على السطح وتمارس فعلها المدمر على السلوك، تحليل سلوكيات أطفال في مدرسة يشهد على صدق هذه الرؤية، كأساتذة ومربين نواجه نماذج معقدة ومفككة ومتروية في الوهم والخيال، بالكاد يفقه الطالب وجوده ويتعرف

على مطالبه، كائن غريزي منفعل متأزم، إذا كانت النظرية الذهنية تعتقد أن الجهد النفسي صادر عن التربية، فإن الغشتالتية تنكر ذلك، المعرفة عندهم تفرضها حقائق الموضوع، ففي حقل التربية والتعليم لا نؤمن بوجود متعلم، بل نـــؤمن بوجـــود مناهج وطرائق تعليمية، الطفل بحكم المكون الإعلامي القائم علـــى ســـيميولوجية الصورة لا يعبأ بحركة العقل ولا يتفاعل مع التصورات المثالية، لا يستمع لقصـــيدة طرفة بن العبد، بل يهزأ ويسخر من أستاذه، ويتفاعل ويتجاوب بتلقائية نادرة مـــع لعبة إلكترونية بإرادة خلاقة، يحل الغامض، يبسط المعقد، يستعين بالخطأ لتحقيـــق الصواب، لو قدر لهذا التلميذ في حياته المدرسية، أن يدرس المفاهيم الرياضية مـــثلا بطرائق موضوعية صادرة عن واقعه بتمثلها في نفسه وبشكل حدســـي وتلقـــائي، ستغيب العوائق المانعة للتعلم حتما، بعد كذا سنة من الـــتعلم المســـتمر بـــالطرائق الموضوعية يفتك التلميذ علمه ومعرفته. هذا ظهر بشكل واضـــح في الدراســـات السيكولوجية التي أثبتت أن الطفل عندما يشرع في القبض على الأشياء يكون ذلك تحت توجيه البصر، لذلك نجد أن قوة الحاسة المدركة هنا متقدمة بالضرورة عـــن الفكر المجرد الخالص، نصل إلى أن قيمة هذه النظرية كامنة في تطوير صيغ العـــالم الموضوعي، وبالتالي خلصت البحث من التحليلات الاستبطانية القائمة على وجود النفس كماهية عند العقليين، أو الذرية الإرتباطية عند التجريبيين الحسيين. مع هذه الأهمية الكبرى، إلا أنها قللت من وظائف المدرك وجعلته مجرد ناقل للمعلومة، إن المؤمن المنفعل بواقعه العالم بموضوعاته لا يستجيب لإعلان تجاري يروج لبضـــاعة حرام مهما كانت شدته وقوته، هكذا تكون قد ألغت دور الوضـــعيات الذهنيـــة والحركية. بعد هذا التفسير العلمي خاضت الفلسفات المعاصرة من جديد في ماهية النفس الإنسانية، نكتفي بمثال واحد هو المدرسة الظواهرية وفلسفتها فكرة التعايش

مع الأشياء قصدا ونزوعا، فلسفة معاصرة مجالها الدراسة الوصفية للظـــواهر كمـــا ندركها في الزمان والمكان، تنظر في الحالات النفسية الشعورية كمـــا تتجلـــى في الواقع، الظواهرية في اللغة الفرنسية Phénoménologie أي علم الظواهر ومـــن مؤسسيها الفيلسوف الألماني إ.هوسرل وكذلك ميرلوبـــونتي، الحيـــاة والوظـــائف البشرية ظواهر تشد الوعي وبالتالي تسترعي الانتباه لدرجة أن إمكانية التمييز بـــين الذات المدركة والموضوع المدرك يبدو مستحيلا يقول هوسرل: "إن الإحساس هو ذلك الاتصال الحيوي بالعالم الذي يجعله لنا حاضرا بصفته مكانا مألوفا لحياتنا ومنه يستمد الموضوع المدرك والذات المدركة سمكهما و إنه نسيج قصدي يعمل السعي إلى المعرفة على تفكيكه.". يقول كذلك: "إن الإحساس غير محسوس". هذه النزعة قد وازنت بين العاملين الذاتي والموضوعي وألفت بينهما وجعلـــت مـــن القصـــد والنزوع رابطة حيوية، مثلا لما نختار كتابا بعينه يكون الاختيار هنا له مصدر قـــائم على التجربة الذاتية المجردة، التي توضع في المكان لأن الذات الواعية تعترف بوجود قوة حيوية وطاقة دافعة ، هي الشعور الذي يجعل بناء الصيغة الإدراكية خاضـــعة لمبدأ الإمكان والاحتمال. علم النفس عيادة المسلم أمام الضغط المتعـــاظم للحيـــاة اليومية المتناهية في التعقيد ، ظهرت في المجتمعات الإسلامية أعراض مرضية مقلقة، تفسر بالانزواء في الخيال والوهم، هي حالة تاريخية جاءت من التـــراكم الشـــديد لفلسفات واهية تفسر ولا تبرهن وتكتفي بالتصورات الساذجة وتـــردد الأفكـــار العقيمة، نظرتها للعالم والكون خرافية، هذا جاء مع ميراث الدولة الفاطمية، الميراث الشيعي فكك الشخصية المسلمة لما أودعها التفسيرات الفلسفية، وجعـــل منطـــق الفهم تركيب المغالطات وانتظار الحلول السحرية. لذلك تحليل الأمراض النفسية في مجتمعاتنا الإسلامية المعاصرة لا يتحقق إلا بقراءة تاريخ الحالة، لأن الضياع الـــذاتي

والانحلال في شخصيات الآخر مشاهد في الأفعال والأعمال ومهما كان هذا الآخر حقيرا وتافها. ملاحظة الأعراض وتفكيكها وظيفة أساسية كأن نرصـــد في فعـــل الأفراد القدرية والاستسلام للمقتضيات الحياتية وكأنها قدرا مقدورا، يقبع الفـــرد المسلم المعاصر في حياته اليومية غائبا عن الوعي، لا حركـــة ولا فعـــل ولا إرادة تحفزه، شخص متوتر ينفعل لأتفه الأسباب. أدوات العلاج المقترحة فهم حركـــة النفس وقدرتها على رد الفعل الصحيح في الزمن المناسب وهذا يتحقـــق بالقاعـــدة تحديد الأبعاد الكونية وفهم الفرد وجوده وعلاقاته مع الآخرين، ثم التطوير الـــذاتي وهو أن يمتلك قدرة ذاتية تحرره وتمكنه من مراجعة ما يملـــك ويختـــزن مـــن آراء وتصورات ويقوم بعملية فرز يترك ما يبني فرديته ويلفظ وينبذ ما يحطم نفســـه، ثم الوصول إلى أعماق الوعي وهي المنطقة التي تترسب فيها المحددات والمعيقات وهي سلة مهملات يجب نفضها والتخلص منها، لأن تراكمها يثقل الفعل ويجعله محدود الفعل قليل الفائدة. أما الباحث في حقل تفكيك الأمراض النفسية يحتاج إلى النظرة الكلية الشمولية في الأنساق التاريخية، يضع كل فئة اجتماعية في سلاسل تناقضاتها النفسية والاجتماعية ويسجل المتغيرات، كأن يرصد حالة العبث العامة أو مـــرض التقديس لما لا يقدس، كتقديس القبور والأموات، تفكك الأنا وأن يعيش الفـــرد بعدا واحدا، كأن ينغمس في الماضي ويعيش فيه أبدا أو يفكـــك نفســـه ويعـــيش الحاضر دائما بأنانية وذاتية، أو يسافر في المستقبل واهما دون رجعة.

علم الاجتماع يصنف على أنه فرع من العلوم الإنسانية يبحث في أثر العلاقات البشرية على حياة الأفراد، كيف تتشكل أنماط التفكير داخل الجماعة الواحدة، عالم الاجتماع من اهتماماته الأولى النظر في طبيعة الأعمال التي تقوم بها الفئة الواحدة، كان ذلك في الخلية الأولى وهي الأسرة أو وسائل الإعلام مع النظر في تشكل العلاقات الاجتماعية داخل النسيج الواحد، تختلف النظريات وتتنوع تبعا للمدارس الفكرية المحملة بثقل الثوابت العقدية والفلسفية والتناقضات الفكرية الناتجة عن التعايش بين الدول والأمم. المدارس الكبرى ترصد التحولات الاجتماعية وتبحث في دوافعها التاريخية والمآل المستقبلي، الدول الكبرى جعلت علم الاجتماع من الأوليات المعرفية، لأن رصد الأحوال الاجتماعية عن طريق التجسس وجمع المعلومات عن الفئة والجماعة الواحدة ييسر فهم التحولات التي تطرأ على الجماعة، فيتم توجيهها ليخدم مصالح ثقافية واستعمارية، من المهم أن نرصد التحولات الاجتماعية داخل الوطن الواحد، نحولها لما يخدم الفرد والجماعة حتى لا تتحول إلى زلازل وأعاصير تعصف بالأمم والمجتمعات.

موضوع علم الاجتماع: الفرد في المجتمع خاضـــع بالضــــرورة لحتميـــات ومقتضيات لا يستطيع أن ينفصل عن واقعه إن أراد، لأن إرادته عاجزة عن إحداث أي تغيير وحتى يتضح المقال نضرب هذا المثال "هي سيدة من عائلة راقية تحسن فن المعاملة تسكن شقة في أرقى أحياء العاصمة، تعمل في وزارة سيادة، بـــين الحـــين والآخر تظهر في القنوات مبتسمة ضاحكة، تردد آخر النكت، قد تخطت الأربعين ومع ذلك فهي تعتقد أن العلم لا يعرف المستحيل، الدليل أنها قامت بعملية شـــد للوجه لإزالة التجاعيد، تتردد على محلات التجميل وتستعين بـــالعلاج الطبيعـــي، لتخفيف الوزن واستعادة الرشاقة ، منهمكة وجادة في عملها، لدرجة أنها لم تجـــد

فرصة لزيارة أبيها منذ سنوات ، لها في ذلك العذر، الحياة مزدحمة ومتداخلة هـــذا المساء رجعت إلى بيتها كعادتها دائما فتحت بريدها الإلكتروني، وصلتها رســـالة تعزية من جمعية خيرية تخبرها بوفاة الوالد، أن الجمعية تكفلت بمراسيم الدفن بحكم عقد أبرمته مع الوالد في حياته بشكل سريع ارتدت لباسا خاصا ووضــعت قبعــة سوداء وأطفأت المصابيح، اكتفت بشمعة موقدة، قررت ألا تشاهد فيلم الســهرة، عزمت أن تذهب غدا لشركات التأميم لتطالب بمستحقات الوفاة فهي بحاجة ماسة للمال لتغير جهاز التلفاز ، إن أمكن السيارة، وتستغل الفرصة وتجدد الاشــتراك في مطاعم البيتزا الجديدة، حتى تبقي على مكانتها الاجتماعية". علم الاجتماع منهج أكاديمي جديد ظهر متأخرا لطبيعة تعقد المجتمعات الإنســانية وتداخلــها ثقافيــا وسياسيا وإعلاميا، المشترك الظاهر والواضح هو التاريخ والتشارك في أحداثه تأثيرا وتأثرا، من يراجع تاريخ المسلمين يكتشف أنهم لم يتعرفــوا علــى علــم يحمــي وجودهم، ويمنع تفرقهم وتشتتهم، لم يدرسوا فن الخلاف المجدي لأن توافق البشر على الرأي الواحد متعسر وغير ممكن، من يراجع ما كتــب في تــاريخ الفلســفة الإسلامية القديمة في هذا الباب يصاب بالغثيان لأنك لا تجد إلا ترديدات أفلاطونية فارغة كالبحث عن المدينة الفاضلة كما فعل الفارابي وغيره، هي مباحث في الجملة عقيمة، لأن الأصل في النظر أن ينظر الباحث إلى واقعه ويحلله ويكتشف نقائصــه، لا يبحث في صورته المثلى لأن هذا عقم فكري عظيم. لو افترضنا أستاذا يــدرس طلبته علما رياضيا، ترك تدريسهم عمل برسم صورة ما يجب أن يكون عليه كــل طالب، توهم أن هذا طبيبا وذاك مهندسا لكان عمله عبثيا غير مجــدي ولا نــافع، الجهد الوحيد الذي يستحق النظر هو جهد المؤرخ ابن خلدون ولد في 27 مــايو 1332م وتوفي في 19 مارس 1406م كان فلكيا، اقتصاديا، مؤرخا، عالما بالفقه

حافظا، عالم رياضيات، استراتيجيا عسكريا، فيلسوفا، ورجل دولة، يعتبر مؤسس علم العمران. ولدفي عهد الحفصيين، ما يعرف الآن بــتونس، أصله من الانـــدلس من مزرعة هاسيندا توري دي دونيا ماريا الحالية القريبـــة مـــن دوس هرمانـــاس اشبيلية، في فلسفته حول العمران رصد التناقضات والمفارقات في الحياة الإســـلامية وجاء جهده متأخرا لأن الفيروسات الفكرية التي لبست ثوب التشيع والتصـــوف الفلسفي والفرق الكلامية قد تحولت في جسد الأمة إلى أورام ســـرطانية، تفتـــك باللحم والعظم، يصل ضررها إلى الجهاز العصبي أي الفكر العقدي للأمة. تـــأخر علم الاجتماع في الظهور وظهرت الإرهاصات الأولى في أوائل القرن التاسع عشر، كان الهدف من هذه البدايات فهم التطورات والانقلابات في حيـــاة البشـــر مـــع الأزمات والانكسارات الاجتماعية التي تسببت فيها الفلسفات الكلاسيكية. الذي جعل الركود والسكينة يحول المجتمعات البشرية إلى مستنقعات، يحول حياة الأفراد إلى جحيم مستمر وخاصة في المجتمعات الغربية، مع تصدع الهوية والانتماء الـــديني وتحوله بفعل الحروب والفتن إلى تراكم لا نهائي من الطوائف والملل والنحل. يعود الفضل إلى أوغست كونت، هو أول من صاغ تعبير Sociologie علم اجتماع في سنة 1838م من Socius التي تعني باللاتينية رفيق، شريك واللفظ الثاني يوناني Logea من معانيه الدراسة و العلم ووضع ما يعرف بالاتجاه الوضعي، هي نظرية تبدو غريبة لأنه يعتقد أن البشرية قد مرت بمراحل ثلاث هي اللاهوتية والميتافيزيقية والوضعية وأن المعرفة البشرية نشأت متصلة مع المعارف الخرافية والساذجة، لقيت هذه الأفكار انتقادات واعتراضات من الإبستيمولوجيين ومؤرخي العلم وفلاسفته وخاصة من غاستون باشلار الفيلسوف الفرنسي وصموئيل كـــوهن الأمريكـــي. الدراسات الاجتماعية تختلف عن الدراسات الفلسفية في الموضوع والمنهج، الفلسفة

موضوعاها القضايا الماورائية ومنهجها التأمل أما موضوعات علم الاجتماع فهـــي الظواهر الاجتماعية التي تسترعي الانتباه، كل مـــا تعلـــق بالانحرافـــات الفرديـــة والجماعية كالبغاء والجنوح والتمرد، وممارسة العنف غير المشروع بأنواعه، رصـــد الظواهر الجماعية كالسرقة عند الأطفال وظاهرة الطلاق والآثار المدمرة لوســـائل الاعلام، تفكك العلاقات الاجتماعية و انحلال التنشئة الاجتماعية وفقدان السيطرة الأبوية، ضياع الأسرة في مهب ما يعرف بالحداثة والتقليد وغياب النوازع الدينيـــة والأخلاقية، شيوع ظاهرة النفاق العملي في السلوك وغياب الردع الذاتي ظهـــور حالة الكذب والتصنع في السلوك والأداء، هذا قليل من كثير من أجل ذلك تتعدد فروع علم الاجتماع وتتنوع مع الأيام، من أهم الفروع نجـــد علـــم الاجتمـــاع الاعلامي و علم الاجتماع الاسري و علم الاجتماع الاقتصادي والسياسي وعلـــم اجتماع الطفولة و علم الاجتماع العائلي و علم الاجتماع التربوي وعلم الاجتماع النفسي وهكذا.

مناهج علم الاجتماع: لا يمكن الاستغناء عن الدراسات الاجتماعية لفهـــم البنيات المؤثرة في صناعة الأفراد وتشكل أفكارهم، ورؤيتهم لـــواقعهم ومســـتقبل حياهم لأن رصد حالة اجتماعية يعطينا القدرة علـــى التنبـــؤ، ووضـــع فرضـــية الاحتمالات الممكنة، مثلا ثورة التواصل وتغير أدواهما ووســـائلها يضـــعنا أمـــام منعطفات خطيرة إذا لم نحسب مسارها ومجرى تغيراهما على الفعل والسلوك. المآخذ الكثيرة على العقل الاسلامي المعاصر هو أنه مجرد ناظر لواقع لا يسعى في صناعته، بل لا يسعى حتى لفهمه لأن في وعيه الفلسفي العميق أن كل شـــيء ثابـــت، وأن التغير احتمال ضعيف ويعتقد واهما أن بنياته العقدية معصومة، أنها ثابتة في عقول

معتنقيها وينسى أن خصومه في الوجود والحضارة يعرفون هذه الحقيقـــة ولـــذلك ينبون فعلهم على تفكيك شخصية المعتقد لا الاعتقاد ذاته، هذه حالة يثبت التاريخ وجودها وصدقها هكذا تكون المناهج في الدراسة الاجتماعية أداة بحث واســـتقراء تحقق الوصول إلى المعلومة المطلوبة بكل يسر ودون عناء، تعلق ذلـــك بالبنيـــات البشرية والمادية والتاريخية والاقتصادية وكل ما تعلق بحيـــاة الجماعـــة، الـــدارس للحوادث الاجتماعية يعرف أنها مناقضة لفلسفة الثبات وأنها محكومة بقواعد التغير والاطراد المستمر. لذلك يجب أن تتعدد المناهج لتلم بتعقيدات الظواهر وتشـــابكها من الأدوات المعتمدة المسح الاجتماعي وهو يقترن بوعي اللحظة الراهنة للمجتمع، يرصد حركتها وتداعياتها كمسح ظاهرة التمرد والخروج على القـــيم والثوابـــت، وتفسير الجنوح إلى العناد والمشاحنة وكيف أضحى فلسفة عمليـــة لـــدى فئـــات اجتماعية، ونجد منهجا جديدا يختص بدراسة الحالة وهو يختص بدراسة حالة دون سواها وفهمها، في وجودها وحركتيها الاجتماعية والتاريخية كدراســـة مســـالك الغش في الحياة العامة وتنوعها بين الفئات الاجتماعية طلبة وعمال وساسة، كيف أضحت من المداخل الأساسية لتحقيق الحاجات والمنافع، من المناهج نجـــد منـــهج المقارنة ويكون داخل المجتمع الواحد كأن نقارن تطور ظاهرة التمرد الأسري بـــين الذكور والإناث، قد تأتي المقارنة بين مجتمعين مختلفين كأن نقارن تراجـــع نســـب الذكاء والإبداع في المجتمعات العربية مقارنة مع مثيلاتها في العالم، من أهم المنـــاهج التي لها الدور الأساسي في فهم التحولات والثورات وتغير البنيات الفكريـــة هـــو المنهج التاريخي، القراءة التاريخية الصحيحة المقارنة تضعنا أمـــام المنعرجـــات الـــتي شكلت الوعي الاجتماعي. الذي يدرس شيوع الفكر الخرافي والوهمي و التحليلات الفلسفية الميتافيزيقية في المجتمعات العربية الاسلامية سيجد ودون عناء الأسباب في

الفترات المتلاحقة للتاريخ، الانكسارات الـــتي عرفهـــا المجتمـــع بحكـــم الهـــزائم والإخفاقات، لو اخترنا المغرب العربي كمثال سنجد أن الأسباب التي تقـــف دون نهضته تاريخية اجتماعية، رغم تباعد الأزمنة والعهود لم يســـتطع أن يـــنفض عـــن جسده المعتل الميراث الخرافي الذي جاء مع الدولة الفاطمية الفكر الرافضي المحمـــل بالحقد على التوحيد ميراث النبوة، لامس زوايا اللاوعي في حياته النفسية وتركـــه كائنا متوهما، لا عاقلا لا تخلو قرية ولا مدينة من أضرحة وشعوذة، تعلق بفلســـفة اللامعقول، هذا وغيره كان سببا في هدم لقواعد المجتمع، لغاية الآن لم ينشئ المجتمع المغاربي عقدا اجتماعيا يتعايش فيه المغاربة، لأن تفكيك عوالم التوهم والغياب عن الوعي تحتاج وقتا وجهدا أكبر، من علماء الاجتماع المعاصر من يحاول أن يجعـــل مناهجه علمية تجريبية وتتم الاستعانة بالملاحظات والفرضـــيات والقيـــام بـــبعض التجارب كأن يختار مجموعتين متشابهتين في بيئتين مختلفـــتين، ويحـــاول أن يفهـــم الفوارق بينهما كأن يرصد التعامل بين الأفراد وتشكل الأفكار التواصلية وفعلها في إحداث الانسجام داخل وخارج المجتمع الواحد، من المناهج كذلك منهج تحليـــل المضامين وهو يختص بالوصف الموضوعي و العلمي للظواهر والتغيرات الاجتماعية كأن نرصد حالة دينية أو سياسية ويتم البحث في أسبابها ودوافعها وكذلك أبعادها وإن أمكن نهاياتها المرتقبة.

علم الاجتماع وفلسفة العلوم: هو علم جديد تطور وتشكل بشكل واضح مع بدايات القرن التاسع عشر، وهو ينظر إلى شبكة العلاقات الاجتماعية وحاول وصفها وبحثها بمناهج علمية، ينظر للبشر على أنهم كائنات بشرية تخضع لقوانين عامة تفسرهم، فلسفة العلم تعنى به لأنه يفيد في فهم السلوك البشري، واستشراف

آفاقه المستقبلية، هذا العمل البحثي يساعد العاملين في حقل التربية والسياسة وكذلك المشرعين من رصد التفاعلات الأولى وفهم التناقضات العامة، من أهمها التناقضات الطبقية، اختلال الوعي داخل الفئة الواحدة. علم الاجتماع علم له موضوعاته ومناهجه العلمية ويسترعي انتباه الباحثين ولنتأمل هذا المقتطف: "بطبيعة الحال لا تزال عندنا تظاهرات جماهيرية وأحداث شغب واضطرابات أجور، إلا أنني أؤكد أنه من دون الأبحاث المتعلقة بالرأي العام كنا سنواجه قلاقل أكثر عددا وأكثر عنفا، والواقع أنه يتعين علينا، عند وقوع تعبيرات عنيفة عن الرأي العام، أن نتأمل بعناية ما نؤديه من أعمال، وأن نتساءل عما قد فشلنا، من ناحية معينة في أداء عملنا، فمن الممكن أن نكون مسئولين جزئيا عن القلاقل التي تتعارض مع التقسيم الإنتاجي للعمل الذي تقوم عليه حضارتنا". و.فليبس دافسون. مجلة الرأي العام الفصلية خريف 1972م ص 314 الفكر الأمريكي المعاصر قام على نظرية توجيه الرأي العام وتحديد توجهاته ويتحقق ذلك ببناء الرأي وصناعة الرأي العام، لذلك تنتشر معاهد سبر الآراء وهي التي تحدد سياسة الدولة وكذلك استراتيجيتها العسكرية والسياسية والاقتصادية، هذا يندرج في علم الاجتماع المعاصر ويعود الفضل للعلامة المسلم ابن خلدون في وضع معالمه ومناهجه التي قرنها بفلسفة التاريخ. في عصرنا يتصدر المباحث الإنسانية لأنه يتيح قياس الرأي العام وحتى توجيهه ليخدم سياسات وثقافات متنوعة، أضحى علم الاجتماع علم له مناهجه وموضوعاته لأن وجود المجتمع حقيقة ثابتة، نلاحظه ونبصر تحولاته ونرصد تطوراته ونلم بتناقضاته، لأننا نعيشها كوقائع مشاهدة في الأسر والمدارس والمنتديات ونفزع من أزماته، نحن لا نصبر على تفشي الانحلال الخلقي أو نقبل مظاهر منحرفة كالانتحار أو الأخذ بالثقافات الواردة التي لا تنسجم مع الهوية

والانتماء لذلك وجد علم الاجتماع ليرصد هذه الحالات ويفهمها، يرجع الفضل إلى عالم الاجتماع الفرنسي إميل دوركايم 1858-1917م جعل مهمته الفكرية والعلمية النهوض بالدراسات الاجتماعية وإخراجها من البحث التاريخي الفلسفي إلى الدراسة العلمية القائمة على الوضعية، هي روح العلم وفلسفته، الموضوعية هي أن يتجرد الباحث الاجتماعي من ذاتيته ويبقي فقط على الحدث في صورته الشيئية، من أهم مؤلفاته نجد: تقسيم العمل الاجتماعي، قواعد المنهج في علم الاجتماع، الانتحار الصور الأولية للحياة الدينية. وضع لعلمه منهجية خاصة نلخصها في تثبيت الحادثة الاجتماعية، نثبتها بالعلوم المساعدة كعلم التاريخ والأنثروبولوجيا وهي الدراسات الوصفية للثقافات البدائية، يكون منهج العالم في الطرح والتحليل منهج العلماء في الفيزياء والكيمياء، وإن وقف دونه عائق ما فيجب أن يقوم بالتحقيق ويبحث عن المؤشر الذي ساهم في وجود الحادثة، ثم البحث عن العلل الفاعلة لأن الحدث الاجتماعي لا يوصف بالعبثية، لا يخضع لقوانين الصدفة، بل توجد قوانين تفسره والبحث عنها ورصدها هي وظيفة عالم الاجتماع، يجب إلغاء التفسيرات الغائية الماورائية، الحوادث ملتحمة مع بعضها البعض، لوجود علاقة سببية فانحلال الأسرة مثلا يقود إلى التشرد والتشرد يقود إلى الجريمة والجريمة تقود إلى الأزمات الأخلاقية و كذلك الاقتصادية، النتيجة أن الأسباب تقود إلى مسببات وفي غياب العلاج العلمي تتحول إلى أزمات مركبة تستعصي عن الحل، خير مثال الجريمة المنظمة في المجتمعات الغربية والفرضية العلمية تبقى عاجزة عن التفسير، لذلك تتم الاستعانة بخطوات عملية ومنها طريقة التلازم في التغير والقصد هو ضبط النسبة والتناسب بين ظاهرتين، كأن نفهم العلاقة مثلا بين البطالة و التفكك الأسري، هنا يستعين العالم بمنهج المقارنة العملي الذي

ينضبط بعلم الإحصاء، تبدو الحادثة أوضح في السلم البياني ونمتلك لها الحل العملي الذي نمتلك تفسيره وبيانه، قام العالم دوركايم بدراسة تطبيقية يثبت إمكانية الدراسة العلمية للوقائع الاجتماعية، دراسته شملت ظاهرة الانتحار في المجتمع الفرنسي، النتائج العملية جاءت: بعد دراسة ميدانية عملية وإحصائية وبالنظر للعوامل الدينية والمدنية ونمط الحياة وطبيعة الفرد وما يحمله من ثقافات، وصل إلى أن الانتحار عند العزاب أكثر منه عند المتزوجين، هو عند المتزوجين الذين لا أولاد لهم أكثر من لهم أولاد، أن نسبته عند البروتستانت أكثر من الكاثوليك ، وصل دوركايم للقانون التالي: "الانتحار يتناسب عكسا مع درجة الاندماج في المجتمع الديني والعائلي والسياسي". هذه الدراسات نقلة نوعية لها الأثر الإيجابي على العلم الإنساني عامة والعلوم الإنسانية خاصة ، مع ذلك وجدت من يعترض عليها، لأن قراءة النسب الإحصائية تأتي بشكل ذاتي، بين هالفاكس أن التفسيرات لا تقود بالضرورة إلى نتائج يقينية وقطعية وتساءل عن النسب المنخفضة في المجتمعات الكاثوليكية هل ترد إلى العقيدة أم الأصل أم النمط والوسط، لما لا تكون هناك عوامل أخرى نحن نجهلها لأنها لم تظهر في الإحصاء أو الاستبيان. علم الاجتماع تقف دونه عوائق نظرية وتطبيقية تفرضها طبيعة البحث الإنساني الذي يأتي معقدا ومتداخلا لأن الإنسان بطبعه لا يعرف الثبات بل هو في تغير مستمر. هو علم جديد تقف دونه عوائق إبستيمولوجية من أهمها، أن المجتمع يشكله الأفراد وقوتهم ظاهرة نجدها في فعل العظماء والقادة وأهل الفكر والعلم ودورهم في إحداث التغيرات الاجتماعية، لذلك نجد من المفارقة أن أعظم التحولات قد قام بها أفراد متميزون. الظواهر الاجتماعية لا تشبه الأشياء، لأنها إنسانية تحدها المشاعر والوجدانيات، يرى تارد Tarde 1843-1904م أن الحادثة الاجتماعية تصدر

عن الفئة الخاضعة للقوانين النفسية، هكذا لا يكون السلوك الصادر يمثل ذلك الضمير الجمعي بالضرورة، بل تحقيق لتوجه عام مشترك ينشأ عن التوافق في التفكير والسلوك الخلقي، قد تقرر فئة ما التظاهر للتعبير عن الرفض و المطالبة بحق الذي جمعهم ووحد موقفهم هو وجود مصلحة مشتركة هذا جعل المدرسة الماركسية تعتقد بقوة الاقتصاد وعوامله الفاعلة في تغيير نمط وشكل التفكير عند الفئة الواحدة. تتداخل الظواهر الاجتماعية مع بعضها البعض وكذلك بعوامل مقترنة تاريخيا واجتماعيا واقتصاديا، يجعل تحديدها بعيد المنال يقول جون ستيوارت مل: "إن الظواهر المعقدة والنتائج التي ترجع إلى علل وأسباب متداخلة، لا تصلح أن تكون موضوعا حقيقا للاستقراء العلمي المبني على الملاحظة والتجربة". الاستقراء العلمي الصحيح يقوم على التجارب الواقعية، هي غير محققة في الدراسات الاجتماعية، مع ذلك يتم استبدالها بمناهج المقارنة، كانت بديلا موفقا وناجحا، أتاح فهما عاما وهذا في منطق العلم يعد مقبولا. اتسعت دائرة البحث الاجتماعي رغم قصر المدة الزمنية، ليفسر تعقيدات الحياة الإنسانية في شقها الاجتماعي، فنجد علم الاجتماع العام الذي يرفع اللبس والغموض عن مسائل وقضايا الاجتماع الإنساني وكذلك مناهجه وطرائق بحثه، ونجد مورفولوجيا الاجتماعية وهي دراسة علمية للفئات الاجتماعية كوجود وكثافة سكانية وطريقة التوزيع ومدى التغيرات، ونجد الفيزيولوجيا الاجتماعية وسيسيولوجية المعرفة، علم الاجتماع الصناعي والقروي وغيره كثير. المجتمع الإسلامي يحتاج إلى قراءة جديدة لفهم تناقضاته ومفارقاته لأن رصد السلوك الجماعي وتحليله متقدم لفهم العناصر المعيقة لتطوره، مجتمع لا يمارس وظائفه، يكتفي بالنظر وعدم الاكتراث للأخطار التي تهدد وجوده، غافل عن حركة المجتمعات المعاصرة له، لا يرصد أفكار غيره، لا يفكك علاماتهم

الفكرية والثقافية، ينغمس بكل يسر في كل تفكير يظهر الجدة والتميز، يسلم بثوابته دون نظر وتأمل، القلة العالمة والمثقفة التي يفترض أن تكون الحصن وجهاز المناعة للجسد تعيش الغفلة والتيه، تذوب في الوهم والمطلق، تضع الفرضيات الخاطئة، تفسر الظواهر ولا تحللها، تنتقد ولا تقيم البرهان على صدق نقدها، تعترض دون وجه اعتراض، تقبل دون وجه قبول، فكرها قوالب إسمنتية جاهزة، تصنف الناس تصنيفات عبثية خاطئة لهم قدرة على التزييف والتحريف، قراءة الحدث التاريخي قراءة مجملة مقتضبة، لا قدرة لهم على فهم الأسباب والدوافع والمقتضيات، الغفلة عن الواقع والتحليق في أبعاد الماضي دون وعي ولا فهم للسنن، ينظرون للمستقبل واهمين، يختلقون العوالم السحرية والوهمية، ينتظرون الخوارق والمعجزات، ينتظرون قدوم العظماء والأبطال، يقتلون في أجيالهم الإبداع والابتكار، يعظمون التقليد يكرهون الجديد. نريد تأسيس علم اجتماع جديد له ثوب إسلامي وقراءة عربية، منهجه التحليل البنائي الفعال، والتركيب الاستنباطي القوي، يرصد الفعل ثم يحلله ويضع له العلاج، يفكك البنيات الاجتماعية، يقرأ الأفكار يفهم التصورات، يحلل لغة الخطاب تحليلا لسانيا وجوده من المطالب العاجلة، علم تتوقف عليه حياة مجتمعات لم تخرج بعد من فلسفة الثبات والجمود.

المراجع

مراجع باللغة العربية:

1. أفلاطون الجمهورية، ت/ فؤاد زكريا، دار الكتاب العربي، القاهرة، 68.
2. حسين بن عبد السلام، إشكاليات فلسفية، الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية،2007.
3. مالك بن نبي، تأملات، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق، 86.
4. مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، دار الفكر، دمشق، ط 3 86.
5. الجرجاني، التعريفات، تحقيق/ عبد الرحمن المرعشلي، دار النفائس، ط1 ، بيروت 2003.
6. ابن جنّي، الخصائص، تحقيق/ عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت.
7. محمد أبو حمدان، من طرق الفكر: الاستنباط، دار الكتاب اللبناني ودار الكتاب المصري، 78.
8. عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، بدون تاريخ.[13]
9. إ. دوركايم، قواعد المنهج في علم الاجتماع، ت/محمود قاسم، مكتبة النهضة المصرية،61.
10. جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج1-2، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 82 [3-5-6-15-16].
11. أبو نصر الفارابي، كتاب السياسة المدنية، المطبعة الكاثوليكية، بيروت.

12. سيغموند فرويد، الأنا والهو، ت/ م.ع.نجاتي، دار الشروق، ط 4 بيروت 82.
13. سيغموند فرويد، ما فوق مبدأ اللذة، ت/ إسحق رمزي، دار المعارف، 80.
14. سيغموند فرويد، معالم التحليل النفسي، ت/ م.ع.نجاتي، د.م.ج، ط5 الجزائر، 86.
15. القشيري، الرسالة القشيرية، دار الكتاب العربي، بيروت.
16. محمد قطب، منهج الفن الإسلامي، دار الشروق، القاهرة، 95.
17. إيمانويل كانط، أسس ميتافيزيقا الأخلاق، ت/م.ف.الشنيطي، دار النهضة العربية، بيروت، 70.
18. محمود يعقوبي، الوجيز في الفلسفة، المؤسسة المطبعية للفنون المطبعية، الجزائر 86.
19. مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.
20. الموسوعات الحديثية. الدرر السنية.

مراجع باللغة الفرنسية:

1. L’Encyclopédie de l’Agora. [8]
2. E. Benveniste, problème de linguistique générale, éd gallimard, paris, 66.
3. H. Bergson, Les deux sources de la morale et de la religion, 140ème Edition, Flammarion, Paris, 1966.
4. C.Bernard, Introduction à l’étude la médecine expérimentale, Garnier-PUF (F. Alcan), 1965.
5. R. Descartes, discours de la méthode, imprimé en union européenne, 96.
6. E.Durkheim, L'éducation morale, p.u.f, paris, 1963.
7. Encyclopaedia universalis (9). cd[8] .
8. G.W. Friedrich Hegel, esthétique, traduction: J Gaubier, t 2, 1944.
9. W. Heisenberg, La nature de la physique contemporaine, Gallimard, 62.
10. Platon, cratyle, Garnier frères, paris, collections Gf, traduction: chambray.
11. H.Poincaré, Valeur de la science, Flammarion, 1970.
12. André Lalande, Vocabulaire technique et critique de la philosophie, PUF / Vol. I. seixième édition, Quadrige.
13. F.de Saussure, cours de linguistique générale, éd payot, paris, 64.

فهرس الموضوعات